من زوايا مُختلفة

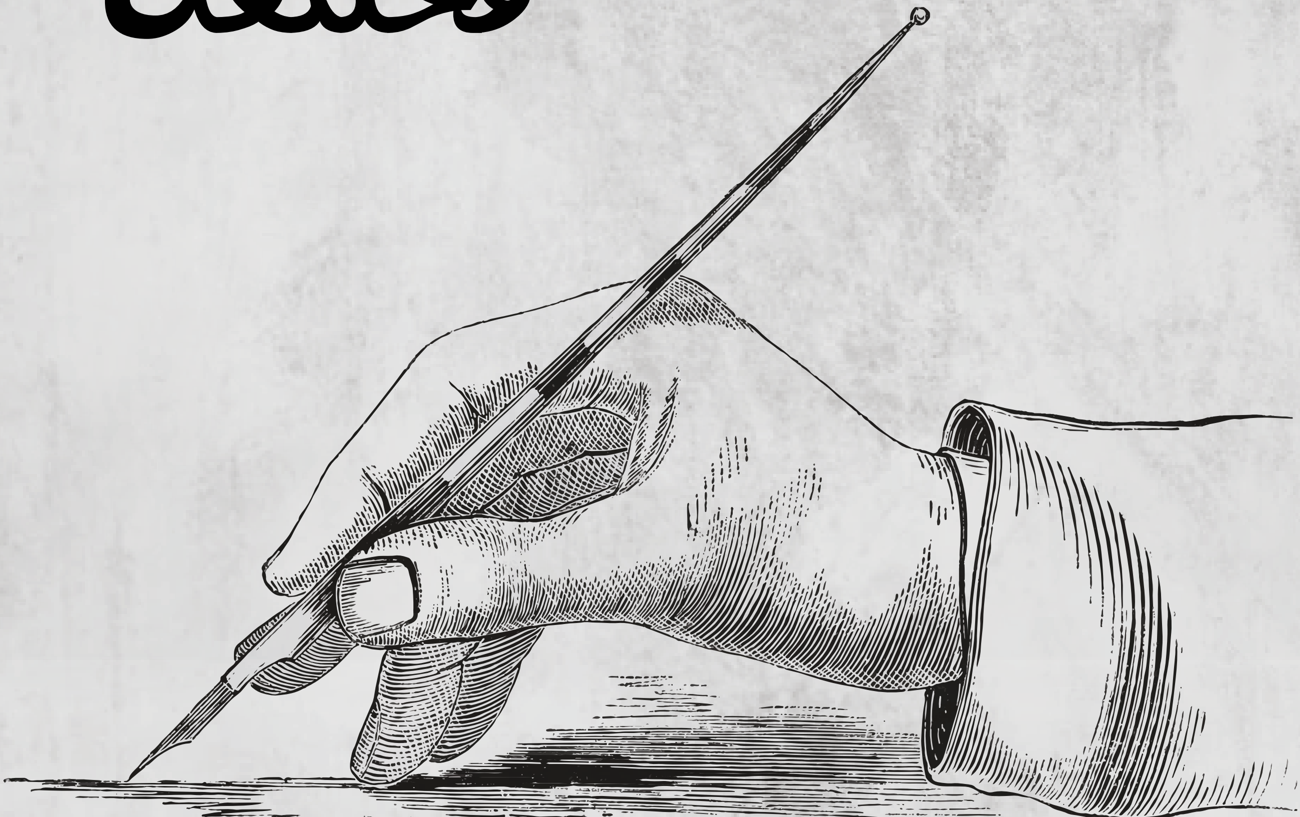

أيمن جبارة

مِن زوايا مُختلفة

إهداء...

إلى روح أبي وأمي رحمهما الله ...

إلى زوجتي وأولادي... الذين كانوا أول القارئين وأشد الناقدين...

إلى أصدقائي الذين لولاهم لما خططت شيئًا..

إلى قرية بيت صفافا.. التي احتضنتني بمحبة واحترام...

إلى موقع "بيت صفافا الآن"... الذي تبنى فكرة نشر المدوّنات...

إلى كُلّ من يفكر ويبحث للارتقاء بالعلم في كُلّ مكان، أُهدي لهم هذا العمل المتواضع...

القدس، 2022

أيمن جبارة

مُقدمة:

ستقرأ نصوصي المتواضعة، هي ليست بنصوصٍ سريالية أو مدائح أو ما شابه، وهي ليست أطيافُ كلمات، ولا أدّعي المثالية، رغم أني لَم أكتُب بعشوائية، ولم أكُن يومًا صوتًا بلا لحن، ناديتُ واقعي فأجابني بمصداقيّة، نزعتُ ريشةً من يمامةِ سلامٍ بيضاءَ راقيّة، وكتبتُ بِحبرِ الأيام، وملامح الأزمان، عزيزي القارئ، تمعّن صفحاتي ببُطء، وإن كُنتَ مُعلمًا تعلّم وتأمّل صدفاتِ بحري من خبرتي المتواضعة...، كُن ممن يقرؤون بحُب، كُن ممن يزرعونَ عباراتنا ومفرداتنا هنا وهناك... علّها تُثمرُ والزرعُ يانع..

عزيزي القارئ:

لديّ رسالة معنوية، ولا تنقصني الشهرة ولا أريدُ مالًا رغدًا أو ما شابه، فأنا ختمٌ على ورق..، ستعيشُ صفحاتي جزءًا عميقًا منك، ستبكي... ستضحك..، ستلهو بغيم (التراجيديا) وستمطرُ السماءُ فرحًا بنصائح تربوية عميقة، ستدفعك إلى أعلى السلم، إلى المجد يا سادة، ما أرجوه أن تتركوا لي دعواتكم وترحلوا بفرحة...

أيمن جبارة

"الصّراحة مش راحة"

من خلال أحاديثنا المتفرّعة في شتّى المواضيع والأماكن والمناسبات، كثيرًا ما نسمع أحدهم يقول بثقة وحزم: "مشكلتي إنّي صريح"، نصيحتي لكم ألّا تثقوا بشخص يبدأ حديثه بهذه العبارة الرنّانة، فالشّخص الذي يعتبر الصّراحة مشكلة لا يمكن الوثوق به بتاتًا.

يقول تعالى في كتابه العزيز: "يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولًا سديدًا"، ويقول عزّ وجلّ أيضًا: "وقولوا للنّاس حسنًا".

باعتقادي أنّ الإنسان هو نتاج تربيته وبيئته التي نشأ فيها، والأشخاص الذين تأثّر بهم.

لقد كان أبي رحمه الله رجلًا صريحًا، مباشرًا وحادًا في حديثه، يقول الحقيقة مهما كلّفه الأمر ذلك، وقد ورثت أنا أيضًا الصّراحة عن والدي، ولقيت من عنائها في حياتي الشّيء الكثير.

لقد كنت صريحًا طوال حياتي وقد دفعت مقابل ذلك ثمنًا باهظًا، حيث أقصاني أصحاب الوظائف والمراكز، فمن منهم يرغب بشخص يقول لهم بصراحة ماذا يفكّر عنهم وعن

أعمــالهم، شــخص يــذكّرهم بتقصــيرهم وقلــة خــبرتهم وعيــوبهم، وهــذا مــا نجــده كثــيرًا عنــد المســؤولين والمــديرين، حيــث يرغبــون بأشــخاص يطــأطئون رؤوســهم لكــل أمــر يصــدرونه، فــإذا رفعــت رأســك وانتقــدت أحــدهم، حــتى لــو كنــت محقًــا بانتقــادك فإنّــك تصبح عدوّ الجمهور رقم واحد، وأصبح قطع رأسك حلالًا.

أنا لا أنأى بنفســي عــن هــذه الفئــة مــن النّــاس، مــن المســؤولين والمــديرين، فكلّنــا نتــاج نفــس البيئــة ونفــس المجتمــع، وكمــا يقــول المثــل الشّــعبي "كلنــا قــارئين عنــد نفــس الشــيخ"، أعــترف أنــني كثــيرًا مــا سمعــت زوجــتي تقــول لي: "لا أحــد يهــتم برأيــك فيــه، احتفظ برأيك لنفسك".

ليس من الأدب أن تجرح مشاعر النّاس وتقول "أنا صريح" هناك فرق كبير بين الصّراحة والوقاحة.

الكثــير مــن النّــاس يطالبونــك بقــول الحقيقــة، لكــن القليــل مــنهم الذي يقبل منك الصّراحة، هل نقول ما لا تفعل؟

نعــم، صــحيح! معظــم النّــاس يطالبونــك بأن تكــون صــريحًا، وعنــدما تكــون كــذلك فــإنهم يكرهونــك وينعتونــك بالغــرور والوقاحــة، بــل أكثــر مــن ذلــك، فهــم يقصــونك ويبتعــدون عنــك، ويتحاشون التّحدث إليك أو التّعامل معك...

بيناتنا، تعالوا نتعمّق بمعنى كلمة الصراحة أو قول الصراحة، أليس المقصود قول الحق والحقيقة في أغلب الأحيان، أو على الأقل حقيقة ما يفكّر به الآخر؟ هل هناك جدال في أنّ قول الحقيقة واجب ديني واجتماعي وأخلاقي من الدرجة الأولى؟ لماذا لا نجد هذا الصراع أو هذه المعضلة في الثقافات الأخرى ونجدها عندنا؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الصّدق والصّراحة يجعلانك عرضة للانتقاد! ما من أحد يمكنه أن يقول إنّ التحدث بلباقة وبطريقة ممتعة أمر سهل، إنّ التّحدث في كثير من الأحيان يبعث على الاستياء الشّديد، فكثيرًا ما لا نقول إطلاقًا الأشياء التي قصدنا قولها، وكثيرًا ما نندم أننا لم نقُل الأشياء التي ينبغي أن نقولها ولم نستطع قولها.

سأل شخص صديقه قائلًا: "كيف استطعت أن تصبح متحدّثًا لبقًا؟"

فأجاب الصّديق: "بالخبرة".

فسأله قائلًا:" حقًا؟ من أين لك هذه الخبرة؟".

فأجابه الصّديق محتدًّا: "من كوني متحدّثًا سيئًا".

تعلّمنا من آبائنا وأجدادنا أنّ " لسانك حصانك، إن صُنته صانك، وإن خُنته خانك" وعليه فقد فسّر البعض أنّه علينا أن نلتزم الصّمت في كثير من الأحيان...

لكن أليس من الأجدر أن نتّبع الحديث النّبوي الشّريف الذي نصّه: "من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"....

أليس هذا الحديث حضًّا على ضرورة التغيير والشجب واستنكار الخطأ؟ ألا يُطالبنا الحديث النبويّ، بشكل غير مباشر أن نكون صريحين في أقوالنا من خلال جملة "فإن لم يستطع فبلسانه"؟

للأسف الشّديد صار هذا الحديث النّبوي، المعروف عند أغلب النّاس ، ذريعة للكثير منهم للتّنصل من تكليفهم الشّرعي والمجتمعي للتّصدّي للمنكر، وعلى رأسها سوء إدارة المؤسسات والفساد في شتّى مجالات الحياة، أغلب النّاس يقولون في معرض اعتذارهم عن فعل شيء في وجه المنكر: "نحن لا نملك حق التغيير باليد، فهذا من شأن القانون والأجهزة المسؤولة" ويقولون بعدها "إنّ تغيير المنكر باللّسان مُتاح لمن يملك القدرة على الوصول لصانع القرار كي يناصحه، أو لمن يملك مِنبرًا مُعتبرًا للمواجهة والحديث أو

الكتابة "ثم يختمون قائلين: إنّما نُنكر بقلوبنا، فهذا ما في وِسعنا"...

لا أحد يرغب بسماع الحقيقة، لأنّ الحقيقة مؤلمة في أغلب الأحيان، فنحن نفضّل أن نتجاهل الحقيقة كيلا نواجهها، لأنّ مواجهة الحقيقة أمر مؤلم ويحتاج إلى قوّة شخصيّة وحزم ومعظمنا لا يملكها للأسف الشّديد.

تعالوا ننهِ مدونتنا بطُرفة:

يُحكى أنّ السّبع، ملك الوحوش، أدركته الشّيخوخة، فغشِي بصره، وشحَّ نظره، فقَبِعَ في عرينه، رهن وساوسه وشجونه، فأقبل الثعلب يزوره وأقعى قرب الباب مُترَحرِحًا غير هيّاب، ومدّ حديثًا، قال:

-قالت الحكماء:" إذا شحّت الأبصار، عليكم بلحم الحمار! إنّه يجلب العافية ويُنير الأعيُن الغاشية، ويشدد الرُكب المتراخية"، وقد عاينت في طريقي إليكم الآن حمارًا سمينًا متعافيًا، يرعى في مكان قريب، فإن راق لكم الأمر رافقتكم إليه فتنعمون بقلبه، ولسانه، ودماغه، وهي خلاصة الخلاصات لإطالة الحياة وتتركون الفضلات لعبدكم الثّعلب، تعويضًا لي عن إخلاصي لكم في أحرج الأوقات.

فلملم السّبع ما تبقّى من عزيمته ونهض ومشى إلى جانب الثّعلب الذي راح يتملّق: "سلامة نظرك سيدي السّبع! انا فداك سيدي السّبع! حيّاك الله وبيّاك يا ملك الوحوش!".

وعندما وصلا إلى حيث كان الحِمار، تبرّع الثّعلب بنصيحة إلى السّبع: "من الحكمة أن تأتيه من الخلف فتأخذه على حين غفلة".

لكنّ الحمار هذه المرّة لم يكُن غافلًا، فتناول السّبع برفسة على صدغه وأُخرى تحت أذنه، فترنّح الأسد وسقط على الأرض مغشيًّا عليه.... وعندما بدأ يستعيد أنفاسه، سمع الثّعلب يقول: "صباح الخير يا سيدي الحمار!... لا شُلّت يمينك يا ابن آتان!... أيّد الله عزّك أيّها الجحش العظيم يا صاحب الصّوت الرخيم، والعقل السّليم، والظّهر القويم، والذّيل الطويل المستقيم"! فانتفض السّبع، وصاح "وما هذا التبجيل والتفخيم" أجاب الثّعلب: "النّاس مع الواقف إلى أن تنجلي المواقف!"

"موسم الهجرة إلى إسطنبول"

قالت لي صديقة ذاتَ يوم، عندما قرأت مقالتي الأخيرة عن الشخصيّة الفهلويّة: "كفى انتقادًا! اكتب عن الناس الحلوة"، ففكرت مليًّا بقولها، هل بالفعل كنت متشائمًا في كتاباتي وبعثت على اليأس في نفوس القرّاء؟

حسنًا سأغيّر نهجي الذي اتبعته في هذه الفترة الصعبة، فترة الكورونا والحجر والتطعيمات والاغلاقات وسأكتب عن الشوق والحنين" الشوق والحنين" إلى السفر والتنقل، فالحقائب جاهزة وما هي إلّا ساعات ونكون على متن الطائرة في حالة الإيذان بذلك.

هنا ذهبت أفكاري بعيدًا وتذكرت رواية الأديب السوداني الشهير الطيب صالح الذي كتب روايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال " في أواسط الستينات من القرن الماضي، حيث كانت مجتمعات العالم العربي وافريقيا والعالم الثالث قد خرجت لتوّها من ربقة الاستعمار العسكري الطويل، مفعمة بالأمل في التخلص من آثاره المزمنة، أو من جرثومته –كما سمّاها في الرواية– التي تركها في نسيج هذه المجتمعات.

ها أنا أعود الى الكتابة عن الأدب وعن الاستعمار وعن المشاكل، دعوني أتوقف هُنا، فالطائرة بانتظارنا على أهبّة

الاستعداد يحدونا الشوق والحنين إلى مدينتنا الجميلة التي افتقدناها خلال هذه الفترة العصيبة، مدينتنا إسطنبول الرائعة، مدينة كل المعلّمين والمعلّمات، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من المنهاج التعليمي... أقصد السياحي لكل فرد منّا.

لم نكتفِ بزيارة واحدة لإسطنبول حتى نجد أنفسنا نعود مرةً أُخرى إليها...

مرة أُخرى في موسم الصيف القادم، بل في موسم الشتاء أيضًا رافضين أن ننسى عادات آبائنا وتقاليدهم، فنحن من سلالة قبيلة قريش التي اتخذت لها رحلة الشتاء والصيف، هاتان الرحلتان هما رحلتا تجارة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين كل سنة، أولاهما شتاء إلى بلاد اليمن يبلغون بها بلاد حمير، وأخراهما صيفًا إلى الشام يبلغون بها مدينة بصرى من بلاد الشام، وها نحن نسير على نهج آبائنا وأجدادنا وننحو منحاهم.

لقد زرت إسطنبول لأول مرة قبل عشرين عامًا، هذه المدينة الضّخمة المفعمة بالحياة الصّاخبة، هذه المدينة التاريخيّة العريقة، لم تكن إسطنبول مثلما هي في هذه الأيام، ولكنها كانت وما زالت تجتذب إليها القادمين من كل أصقاع العالم، كما أعترف أنها لم تثر انطباعي سابقًا فقد كنت منبهرًا كأي شاب عربي بأضواء أوروبا الساطعة الغنيّة بكل شيء من ثقافة

وجمـــال، لكـــنّي اكتشـــفت إســـطنبول مثـــل غـــيري في الســـنوات الأخيرة.

فإســـطنبول ليســـت فقـــط ميـــدان "تقســـيم"، وشـــارع "اســـتقلال" ومحـــلات "حـــافظ مصـــطفى" للحلـــويات، هـــي ليســـت أكـــلًا ومطـــاعم "بـــوراك ونصـــرت" فقـــط أو الفنـــادق الضـــخمة الكبـــيرة، إســـطنبول ليســـت مجمّعـــات تجاريّـــة ومتســـوقات.... إســـطنبول تاريـــخ وحضـــارة، قصـــور وقـــلاع، ســـلاطين وخلفـــاء... إســـطنبول سليمان القانوني ومحمد الفاتح واردوغان.

إســـطنبول هـــي عارضـــة مـــن عـــوارض التغيـــير الاجتمـــاعي والاقتصـــادي في حياتنـــا، هـــي مؤشـــر لمـــا أصـــبحنا، هـــي ملجـــأُنا عنـــدما نصـــاب بالملـــل واليـــأس، وعنـــدما نرغـــب بالهـــروب مـــن أحزاننا ومشاكلنا.

يُقـــال إنّ الأتـــراك لا يحبّـــون العـــرب وأنهـــم يتّهمـــونهم بالخيانـــة بعـــد أحـــداث الحـــرب العالميّـــة الأولى وثـــورة الشـــريف حســـين وتآمـــره مـــع الإنجليـــز ضـــد الســـلطان العثمـــاني، هنـــاك شـــيءٌ مـــن الصـــحة بـــذلك، وفي جـــدال لي مـــع ســـيدة تركيّـــة صـــديقة، ذكـــرت لي مســـاوئ العـــرب بالماضـــي والحاضـــر وعنـــدما ذكّرتهـــا أنـــني أيضًـــا عـــربي، صـــفعتني بقولهـــا "أنـــت عـــربي أبـــيض" حيـــث سمعـــت هـــذا اللقـــب لأول مـــرة، ممّـــا جعلـــني أراجـــع أصـــولي الأيســـلندية، ضـــاربًا عـــرض الحـــائط كـــل أنســـاب العـــرب الـــواردة بكتـــاب الـــبلاذري

حول أنساب القبائل العربية، ولكننا لا ننسى أنّ تركيا اليوم هي أكبر ملجأ للّاجئين السياسيين الهاربين من ظلم الحكّام العرب، كما أنها احتوت أكثر من مليوني لاجئ سوري أغلقت الدول العربيّة أبوابها أمامهم، هذا الأمر يذكّرني بحادثة غيّرت حياتي كليًا.

"هذه الحادثة، غيرّت حياتي بصورة كبيرة جلست في أحد الأيام في ميدان تقسيم في العاصمة اسطنبول لآكل طبقًا من الكنافة اللذيذة التي ترافقها البوظة بطعم الفستق الحلبي، لا أدري لماذا لم ننتبه هنا لهذا المزيج الرائع!"، "لقد كانت برفقتي زوجتي وابنتي"، وعند أول لقمة لي! وإذا بيد صغيرة تجذب أطراف ثوبي، نظرت إلى يميني، وإذا بطفل صغير قصير القامة يشدّ بثوبي ويقول " عمي أنا جائع، أطعمني " صعقت لجملته، فهو لم يطلب النقود ولم يستجدِ، مجرد أنه قال أنا جائع "تذكّرت أولادي وتذكّرت عطلتي وفندق الخمس نجوم الذي نقطنه، أمسكت به من ثوبه وأجلسته بجانبي وناديت النادل وطلبت له الكنافة، استجاب النادل بامتعاض ولبّى الطلب على مضض، فهم كثر حسب رأيه ويضايقون الزبائن كما ادعى، لكنني لم آبه باعتراضه او كلماته.

- ما اسمك؟ ومن أين؟ وما عمرك؟ "سألته تاركًا الكنافة والبوظة التي ذابت بفعل حر الصيف"

- "انا اسمي أحمد من الشام وعمري خمس سنوات"، (قالها وهو يأكل الكنافة بنهم وجوع).
- سألته زوجتي كما هي عادتنا: "هل تريد ان تشرب شيئًا يا احمد"؟ حرّك رأسه رافضاً الفكرة كأنه يرفض ترك صحنه كي لا يأخذه النادل الذي يقف جانبًا وقد نَفِدَ صبره، لكنه لا يجرؤ أن يفعل خوفًا من نظراتي المهدّدة.

لم تتنازل زوجتي!!...

- كرّرت السؤال مرة أخرى: هل تريد الكولا أم تريد الماء؟
- " ألحّت بلطافة ورقّة" عندها رفع رأسه اليّ وقال: عمو إذا بشرب بتعطيني ليرة؟

" اه يا ويلّي" فجأة وبدون سابق إنذار شعرت بدموعي تنزلق من عيني بلا توقف، وجدت نفسي أبكي بكاءً شديدًا كما لم ابكِ طوال حياتي، تساقطت دموعي بكثافة وانضمت الي زوجتي وابنتي.

لم تتوقف دموعنا رغم استغراب المارّة من الناس الذين نظروا إلينا باستغراب وبعضهم باستهجان!

" لم أرَ الناس ولَم أرَ النادل الذي اختفى عن ناظري بعد أن طلبت الماء لأحمد.

"أنهى أحمد طعامه وأعطيته عشر ليرات، أخذها مسرورًا وقال: "شكرًا" واختفى بين الجموع في ميدان تقسيم...

لم نأكل الكنافة، بل لملمنا أنفسنا وعدنا إلى الفندق، ما زالت هذه الحادثة محفورة بذهني منذ سنوات وأخذت على نفسي عهدًا أن أرسم الابتسامة على وجه من استطعت من الأطفال."

أعرف أنني قد أفسدت عليكم الرحلة لكنَّ الطَّبع غلب التّطبع.

" إبعد تِحلى"

يـذكر مـن يُتـابع مـدوّناتي مـن بيـنكم أنـني قـد كتبـت منـذ زمـن قصـير مدونـةً تطرّقـت فيهـا إلى الصّـداقة والأصـدقاء، حاولـت مـن خلالهـا أن أُبـيّن أهميّـة الصّـداقة والأصـدقاء في حياتنـا اليوميّـة وبالغـت حينهـا في تعرضـي للموضـوع لدرجـة التصـنّع في بعـض الأحيان.

كلّمـا مـرّت الأيام أشـعر بأنّ قناعـاتي في هـذا المجال آخِـذة بالتّصـدّع واقتناعـاتي آخِـذة بالتّزعـزع، لا لا لم يحـدث أيّ شـيء مهـم دفعـني إلى هـذا الشـعور، ولكـن منـذ فـترة وأنا أسمـع هـذه العبـارة: "البعـد عـن النـاس غنيمـة"، أعـترف أنـني أحسسـت براحـة نفسـيّة عنـدما سمعتهـا وأعـترف أنـني أجـد نفسـي جالسًـا لوحـدي في بيـتي أو في مكتـبي، وممّـا يخيفـني في هـذا الأمـر أنـني أشعر بالارتياح أكثر وأكثر حين أجد نفسي في هذا الوضع.

بـدأت اقتنـع أنّ كلمـة "صُـحبة" لا تُطلـق إلا علـى شخصـين أو ثلاثـة في حياتنـا، هـذه "الصُّـحبة" تكـون أيضًـا في أوقـات مُتباعـدة ولـيس بشـكل متواصـل، فـالجميع لـديهم مشـاغلهم ومتاعبهم، والتّواصل يتم عند الحاجة.

لقـد توصـلت إلى القناعـة بأنَّ "تفاصـيل حيـاتي لا حاجـة لأحـد أن يعرفهـا" لـذلك أصـبحت علاقـاتي رسميّـة وسـطحيّة مـع

الغالبيـة، وخففـت فضـولي الزائـد وانـدفاعي لمعرفـة مشـاكل النـاس وقصصـهم، شـعرت بارتيـاح غريـب عجيـب، ارتيـاح لم اعهـده مـن قبل، فعلاً صدق المثل القائل: " قلّل ناسك بيرتاح راسك".

قبـل عـدة أيام وجـدت في صـندوق الرّسـائل عنـدي في الفيسـبوك طلـب صـداقة مـن فتـاة لا أعرفهـا، هـذه الفتـاة لم التَقِهـا بحيـاتي وهـي تسـكن في مدينـة بعيـدة عـني، يعـني لا أمـل أن التقـي بهـا، فهـي تعمـل في مجـال الصّـحة وهـو مجـال بعيـد عـن مجـال عملـي بالتّربيـة والتّعليـم، وجـدت نفسـي أرسـل لهـا رسـالة وحيـدة يتيمـة: "لـيش؟"، بعـد فـترة قصـيرة رأيـت ردًا لرسـالتي تقـول فيهـا: "مـا فهمــت"، شــرحت لهـــا واستفســرت عــن الســبب في طلــب الصــداقة الافتراضــيّة، أحسّــت الفتــاة بالإهانــة والامتعــاض رغــم أنهـا كانـت مؤدبـة حيـث قالـت: "براحتـك"، طبعًـا قامـت بإلغـاء طلـب الصّـداقة، بالطبـع لم أنـدم علـى ذلـك فـأنا أعلـم أنّ أغلـب أصـدقاء الفيسـبوك هـم مجـرد ديكـور، هنـاك الكثـير مـن الأشـخاص الـذين يجمعـون أكـبر عـدد مـن الأصـدقاء كهوايـة مثلمـا كنّـا نقـوم بالماضـي بجمـع الطوابـع، كلنـا نُلاحـظ أنّ علاقاتنـا ببعضـنا الـبعض آخـذة بالتعقّـد، كانـت علاقاتنـا في الماضـي واضـحة جـدًا، سـهلة بسـيطة، فهـذا جـارٌ لنـا وهـذا صـديق للعائلـة وذاك خـالٌ وعـم وقريـبٌ بعيـد، اليـوم نسـينا هـذه العلاقات التي أصبحت مجرد أسماء...

وهـا نحـن نـزداد حكمـة وفطنـة مـع تقـدمنا في السـن، هـذه الحكمـة تقـودنا أكثـر وأكثـر إلى الابتعـاد عـن النـاس، فـلا أحـد مثـالي أو كامـل، كلّنـا لـدينا عيـوب لكـن بـدرجات متفاوتـة، أصـبحنا نميّـز بـين الصّـديق الحقيقـي والصّـديق المزيّـف والصّـديق المؤقت.

هـل تـذكرون أنّ الصـداقة باللغـة العربيّـة درجـات؟ مثـل الزّميـل، والسّمير، والنّديم، والرّفيق.. وغيرها من الصّفات..

اليـوم أيضًـا لـدينا أسمـاء للصّـديق في العصـر الحـديث ومنهـا: الحقيقـي، الأصـيل، المزيـف، المؤقـت، المصـلحجي، المنتفـع.. وغيرها الكثير ممّا تستطيعون إضافته بأنفسكم...

أشـعر بقـدر كبـير مـن الأسـف، إذ أنـني أتراجـع عـن كلامـي السّـابق وأنا أسـتعرض صـداقاتي السّـابقة، وأتـذكّر صـداقاتي الحاليـة الـتي تتفـاوت مـن شـخص لآخـر.... كثـيرًا مـا أتسـاءل: أين ذهبت صداقاتي السابقة؟

أصـدقاء مـن نسـمّيهم "أصـدقاء الـزّمن الجميـل" أو أصـدقاء الشباب أو أصدقاء الجامعة...

"اسـتعيدوا ذكـرياتكم في الماضـي البعيـد" ..... وحـاولوا أن تتـذكّروا كميـة "الأصـدقاء" الـذين قابلنـاهم في مراحـل مختلفـة مـن حياتنـا، سـيقول بعضـكم أنّهـم بالمئـات وسـيقول الآخـرون أنّهـم

كانوا قلائل، ستعود بكم ذاكرتكم إلى جميع الأشخاص الذين أسعدوكم أو جرحوكم، كم من صديق قطعنا به علاقتنا بعد ان جرحنا؟ وكم من صديق أصبح غريبًا وأصبحت علاقتنا به رسميَّة بعد أن كان أقرب المقرّبين؟ كم تمنينا له الخير وأن نراه ناجحًا وأن يكون سعيدًا، ولكن بشرط واحد أن يظلّ بعيدًا عنّا.

من الأمور التي كانت وما زالت راسخة في ذهني أنّ بعض الناس لا يكرهوننا لمساوئنا، بل يكرهوننا لحسناتنا، ومن هذا المنطلق يخفي البعض منّا أصدقاءهم وصداقاتهم خوفًا من الحسد " هذا على الأقل ما أخبرتني به زميلة لي أنها لا تحب أن يرى الناس أصدقاءها كيلا يحاولوا التّفريق بينهم!"

قد يرى البعض بهذا الأمر مبالغة ومغالاة غير اعتيادية، ولكن في الأمر بعض الرمزيّة، إذ أصبحنا نخاف على صداقتنا الحقيقيّة من الحسد لنُدرتها.

بالأمس مشيت في أحد شوارع المدينة سيرًا على الأقدام، وهذا قلّما نفعله في عصر السرعة، فجأة لفت نظري كشكٌ حديدي صغير لبيع تذاكر اليانصيب أو كما نسمّيه هُنا "اللوتو" وكانت الجائزة كبيرةً جدًا، 40 مليون شيكل، تأملت الرقم طويلًا، فأنا لست من المغرمين بتعبئة اليانصيب، وأشعر أنّهم يبيعون النّاس أوهامًا وخاصّة الفقراء منهم وكبار السن

الـذين يأملـون بالفـوز بالجـائزة الكُـبرى المسـتحيلة، بالتأكيـد إنّ هـؤلاء الأشـخاص يفكّـرون بالفـوز ويسـعون لمسـاعدة أولادهـم وأفـراد الأسـرة ويبـذلون قسـطًا مـن المبـالغ القليلـة الـتي يملكونهـا جريًا وراء هذا الحلم.

للوهلـة الأولى اغـرتني فكـرة الفـوز بالجـائزة الأولى وبالمبلـغ الكبـير، ولكـن لـيس هـذا المهـم، المهـم أنّ أفكـاري تعـدّت مرحلـة التعبئـة والمشـاركة إلى مرحلـة الفـوز المؤكـد بالجـائزة، حيـث ذهبـت أفكـاري إلى شـراء جزيـرة بعيـدة أقضـي فيهـا وقـتي وحيـاتي بعيـدًا عـن حيـاة المدينـة المكتظـة إلى حيـاة هادئـة سـاكنة بعيـدًا عـن أصدقاء المنفعة والمصلحة.

أحسسـت أنـني أميـل فقـط لصُـحبة اولئـك الـذين يسـمحون لي أن اكـون أنا بكـل مـا أحمـل مـن غرابـة وتعقيـد، مـن يمنحـوني مسـاحات آمنـة أكـون فيهـا ذاتي بـلا تكلّـف أو مبالغـة أو تزييـف، مـنْ ينصـحون برفـق إنْ أخطـأت دون أن يعتلـوا منصة الحكم على أفعالي.

فجـأة! شـعرت بيـد غريبـة تلمـس كتفـي وتهـزّني لتنقـذني مـن أفكـاري وأحلامـي، نظـرت خلفـي فـإذا بامـرأة عجـوز تقـول لي:
"دورك، بدك تعبي أو لا؟ ما عندنا وقت لنضيّعه".

وهل يجوز أن أترككم بهذه الحالة دون طرفة؟ لا وألف لا....

يُحكى أنّ رجلاً شكا من ألم في ظهره وأراد أن يرتاح في بيته، فجاء أهل القرية يزورونه!

- قال أحدهما: "سلامتك يا ابو أحمد، هذا وجع الظهر ثلثو خَتْيَره، وثلثينو قهر، بيكبر الزلمي وما بيحطها واطي، وحرمتو بتظل تحك عالجرح حتى ينزل الدم".
- فقال رجل آخر: "لا، لا، وجع الظهر من خيانة الدهر، الكريم بيموت من وجع جيبتو، ممكن أبو أحمد محشور وكاتم علته".
- ودخل آخر وتبرع بنصيحة وقال: هذه يلزمها مغطس بارد"، وَجاؤوا بمغطس ملأوه بماء بارد ووضعوا الرجل فيه لمدة ساعتين، وعندما أخرجوه تبيّن أنّ مفاصله تيبسّت، فأشارت إحدى العجائز أن يدهنوا جسد الرّجل بزيت حار، فدهنوه حتى تقرّز جلده.

وصار كلما قدّم قادم تبرّع بنصيحة: كاسات هوا على ظهره، لزقة خردل على بطنه، "كيّ" فوق خصره، شربة خروع، شربة دود، جراب حقنة وتحميلة دبس وما أشبه ذلك.

وكانت اللياقة تقضي أن تنفّذ جميع هذه الوصفات إكراماً لخواطر أصحابها، ومع تكرار الوصفات تكرّرت النكبات: بقبق ظهر أبو أحمد وقفل بطنه وانحلّت مفاصلة، واصطكّت

أضراسه وضاقت أنفاسه، فقلق عليه جُلّاسه واستدعوا شيخ القرية ليتداركه بنصيحة دينيّة قبل انتقاله إلى الرحمة الإلهية.

- وعندما حضر الشيخ اختلى بالرجل وقال له: "لا بُد أن تكون قد ارتكبت في زمانك خطايا مميتة، حتى ابتلاك الله بهذه العلل المقيتة".
- قال أبو أحمد: "خطيئتي الوحيدة أنني سمعت نصائح الأصدقاء ونسيت نصيحة أمي قبل وفاتها: " إلّي ما بتعلم إلّا من كيسو بيموت قبل أوانه".

دامت صداقاتكم صداقة.

"آراب تايم"

- "السّلام عليكم" ممكن نحدد موعد؟
- "بالتّأكيد، متى ترغب بذلك"؟
- "غدًا السّاعة الواحدة".
- "سأكون عندك بالموعد".

هذه محادثة عاديّة نصادفها يوميًا آلاف المرّات بين النّاس، يعني لا شيء فيها خارج عن المعتاد، غير أنّ الشخص الذي تواعدت معه لم يحضر حتى بعد مرور عدة أيام ولم يعتذر عن عدم مقدرته على الحضور بالموعد المحدد، والأدهى من ذلك أنه عندما اتصلت به معاتبًا له على عدم الحضور والاتصال، أبدى استهجانه لغضبي وادّعى أنني أضخّم الأمور.

يُعتبر الوقت أهم ما في حياة الإنسان، حتى أنه أثمن وأغلى من المال، ولعظم الوقت وأهميّته فقد أقسم الله سبحانه وتعالى به في كتابه الكريم في مواضع عدّة منها، قوله تعالى: "والعصر إنّ الإنسان لفي خُسر"، وفي الحديث الشّريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".

احترام الوقت والالتزام به من أهم الأمور التي تؤثر على نجاحنا واستمرارنا في تحقيق الذات بشكل واضح.

ممّا يؤسف له حقًا أننا في مجتمعنا العربي وثقافتنا لا نحترم الوقت ولا نوليه أهميّة، فالوقت والمواعيد والالتزام بهما عبارة عن مجرد توصية لا غير.

أعترف أنني حسّاس جدًا بكل ما يخصّ الوقت والالتزام به، هذا الأمر عرضّني كثيرًا للمشاكل والمشاحنات خاصّة مع الأصدقاء المقرّبين والأقارب، باعتقادي أنّ عدم الالتزام بالوقت في مجتمعنا يعود إلى التّربية ثم إلى المدرسة ثم الجامعة والعمل، فإذا تم تعزيز تلك السّمة عبر تلك القنوات فإن الفرد يكبر وهو يحترم الوقت، لكن ما يحدث أنّ جميع تلك القنوات تتقبل سلوك التأخير أو نقض المواعيد، وكأنها غير مهمّة فلا تكون صفة احترام الوقت سمة من سمات الشّخصيّة، فالمجتمعات الغربيّة امتازت بتقديس الوقت والمواعيد، والواحد منهم لديه برنامج مخطط ليومه يرفض أن يخترقه أحد أو يُفسده عليه، بخلاف ما يحدث لدينا من عشوائيّة وعدم التزام، وعدم تنظيم في جميع أمورنا، فزياراتنا نخلف المواعيد فيها، والمواعيد مع الأصدقاء كثيرًا ما نتأخر فيها.

أكيد جميعكم سمعتم بالمصطلح "توقيت عربي"، هذا المصطلح يعني به قائله أنه لن يلتزم بالوقت، يعني إذا قال إنه

سيلتقي بك الساعة الخامسة، معنى ذلك أنه لديه مجال للتأخر حتى ثلاث ساعات على الأقل، في الحقيقة هذا الاصطلاح هو من أكثر المصطلحات إهانة للمجتمع العربي، فهو تأكيد أننا لن نلتزم بالوقت المتعارف عليه عند الأمم الأخُرى، فالتوقيت لدينا والتأخير له صفة العروبة، وأحد أكثر العبارات إهانة وعُنصريّة هي عبارة "شُغل عربي"، وهي عبارة يستعملها المجتمع الإسرائيلي اليهودي الذي يصف العمل العربي والأشغال العربيّة بأنها أعمال غير دقيقة وغير ماهرة، يعني بلغتنا العاميّة "شلفقة"، هكذا هو الأمر بالنسبة للتوقيت العربي.

- من أكثر الأمور إغاظة بالنّسبة لي هو أن تواعد شخصًا وتسأله متى ستأتي؟ أو متى سنلتقي؟
- ويكون الجواب: "بعد الظهر، أو بعد العصر، أو بعد صلاة المغرب"، ويستهجن هذا الشّخص عندما أسأله: "يعني أي ساعة؟ أعطني ساعة محددة".. طبعًا هذا الأمر يمتاز به أصحاب الحرف والمهن، فهو يعطيك موعدًا وأنت متأكدًا أنه لن يفي بوعده.

على فكرة، إذا نظرت اليوم إلى شبابنا، بكل ما يخصّ الوقت وعلامات الوقت، فإنك تجد ظاهرتين مهمّتين: أولاهما أنّ معظم الشّباب ليس لديهم ساعات يد، فهم لا يحتاجون

إليهـا، بـل يسـتبدلونها بسـاعات الهواتـف النّقالـة الذّكيّـة، فكثـيرًا ما تـراه يفـتح هاتفـه المـدمن علـى فتحـه وإمسـاكه بحجـة أنـه يريـد أن يـرى كـم السّـاعة " حـتى لا يفـوّت لقـاءه مـع رئـيس الـولايات المتحدّة".

لا يُـدرك شـبابنا اليـوم أنّ قمـة السّـعادة لـدينا، كانـت عنـدما كنّـا نحصـل علـى سـاعاتنا الأولى كـأولاد، كانـت سـاعاتنا رقميّـة علـى الأغلـب مـن طـراز "كاسـيو"، حيـث كنّـا نضـعها علـى أيـدينا ونمشـي ونحـن مُختـالون ويـدنا اليسـرى ترتفـع عاليًـا ليراهـا كـل مـن يلتقينا، وقمة سعادتنا كانت إذا سألنا أحدهم: "كم السّاعة؟"

فنجيـب بالتّفصـيل الممـل " السّـاعة كـذا وكـذا"، وكلّنـا فخـر واعتزاز بأننا قد أنجزنا المهمّة.

أمـا الـبعض الآخـر مـن شـبابنا فقـد اتخـذ السّـاعة حليـةً تـزيّن يـده، وهـي عـادة تكـون سـاعة مربّعـة كبـيرة، مرصّـعة بـبعض الأحجـار الكريمـة مـن ماركـة "آرمـاني"، سـأغامر وأقـول إنّ بعـض هـذه السّـاعات متوقفـة عـن الحركـة، فالهـدف منهـا لـيس معرفـة الوقـت وإنّمـا إبـراز جمالهـا علـى يـد الشّـاب، وإظهـار قدرتـه الماديّـة والاستعراضية.

إحـدى المشـاكل الـتي كنت أُعـاني منهـا في عملـي مـديرًا لمدرسـة هـي ظـاهرة التّـأخر لـدى الطّـلاب ولـدى المعلّمـين، كميّـة الحجج

والـذرائع الـتي يتـذرع بهـا هـؤلاء، تفـوق كـل خيـال، بـدءًا مـن أزمـة السّـير حـتى المـرض، أو عـدم اشـتغال المنبّـه صـباحًا، للأسـف الشّـديد هـذه الظـاهرة مـا زالـت مسـتمرّة حـتى هـذا اليـوم وسـتبقى كـذلك إلى فـترة طويلـة، حيـث أرى كـل يـوم مـن نافـذتي، جماعـات الطّـلاب الـتي تتـأخر عـن الـدوام المدرسـي، والأكثـر إغاظة هو أنّ هؤلاء الطّلاب يسيرون على أقل من مهلهم.

هـل تعلمـون أنّ أكثـر الأمـور معارضـة في أمـاكن العمـل هـو موضـوع وضـع سـاعة عمـل يقـوم الموظـف أو العامـل بختمهـا صـباحًا عنـد دخولـه وختمهـا مسـاءً عنـد مغادرتـه، يتـذمر الكـلّ مـن هـذه السّـاعة، وكثـيرًا مـا تتلقّـى هـذه السّـاعة كمًـا هـائلًا مـن الشـتائم والمسـبّات والـدّعاوي غـير المسـتجابة، الـتي ترجـو أن تتعطـل أو تخـرب أو تنكسـر وهـي عرضـة للتخريـب "والضّـرب" في كثـير مـن الأمـاكن لدرجـة أصـبح أصـحاب العمـل يضـعون الكـاميرات، الظّـاهرة والخفيّـة، المسـلّطة عليهـا...إنّ الالتـزام بالمواعيد تميُّز وانضباط، وهو من أساسيّات الحياة ومتطلباتها.

إنّ الدقّـة في المواعيـد يجـب أن تكـون مـن الأمـور الحتميّـة عنـد الانسـان كونـه سـلوكًا حضـاريًا يـؤدي لنتيجـة النّجـاح والفـوز والتّقدير والوصول السّريع للمبتغى...

إنّ الالتـزام بالمواعيـد صـفة مـن صـفات الأنبيـاء والمرسـلين، وأدب مـن آداب الصّـادقين الأوفيـاء، فينبغـي للإنسـان العاقـل الـواعي

المدرك، أن يفي بوعده ويلتزم بوقته، فإنه في أقل الأحوال مُذهب للمروءة ويُحدث خدشًا في الأخلاق ونقصًا في الحياء، وهل يصح أن ننهي مدونتنا بدون طرفة؟

كنّا نسمّيه "طوطح" لأننا قلّما رأيناه إلّا راكبًا على حماره مطوطحًا رجليه في الهواء، وكان البعض يسمّونه "تمتم" لأنه كان، وهو راكب، يتمتم بعبارات مُبهمة، حيث اعتقد البعض أنه يمدّ حديثًا ذا شجون مع حماره الميمون وكان جارنا هذا يحلف بشرف حماره، وكان حمار جارنا "طوطح" يحرن ويقف إذا انقطع حبل الكلام أو خفّت حرارة المجاملة بينه وبين صاحبه في أغلب الأحيان.

"سألته في أحد الأيام عن عمره"، قال: "من يوم ما وقعت وكسرت وِركي وصرت أتعاطى مع الحمير، صرت "هاري" 12 حمارًا ما عدا هذا الحمار".

وابتسم وقال: "بس هذا يمكن يهريني قبل ما أهريه".

وسكت برهة وقطب جبينه كأنه يحاول أن يفكّر وأضاف: "كل من خلق علق، والموت لا بدّ منه، لكن بين موت وموت فرق كبير؛ رجل يموت "مهتري" من كثرة الاستعمال، ورجل يموت مصدّي من قلّة الاستعمال".

ثم نهر حماره ومشى تاركًا حبل الكلام للحمار.

لـــذلك عاهـــدوا أنفســـكم أن تموتـــوا مُهترئـــين مـــن اســـتعمال عقولكم وأجسادكم، لا مصدّين من قلة الاستعمال!

"والحبل على الجرّار"

لقد تحدثت قبل أسبوعين في مدونتي وبصورة مُقتضبة حول موضوع العنف المنتشر في مجتمعنا، لم يكن حديثي عن الموضوع مُختصرًا بمحض الصدفة، فلقد تركت لنفسي الفرصة للتحدث عن الموضوع بتوسّع عندما تسنح لي الفرصة بالقيام بذلك.

الحقيقة أنني ترددت كثيرًا في التحدّث عن موضوع العنف، رغم انتشار الحديث عن ذلك في كل المحافل الاجتماعية والسياسية في البلاد، الجميع يتحدث عن العنف، الجميع يستنكر ويشجّب ويُندّد، الجميع يطالب الحكومة وأعضاء الكنيست العرب ورجال الإصلاح باجتثاث هذه الظاهرة المنتشرة بكل مكان في مجتمعنا.

يعتقد الناس في مجتمعنا أنّ العنف نابع من انتشار عصابات الإجرام في قُرانا ومدننا العربية، نتيجة لغياب القانون والسّلطة، فالجميع يُطالبون باجتثاث هذه الظاهرة بواسطة القضاء على عصابات الإجرام.

البعض يعتقد أنّ العنف يتمثل بالشّجارات العائلية التي تحدث بين فينة وأُخرى في مجتمعنا... والبعض الآخر يعتقد أنّ العنف المنتشر في المدارس نابع من انعدام سلطة الأهل ومن

القــوانين الحديثــة الــتي دخلــت إلى تربيتنــا لأبنائنــا وبناتنــا ممّــا أضعف المدارس وقلّل من قيمة وقدر المعلّم.

أنا لا أقلّــل مــن أهميّــة الأمــور المــذكورة أعــلاه، ولكننــا ننســى الكثير من الأمور والمؤشرات التي تُشير إلى كوننا مجتمعًا عنيفًا.

- هــل العنــف لــدينا في الجينــات منــذ كنّــا شــعوبًا وقبائــل؟ هــل نحــن شعب عنيف بطبعه؟
- هل من الممكن أن نهذّب أنفسنا وأن نتخلص من العنف؟

أذكــر أنــه عنــدما كنّــا طــلابًا في المدرســة أحببنــا خطبــة الحجّــاج بــن يوســف الثقفــي عنــدما قــدم واليًــا علــى أهــل العــراق وقــال خطبتــه الشــهيرة والــتي رأى فيهــا "رؤوسًــا قــد أينعــت وحــان قطافهــا"، آه كــم تفاعلنــا معــه وانتظــرنا بفــارغ الصــبر أن ينهــي خطبتــه وتبــدأ الرؤوس بالتطاير.

وكم استمتعنا بحب عنترة لعبلة وقوله:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تقطر من دمي

خطابنــا عنيــف، حبّنــا عنيــف، كــم قلنــا للحبيــب: "حبــك نار" وما إلى ذلك من الغزل العنيف.

نحـن عُنَفـاء بطبيعتنـا، نعـم مـن الصـعب أن نعـترف بـذلك صراحة.... نحـن عُنَفـاء جـدًا في الكثـير مـن منـاحي حياتنـا، مـا أحـاول قولـه إنّ العنـف لا يقتصـر علـى العصـابات، والإجـرام، والشّجارات، وغيرها..

أنـت عنيـف: إذا لم تقـف وتلتـزم بالـدّور في البنـك أو السـوبر ماركـت أو الصّـيدلية وغيرهـا مـن الأمـاكن العامـة فأنـت عنيـف، كـذلك الأمـر إذا تـدافعت ولم تنتظـر دورك للصّـعود إلى البـاص أو القطار فأنت عنيف أيضًا.

– إذا لم تلتـزم كسـائق سـيارة، بقـوانين السـير والاشـارات المروريـة وإذا لم تعـطِ حـق المـرور للمـارّة عنـد خـط المـرور، فأنـت بالتأكيـد عنيـف، وإذا لم تتصـرف بأدب ولباقـة في الشّـارع، وإذا شـتمت وصرخت فأنت عنيف.

– إذا مـررت بالضـوء الأحمـر، وإذا امتنعـت عـن الوقـوف عنـد إشارة "قف" فأنت بالتأكيد عنيف.

– إذا لم تـراعِ جـارك في المناسـبات والأفـراح، فأطلقـت مكـبرات الصّـوت بالأغـاني والأهـازيج، وضـرب ابنـاؤك "الفتّـاش والمفرقعـات" خـلال سـاعات الليـل والنهـار، ولم تـراعِ كبـيرًا بالسّـن أو رضـيعًا، ولم تـراعِ عـاملًا عـاد مُتعبًـا مـن عملـه ويرغـب في الرّاحة.

- إن لم تسمع نداءات أهل بلدك وأئمة المساجد المطالبين بعدم إطلاق هذه المفرقعات، أو لم تهتم بوجود "بيت عزاء" لشخص توفي في قريتك وحارتك وشارعك، فأنت بالتأكيد عنيف.

- إذا ظلمت أحد المستخدمين وتسلطت عليه، ومنعت عنه الرزق الحلال وعاملته باستبداد، فبالتأكيد تكون قد جمعت بين الظلم والعنف، فأصبحت ظالمًا وعنيفًا.

- إذا أحببت أحدهم يومًا، وفرّقت بينكم الأيام، فنسيت أو تناسيت الودّ والمحبة التي جمعتكما، وبدأت بالتشهير به وفضحه وإفشاء أدق التفاصيل فاعلم أنك أناني وعنيف، وإذا فرّقت الأيام بينك وبين صديق لك، فأنكرت فضله وأفشيت سرَّه، ونسيت "الخبز والملح" الذي بينكما فاعلم أنك ناكرٌ للجميل وعنيف.

- إذا قمت بنشر خبر على الانترنت، وتعرّضت فيه إلى غيرك وحرَّضت ضده، وأذعت الشائعات المغرضة بين الناس فاعلم أنك فاسق وعنيف.

- إذا فرحت لفشل صديقك أو زميلك في العمل، ونسيت فضل الزمالة وشمتّ به فاعلم أنك عنيف.

- إذا قاطعت حديث الناس ومنعتهم من اكمال أقوالهم، وسخرت منهم ومن أقوالهم فاعلم أنك عنيف.

- إذا وضعت العوائق في الطّريق وضيّقت على الناس بسيارتك أو شاحنتك أو حافلتك فاعلم أنك تضع الأذى بالطّريق وأنك عنيف.

أعزائي، القائمة طويلة والطّريق أطول، أعرف أنني قد أطلت عليكم لذا دعوني أُنهِ كلامي بطرفة:

يُحكى أنّ سائحًا استأجر حمارًا من صاحبه وركب عليه برفقة صاحب الحمار، وعند الظهر نزل السائح ليتغدّى، وإذ لم يجد مكانًا ظليلًا، أراد أن يجلس في ظلّ الحمار، فمنعه صاحب الحمار وقال: "أنا أجّرت الحمار، لكنني لم أؤجّر ظلّه، بل احتفظت به لنفسي" قال السائح: "لكن ظلّ الحمار من توابع الحمار ويحق لي أن أتمتع به".

واحتدم الجدال بين الرجلين وتطوّر إلى مشاحنة وشجار، فهرع عدد من رجال القرية وفصلوا بين السائح والرجل، وعندما علموا موضوع الخلاف وهو ظلّ الحمار "تنطح" أحدهم وقال: "أنا أقول إنّ ظلّ الحمار هو حق من حقوق مُستأجر الحمار".

فانبرى له رجل من الجانب الآخر وقال: "لا بل هو لصاحب الحمار" فأيّد بعض الحاضرين رأي الرجل الأول وتحمّس آخرون للرأي الثاني، وبدأ النقاش وحمي الجدال وما لبث أن تطوّر إلى مُشاتمة ومُدافشة واقتتال، بين رجال القرية.

عندئذٍ ركب السائح الحمار وانصرف مع الرجل وبقي أهل القرية مُنقسمين ومتقاتلين، حول "قضيّة ظلّ الحمار" إلى يومنا هذا.

هذا ما حصل ... صار ظلّ الحمار قضيّة، والقضيّة صارت قضايا، والقضايا صار لها أعوان وأنصار، وشهداء وأبطال، وضحايا وخراب ودمار... والحبل على الجرّار.

"عودة الضمير الغائب"

دخلتُ إلى بيتي ليلًا بعد نهار طويل في العمل، دخلتُ إلى غرفتي المظلمة أتحسّس طريقي بصعوبة فقد كان الظّلام دامسًا ولا يوجد أدنى بصيص من النّور، فلم تكن لهذه الغرفة إلّا نافذة واحدة، حاولت جاهدًا أن أرى حولي لكن دون جدوى! الشيء الوحيد الذي تمكنت من سماعه كان عبارة عن همهمات خفيّة تتطاير في فضاء الغرفة بصورة غير منتظمة.

اقتربت أكثر وتعمقت إلى داخل الغرفة ليتحوّل الصّوت إلى صوت أشبه بفحيح الأفاعي التي أخذت تعلو وتعلو حتى تحوّلت إلى صوت شخيرٍ مزعج يشقّ ظلام الغرفة.

وما هي إلّا لحظات حتى شعرتً بنفسي متعثّرًا بجسمٍ غريبٍ سرعان ما علا صوته بصرخات الألم والوجع....

- احذر يا أخي!!، أأنت أعمى؟ لقد أيقظتني من سُباتي العميق.

استغربت كثيرًا واختلط استغرابي بنوع من الخوف الخفيّ، فالصّوت معهود لي من الماضي البعيد حتى كدت أتذكر صاحبه...

- من أنت؟ من تكون ومن أين أتيت؟ كيف وصلت إلى هنا؟ من أذِن لكَ؟

- ألا تذكرني؟!

- ألا تعرف من أنا؟! على كل حال أنا لا أستغرب فقد طال سباتي ونومي وأنت لم تسمع منّي منذ زمن طويل، فقد جعلتني أنام لسنوات حتى ظننت نفسي أحد أصحاب الكهف.

يا للهول!!! بدأت رويدًا رويدًا أتذكّر الصوت... هل من المعقول أنّه قد استغرق كل هذه الفترة بالنّوم؟! ألم يصحُ رغم كل الضّجة والفوضى حولنا؟ لم أكن متأكدًا!

- هل حقًا هذا أنت؟

- أتتني الإجابة من خلال الظّلام الحالك: "نعم هذا أنا، لقد أطلت الغياب يا صديقي، نعم أنا صوت ضميرك الذي طال غيابه لقد نسيتني واستغنيت عني، فلم أعد أوقظك وأنبّهك إلى ما يحدث حولك، على ما يبدو أنني أصبحت في عداد الماضي فلا حاجة لي في هذه الأيام!

انتابني شعور غريب لسماع صوته، وأحسست أنّ عتابه صادقٌ، يغوص في أعماقي حتى يكاد يلمس أدق شراييني.

- أنا لم أنسكَ يا صديقي لكن عليك أن تعذرني فالظّروف قد تغيّرت في أيامنا هذه، تغيّرت لدرجة أننا استغنينا عنك وعن أمثالك.

- هل تريد أن تقنعني بأن النّاس قد توقّفوا عن الحاجة إلى خدماتنا؟

- ماذا فعل النّاس بضمائرهم؟ لقد كانت الضّمائر هي القلب النابض للنّاس في الماضي، ماذا فعلتم بها؟ أيّ مصيبة حدثت؟

- والله يا صديقي لقد قام النّاس بالتّخلّي عنها، بعضهم قام بتخديرها أو تخزينها والبعض قام بتشغيلها بوظيفة جزئيّة مع الكثير من القيود.

- لكن ألستم الذين كنتم تنادون وتتغنون بنا نحن الضمائر، ألستم من دعوتم إلى صحوتنا؟ ألم يطالبكم بذلك العرف والتّقاليد؟ أنا بالفعل مصدوم! ماذا بالنّسبة للعلاقات الاجتماعيّة بين الناس؟

- العلاقات الاجتماعيّة ممتازة بشكل كبير، فالنّاس يتبادلون الزّيارات بينهم، ويشاركون بعضهم البعض المناسبات كافّة، والعلاقات الأسريّة مترابطة ووثيقة، وعادت الأسرة إلى الالتمام حول الأب والأم وتكاتفت العائلة من جديد ونُبذت جميع

الخلافات... وعادت الأمور الى نصابها، فالأخ يحبّ أخاه وأخته، حتى أنّهم أصبحوا لا يحرمون أخواتهم من الميراث وأصبحت صلة الرّحم شعارهم الأول فهم دعم وسند لأخواتهم.

- كل الاحترام والتقدير.. ماذا بالنّسبة للتّكافل الاجتماعي والعلاقات داخل المجتمع؟

- أووه، هذا ما أصبحنا نمتاز به! هل سمعت عن الأوتوبيا أو المدينة الفاضلة؟ هكذا أصبحنا، فالجار يساعد جاره، والغني يساعد الفقير، لدرجة أنّ الفقراء انقرضوا من المجتمع وأصبحوا عملة نادرة، لدرجة اننا لا نجد أحدًا نعطيه زكاتنا وصدقاتنا... فالنّاس ينامون وهم شبعى، فلا جياع ولا معوزين حتى أنّ ظاهرة التّسوّل اختفت من مجتمعنا، فأغلقت البنوك أبوابها فلا قروض ولا فوائد.

- أف والله أنّك تفاجئني!!

- اطمئن يا صديقي ونم قرير العين فنحن بخير، كل الخير لدرجة اننا أصبحنا قدوةً يحتذى بها في كل بقاع العالم..

- ماذا بالنّسبة للمرأة وحقوقها؟

-يا سلام!!

– هـذا مـن أروع مـا حـدث لـدينا مـن تطـورات، فـالمرأة قـد حصـلت علـى المسـاواة مـع الرجـل بشـكل تام، فهـي تعمـل وتشـغل مناصـب عُليـا، وزوجهـا يشـاطرها أعمـال البيـت وتربيـة الأطفـال، كمـا وحصـلت علـى حقوقهـا في الميراث والنفقـة وتحـررّت مـن القيـود التّقليديّـة فهـي تخـرج مـع صـديقاتها مـتى شاءت وتقود سيارتها حيثما تشاء.

– رائع جدًا، ماذا بالنّسبة للدّين؟

– الـدّين منتشـر بـين النّـاس بكثـرة، فهـم يـرتادون دور العبـادة بشـكل دائـم، ويطبّقـون تعـاليم الـدّين بحـذافيرها، تبحـر النّـاس بعلـوم الـدّين والشّـريعة حـتى أننـا اسـتغنينا عـن رجـال الـدّين، فـلا شـيوخ ولا أئمـة ولا وعّـاظ.... واختفـت تجـارة الـدّين نهائيًّـا فكـل شـيء مجـاني! هـل تصـدّق أنّ فريضـة الحـج أصـبحت مجانيّـة؟ فالحـاج لا يـدفع شـيئًا فكـل المصـاريف علـى حسـاب الدولـة ونفقتهـا وكمـا ذكـرت سـابقًا، لا فقـراء ولا محتـاجين، وبيـت المـال امـتلأ وعـاد كمـا عهـدناه زمـن الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز، فالشّـباب يزوّجـون علـى حسـاب بيـت المـال وتبـنى لهـم البيـوت والمسـاكن علـى نفقـة المسـلمين، أصـبح التّعلـيم مجانيًـا وحصـل الشّـباب علـى الـدّرجات العُليـا، ولحقنـا بالشّـعوب والأمـم المتطـوّرة لدرجـة أنّ اسـبانيا اقترحـت علينـا إعـادة الأنـدلس ليحظى أهلها بالعزّ والرخاء.

– ماذا بالنسبة للسياسة؟ هل ما زالت كما كانت؟

– السياسة؟ ليس لدينا شيء كهذا، فلا سياسة عندنا ولا سياسيين، ولا احزاب ولا قوائم، الحكم للشعب فقط! فلا فساد ولا فاسدين، لا محسوبية ولا وساطات فلا تعرف ابن الوزير من ابن العامل البسيط، الشفافية عالية جدًا والأسعار رخيصة والخدمات الاجتماعية منتشرة بدرجة وحرفيّة عالية.

- الحمد لله على نعمته لقد هدأت من روعي يا صديقي فقد كنت قلقًا جدًا عليك، قلقٌ قضّ مضجعي في سنة من سنوات نومي لكنني الآن قد اطمأن قلبي.

- لا تقلق يا صديقي عد إلى نومك وسباتك، عد إلى راحتك وغيابك عنّا، فنحن بخير ما دمت غائبًا ونائمًا، وكيف ننهي مدونتنا بدون طرفة؟

"يُحكى انّ الكذب والحقيقة تقابلا في يوم من الايام"

- فقال الكذب للحقيقة: هذا اليوم جميل جدًا!

- نظرت الحقيقة حولها في شك ورفعت عينيها للسماء فوجدت أنّ اليوم جميل حقًا والجو جميل فقررت أن تقضي اليوم تتمشى مع الكذب..

- ثم قال الكذب للحقيقة: "الماء في البئر جميل جدًا، تعالي لننزل الى الماء"....

نظرت الحقيقة الى الكذب والشكّ يعتريها للمرة الثانية، ولمست الماء، فوجدته جميلاً حقًا، فتجردت الحقيقة والكذب من ملابسهما، ونزلا إلى البئر...

وفجأة! وبدون سابق إنذار، خرج الكذب من البئر، وارتدى مسرعًا ملابس الحقيقة وجرى هاربًا، خرجت الحقيقة من البئر عارية وغاضبة تجري وراء الكذب تود أن تلحق به..

ولما رآها الناس عارية غضبوا منها وأداروا وجوههم عن الحقيقة المسكينة، فرجعت للبئر اختبأت فيه ولم تخرج منه مرةً ثانيةً من شدة خجله، ومن وقتها والكذب يلف العالم، يرتدى ثوب الحقيقة والعالم يتقبله، وفي نفس الوقت يرفضون أن يروا الحقيقة عارية.

"العشق الممنوع"

يُقال إنّ الموسيقى ميزان الوجود، وإنّ الحياة بلا موسيقى خطأ فادح، فهي تُفصح عن تلك الأشياء التي لا تستطيع الحديث عنها، ولا تقدر السكوت عليها، فبدون الموسيقى يبدو لي العالم فارغًا فهي تُعطي روحًا للكون، وأجنحة للعقل وتحليقًا في الخيال، فهي تُعطيك المجال للهروب من الحياة من ناحية وأن تفهم الحياة بشكل أعمق من ناحية أُخرى، فهي نبضات حنونة تتسلل بكل خفّة لتدخل شغاف قلوبنا، فلا تمسّ شيئًا إلّا جعلته صافيًا نقيًا.

وقد أُثبت علميًّا أنّ الموسيقى تُساعد في استذكار المشاعر، كما تُحفّز الخلايا العصبيّة في الدماغ وذلك من خلال الاستماع إلى لَحنٍ معيّن في فترات زمنيّة مختلفة، فكلما استمع الشخص إلى نغمة محددة تُصبح مألوفة لديه وتقوّي الخلايا العصبيّة.

ومن هُنا تبدأ مُشكلتي، فمنذ أيام تُلازم ذهني موسيقى وأغنية لا أنجح في التّحرّر منها أو التّخلّص من صداها... حاولت أن أفعل أكثر من شيء، ولكن بدون نجاح.

قررت القراءة، رأيت حروفها بين أسطر كتابي، خرجت لممارسة رياضة المشي لعلّي أنساها، فإذا بي أسمعها تصدح من

هاتف أحد الصبية، ذهبت لممارسة رياضة رفع الأثقال فلازمتني رافضةً مغادرتي.

- أُف! ماذا تفعله بنا هذه الأغاني؟ هل هو اللحن السلس أم الكلمات البسيطة الهابطة؟ كلها "بَسبوس عاشق بِسّة وبدلعها بسبوسة"!! والمصيبة الأكبر من ذلك، ممّا زاد الطين بِلّة أنه قد انضمت إليها ملحقات جديدة وتوابع عميقة مثل: "دبدوب عاشق دبدوبة" و "وبطبوط عاشق بطبوطة".! لا، لا أعتقد أنها الكلمات كذلك ليس اللحن.

المشكلة هي نحن، هبطنا ولا زلنا نهبط، قبل أيام وصلنا خبر وفاة عملاق من عمالقة الفن والموسيقى وهو الفنان السوري القدير، صباح فخري "رحمه الله"، لا أعتقد أنه توجد علاقة بين وفاة الفنان صباح فخري وبين إطلاق هذه الأغنية، إلّا سُخرية القدر، مع أنني لا أستبعد وجود علاقة خفيّة رمزيّة بين موته والهبوط الحاد بمستوى الأغاني العربية.

- السؤال الذي يراودني: لماذا هبطنا إلى هذا المستوى؟ هل الهبوط الموسيقي له علاقة بالهبوط الفكري الحضاري؟!
- قديمًا كان المجتمع هو صمام الأمان لحفظ الأخلاق والقيم من الضياع والاندثار وكانت أعرافه المتعارف عليها بين النّاس بمثابة قانون موثّق يصعب اختراقه، وكان المجتمع قديمًا

متماسكًا إلى حدٍ بعيد، وكانت النخوة والشهامة والتسامح، وكانت المروءة والحياء أصلًا مُؤصّلًا بين الناس صغارهم وكبارهم، ورغم قسوة الحياة في ذلك الزمن إلّا أنه كان زمنًا جميلًا يعبّر عن الحياة الكريمة ويُعطي الإنسان مكانته، وكانت فيه أجواء السعادة والراحة، وكان للأشياء قيمة ومعنى رغم قلّتها وندرتها وبساطتها.

سيقول البعض أنّ مواقع التواصل هي التي أفسدت علينا لذّة الحياة ونكهتها وشتّتت شملنا وجعلتنا نُكِنُّ العداء لبعضنا وأفشت أسرارنا.

- ردّي على هؤلاء: إنّ مواقع التواصل الاجتماعي لم تُفسد علينا حياتنا، إنّ المجتمع لم يتغير، وإنّ مُواكبة التّطور والتّقدم هو أساس النهضة والرقيّ لأي مجتمع، إنّ الذي تغيّر هو جوهر الإنسان ومعدنه، في الزّمن الماضي لم يكُن الناس أنبياء، ولكن كانوا أنقياء صادقين رغم قلّة العلم والمتعلمين.

اليوم كثُر المتعلمون، وزادت المساجد وانتشر الوعاظ وأصبح في كلّ مدينة جامعة وكلّية لكنها لم تُحدث تغييرًا ايجابيًا في المجتمع ولم تكُن لديها رسالة تحاول غرسها، وتهتم بالشكليات والمظاهر.

لـولا الانحطـاط الفكـري والأخلاقـي والاجتمـاعي، ولـولا تغـيّر الإنسـان ومعدنـه لما ظهـرت عنـدنا هـذه النوعيـة مـن الأغـاني، ولبقـي "بسـبوس بسًّـا، وبسبوسـة بِسّـة" ولبقـي العشـق محصـورًا علـى قـيس وليلـى وجميـل وبثينـة، ولمـا انتشـرت في حينـه أغنيـة "بحبـك يا حمـار" محطّمـة أرقامًـا قياسـيّة في الاسـتماع والمبيعات...

علـى سـيرة الحمـير، أجلّكـم الله، فإننـا لـن نختم حـديثنا بـدون طرفة:

قبـل زمـن غـير بعيـد كـان متعهـدو تنظيـف الشـوارع في بـيروت يجمعـون الزبالـة وينقلونهـا علـى الـدواب، وكـان علـى الـزبّال أن يقتـني حمـارًا وكانـت أجرتـه في النهـار عشـرة قـروش، وأُجـرة صاحبة خمسة قروش.

ويُحكـى أنّ زبالًا مـات حمـاره، فحـزن عليـه كثيرًا، فأشـار عليـه بعـض العـارفين أن يسـلخ جلـد الحمـار ويصـنع منـه طـبلًا ويبيعـه بثلاثـة أرباع ثمـن الحمـار.... وهكـذا فعـل وشـدَّ جلـده طـبلًا علّقـه في رقبتـه، ومشـى يقـرع عليـه في أزقّـة المدينـة لعلـه يجـد مـن يشتريه.

فـاجتمع صـبيان الحـي علـى صـوت الطبـل فوجـد في المسـاء أنـه جمع من قرع الطبل أكثر ممّا كان يقبضه من نقل الزبالة....

وحدث عرسٌ في المدينة فحمل طبله وجاء، فنقدوه عشرين قرشًا، ثم رجع رجلٌ من الحج، فمشى في موكبه وقبض خمسين قرشًا....

أخيرًا قرّر أن يعتزل الزبّال "كار الزبالة"، ليتفرغ "للفن" وعرف قيمة نفسه وأسف لما فات من عمره، فطلّق زوجته، لينسى تعاسته، وتزوّج امرأة أُخرى تليق بمقامه.

وفي أحد الأيام أراد زبال آخر أن يحتفل بزواج ابنه فدعا زميله السابق الطبّال، فحضر بطبله وقام بالواجب، وطلب أجره خمس ليرات! فوجم الزبّال وقال: ألا تخاف الله؟! أنسيت أني أعيش من تعب حماري؟ ألا تعلم أنني أستطيع بخمس ليرات أن أشتري أحسن حمار بالمدينة؟ أجاب الطبّال: "تشتري أحسن حمار، لكن لا تصير ابن كار.. (يقصد ان تصبح فنانًا)!

يُقال إنّ كثيرين من الزبّالين، بعد هذه الحادثة، باعوا حميرهم وشدّوا طبولًا وصاروا فنّانين "أبناء كار".

وقد نشأت أزمة الزبالة، في شوارع بيروت، مُذ صار عدد الزبّالين أقل من عدد الفنانين في المدينة.

"أنا زومبي"

مـن المؤكـد أنّ عشـاق أفـلام الرعـب والخـوف قـد سمعـوا كثـيرًا الاسـم أو المصـطلح "زومـبي أو زومبيـات"، لقـد حاولـت أن أبحـث في القـواميس والمعـاجم العربيـة عـن معـنى ومصـدر الكلمـة "زومبي"، ففاجأني ما وجدته حول أصلها ومعناها:

" يـرجح أن أصـل الكلمـة مصـدره غـرب افريقيـا"، ويـرجح أن معناهـا شـبح أو انتقـام، أو جثـة لا تـزال تحـتفظ بالـروح أو جسـد بلا روح.

أمـا قـاموس المعـاني وهـو قـاموس انجليـزي عـربي فقـد تـرجم معـنى zombie بالكسول.

لا لا لـن أتحـدث عـن هـذا النـوع مـن الأفـلام، فـأنا لا أحبهـا وأكثـر مـن ذلـك أقـول إنـي أشمئـز منهـا، ولكـن مـا خطـر ببـالي في هـذه الفـترة، فـترة الكـورونا وفـترة التطعيمـات والطفـرات متنوعـة الأسمـاء والبلـدان حـتى تحسـبها تتبـع مجموعـة "مسـافرون بـلا حـدود" الفيسـبوكيّة الشـهيرة الـتي انضـم العديـد مـنكم إليهـا وأصبحوا أعضاءً فيها.

كمـا هـو معـروف عنـد الجميـع أنّ نسـبة العـرب المتطعّمـين هـي الأدنى في كـل الـبلاد، أقصـد بـلادنا ولا أقصـد الـدول المجـاورة،

في حين نسمع وكالات الأنباء في شتى الأقطار حول محاولات الدول المتقدمة والمتطوّرة من الولايات المتّحدة والاتحاد الأوروبي ومطاردتهم لعقد صفقات مشروعة وغير مشروعة مع شركات الأدوية، وحين نرى أنّ صفقات تبادل الأسرى والعملاء والجنود تتم مقابل قارورات من التطعيمات، فإنني استغرب من أبناء شعبي ومجتمعي العربي في البلاد الذين يرفضون تلقّي التطعيمات مزوّدين بعدد لا يُحصى من الذرائع والتقوّلات والاشاعات التّي يبثّها أشخاص يؤمنون بنظريّة المؤامرة ، لدرجة أنّهم ادّعوا أنّ التطعيمات تحتوي على شرائح هدفها التعقب والتجسس علينا، وكأنّ الدولة قد أرست عطاء تعقبنا على شركة "ميكروسوفت" العملاقة: وممّا يثير حفيظتي أن يأتي أحدهم إليّ هامسًا كأنّ المخابرات الروسيّة "الكي جي بي" تتعقبه، ويهمس بأذني أنه بعد التطعيم الأول قد بدأ يشعر بشحنات ميكروكهربائية تسري في جسمه وهدفها تعقب أفكاره ومشاعره، مدّعيًا أنّ هذه المعلومات سيتم بيعها لشركات التسويق والمبيعات المستقبليّة.

على فكرة صديقي هذا يعمل في مخبز لصنع الحلويات والكعك والمخبوزات، أعترف أنني لم أستطع حتى الآن أن أُقنع أولادي بتلقّي التطعيمات المجانيّة التي تعرضها صناديق المرضى على زبائنها.

لكنّي لم أيأس فما زلت أحاول اقناعهم بذلك بالطرق الحسنى عاملًا بالآية " وجادلهم بالتي هي أحسن".

إنّ الدولة قد أطلقت على العرب في البلاد أسماء كثيرة منذ قيامها، ولست هُنا بصدد تعداد هذه الأسماء التي لا أوافق على معظمها، ناهيك عن تقسيم المجتمع العربي إلى أديان وطوائف وأعراق، فهناك المسلم والمسيحي والدرزي، بالإضافة إلى البدوي والشركسي، فهل سيضاف إليها اسم وتصنيف آخر هو " الزومبي " وهم الأشخاص الذين لم يتطعموا أو رافضو التطعيم!

كيف ستبدو حياتنا في المستقبل؟ هل سيُمنع رافضو التطعيم من السفر بالطائرات أو من دخول المجمّعات التجارية؟ هل ستتشرذم العائلة العربية أكثر من هذا التشرذم والتفرقة؟

إلى أين سيؤول بنا الحال إذا رفضنا الاستجابة لأبنائنا وأهلنا إلى نداء المجتمع بالتطعيم؟ كما ذكرت سابقًا أنني الوحيد الذي قد تطعمت في بيتي، أما بالنسبة لآخر تطورات المفاوضات الحثيثة مع أولادي، فإنّ ابني قد صاح عاليًا بعد أن ضغطته: "يا خوفي أن تكون أنت الزومبي الوحيد في البيت".

"المُعَلَّق فوق"

- أنا: السلام عليكم، معك الأستاذ أيمن مفتش وزارة المعارف.
- هو: أهلين أخوي!
- (صمت من جهتي)
- أنا: كُنت حابب أستفسر منك شيء.
- هو: إحك!

(سكوت أطول من المرة الأولى)

- محادثة بيني وبينه:
- هو: تمام، شكرًا يا كبير!

(إغلاق الخط من جهتي).

هذه محادثة حقيقية جرت قبل عدة أيام بيني وبين أحد المرشّحين للعمل في الإرشاد ضمن أحد البرامج في المدارس.

محادثات من هذا القبيل تحدث بفترات متقاربة كوننا قد عُدنا إلى العمل بنطاق واسع بانتهاء الإغلاقات المتكررة، قد يتساءل البعض، خاصّة أبناء جيل الشباب، عمّا يميز محادثة من هذا النوع؟، قد يرى البعض الآخر أنها عادية جدًا

وتحدث كلّ يوم، يعني ما الغريب في هذه المحادثة؟ وما هي الأمور التي استوقفتني أو جعلتني أتحفظ منها؟

الحقيقة، قد أكون حساسًا أكثر من اللازم أو أنني أبالغ في ردود فعلي، لكن هذه المحادثات تصدمني وتفاجئني كثيرًا، والأكثر من ذلك أنها تصيبني بالحزن....

قد يستغرب بعضكم، ولكن إذا تمعّنتم قليلًا بالمصطلحات التي قام الشخص باستعمالها، والتي يستعملها معظم شبابنا، بغضّ النظر مع من يتحدثون.

قد يتحدث أحدهم مع والديه أو أصدقائه، ومن المحتمل أن يتحدّث مع أساتذته أو أحد المسؤولين في العمل، تمعّنوا جيدًا بالمصطلحات: "أخوي، إحكِ، يا كبير!".

عندما تتحدّث مع أحد الأشخاص الغرباء عنك أو الأكبر منك سنًا، وأنا هنا أمثل دور شخص غريب ومسؤول، ويجيبني هذا الشخص بجملة "أهلًا أخوي" أو يقول لي "إحكِ" مستعملًا فعل الأمر بدل كلمة "تفضل" التي طالما سمعناها ونشأنا عليها، منتقلًا منها إلى كلمة "ياكبير"، فإنّ هذا الأمر مؤسف ومُحزن ويجعلني أتساءل أين نحن من التربية؟

أين نحن من تنشئة الجيل الجديد من آداب الكلام والحديث مع الآخرين؟

"يا كبير!!"، أحسست نفسي جالسًا في مقهى شعبي في أحد أحياء القاهرة القديمة، ندخّن النرجيلة أنا وهو، أو في مشهد من فيلم مصري قديم، من الأفلام التي كانت تُعرض كل يوم جمعة، حقاً شَرُّ البلية ما يُضحك!

أتساءل! هل سبب ما وصلنا إليه مع شبابنا يعود إلى الحقيقة أننا قد توقفنا عن قضاء الوقت مع أبنائنا، هل يعود السبب الى اختفاء مجالس السمر والسهر التي تميّز فيها مجتمعنا، والتي كانت بمثابة مدرسة نتعلّم بها؟

كيف نتحدث مع مَن هم أكبر منا سنًا؟ هل يعود السبب إلى أنّ شبابنا قد انطووا على أنفسهم وأصبح الهاتف خير جليس لهم فأصبحت إجاباتهم مختصرة ومقتضبة؟!

تتصل بكَ أحد الفتيات صغيرات السن قائلة: "مرحبا، أيمن" ضاربة عرض الحائط بكل أساليب الذوق الرفيع وآداب الحديث، في البداية كنت أغضب وأثور من طريقة السؤال، ولكني اعتدت على هذا الأسلوب، ولكنني أتساءل؟ أليس من اللائق أن يقوم المسؤولون بتوجيه هؤلاء الشباب وإرشادهم حول كيفية التّوجه إلى الناس بلقب "سيد أو سيّدة"؟

الموضوع ليس موضوع "كَبْرة" أو "غرور"، إنّما هو موضوع أدب واحترام ولباقة بالتّعامل وحسن الذوق، فأنتم لا تعرفون

من يتواجد بالجهة الثانية من خط الهاتف ولا تعرفون سِنّه أو مركزه.

لطالما آمنت أنّ التربية بالقدوة لا بالتنظير، ولست أقلل من شأن النّصيحة والكلام، لا بدّ أن يفهم أولادنا قوانين البيت، وآداب الطّعام، آداب الطّريق، آداب الحديث، كلّ هذا لا غنى عن الكلام فيه، ولكن تبقى المواقف أبلغ أثرًا، وأصدق من كلّ الكلام! وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بدون طرفة؟!

يُحكى أنّ أسدًا وذئبًا وثعلبًا تشاركوا في طلب الرزق، فاصطادوا جملًا وغزالًا وأرنبًا.

– قال الأسد للذئب: ''أنت من أصحاب العقول، تحفظ الشرائع وتعرف الأصول، فتوَلَّ تقسيم الأرزاق على الرفاق"، وكان الذئب من رجال العلم والقانون، ويحفظ على ظهر قلبه كتاب "كشف الظنون عمّا في المصارين والبطون" ويحيط بأسرار "رسالة الناهش والمنهوش، بين البهائم والوحوش" فقال:

– "بناءً على المادة الخامسة من "قانون التراضي، تأليف القاضي "أبو فطايس"، ضبع العراضي، أحكم "بحصة الأسد"، للأسد، فيكون الجمل وهو كبير البهائم وأثمن الغنائم

لمولانا الأسد، ويكون الأرنب للثعلب، ويبقى الغزال لأخيكم الذئب".

فزمجر الأسد وتناول الذئب بكفّه ورماه في الفضاء، فوقع على شجرة قريبة وتعلّق "فوق" في أحد أغصانها.... ثم التفت الأسد إلى الثعلب وقال: –

- "قُم أنت، واقسم قسمة الحق".
- قال الثعلب: "قسمة الحق لا تكون بالمطالعات والمرافعات، بل بمعرفة الواجبات وتقديم اللياقات لأصحاب الكرامات، وعلى هذا الأساس يكون الجمل فطورك والغزال غداءك والأرنب عشاءك".
- فانشرح خاطر الأسد، وقال للثعلب: "ومن علّمك حسن الذوق؟".
- قال: " المعَلَّق فوق".

الحياة تضعنا كل يوم في اختبار تكون فيه قيمنا ومبادئنا على المحك وما أكثر الراسبين وأقل الناجحين.

الكُرسي بِتنَسِّي

" مُبارك...مُبـارك، أُعطِيَـت القَـوس باريهـا ... الشّـخص المناسب بالمكان المناسب.... تستحق الوظيفة بجدارة".

هـذا الحـديث دار بيـني وبـين قريـب لي، حصـل علـى وظيفـة مُـدير شـركة كبيرة، اعـترف أني سُـررت لسـماع الخـبر، فالرجـل لـه باع طويـل بالإدارة وقـد مضـى وقـت طويـل دون ان يحصـل علـى وظيفـة تليـق بـه، ممّـا أصـابه بالإحبـاط والاكتئـاب وهـو يـرى غـيره يتقـدم ويترقّـى ويبقـى هـو علـى حالـه، وقـد كانـت زوجتـه، في كـل جلسـاتنا وزياراتنـا تـذكره بأنـه يجـب أن يتقـدم لأنـه "مـش ناقصه اشي".

أقـوال الزوجـة سـببت لي ولـه الإحـراج وعـدم الارتيـاح، ومـن هـذا المنطلـق شـعرت بفرحـة كبـيرة لترقيتـه، أولًا لأنـه يسـتحق ذلـك وثانيًا كي نرتاح من لسان زوجته وحسدها.

قـررت أنا وزوجـتي أن نقـوم بـزيارة تهنئـة لقريبنـا بأسـرع وقـت، وقُمنـا بشـراء هديـة ثمينـة تليـق بمقامـه ومنصـبه الجديـدين، وقمـت بالاتصـال بـه فـردّت علـيّ زوجتـه وبادرتهـا التحيـة وأنا مـتحمس وسعيد بهذا الحدث.

كـان ردّ الزوجـة فـاترًا وباردًا بعـض الشـيء، أفصـحت لهـا عـن رغبتنـا بـزيارتهم للمباركـة لزوجهـا ولهـا علـى هـذا الحـدث الكبـير، حاولـت الزوجـة في البدايـة، الـتملّص والتّهـرب بحجـة انشـغال زوجهـا وعـدم وجـود وقـت فـراغ لديـه، لكنهـا خضـعت ورضـخت تحت إصراري وإلحاحي الشديدين.

قُمنـا بـزيارتهم في نهايـة الأسـبوع، فـتح ابـنهم الأصـغر البـاب لنـا وقـادنا، بقامتـه القصـيرة، إلى الصـالون الـذي لاحظـت فيـه تغيـيرًا ملحوظًا: فالكنبات جديدة والبرادي برّاقة.

اسـتقبلني قـريبي باحـترام وهـدوء ورصـانة، بينمـا جلسـت زوجتـه تضـع سـاقًا علـى سـاقٍ كأنهـا سـيدة فرنسـا الأولى وقـد غـيّرت "اللـوك" وصـبغت شـعرها وصـففته بمـا يليـق بمركزهـا ومنصـب زوجها الجديد.

معلـوم أنّ أكثـر النـاس يبـدؤون حيـاتهم كأشـخاص بسـطاء متواضـعين، لكـنهم يتغـيرون إذا حصـلوا علـى ترقيـة أو منصـب جديـد، فـإذا جلسـوا علـى كرسـي الوظيفـة نسـوا أصـلهم أو تناسـوا، فنـراهم يتغـيرون في سـلوكهم وتصـرّفاتهم مـع النـاس وحـتى مـع أقـرب المقـربين إلـيهم، وكمـا يظهـر الأمـر جليًـا علـى أولادهـم ونسـائهم، حيـث يبـدأ التغيـير بمـا يُسمّـى "الكـبرة" و "البرسـتيج"، فنـرى تغيـيرًا ملحوظًـا في المنـزل حيـث تبـدأ أعمـال الترمـيم والإصـلاحات، وتبـدأ الزوجـة بحملـة مقتنيـات، عفـوًا "شـوبينج"

تتضمن "كنبيات القعدة" وتنتقل إلى السيارة الجديدة من النوع الفاخر، ومنها إلى شراء الملابس الجديدة للزوجة، طبعًا لا ننسى الزيارات الدائمة لمصفّف الشعر والكوافير وغيرها مع مراعاة "اللوك" الجديد.

وينتقل التغيير إلى الأولاد، فالبنت تتعلّم العزف على البيانو، لتتمكن من عزف موسيقى "موتسارت" عند زيارة الضيوف المرموقين القادمين مع الوظيفة الجديدة، ولا ننسى المدارس الخاصة ذات الأقساط السنوية واللغات المتعددة، كما أن الأمر يُحتّم علينا إعادة النظر في عضوية أفراد العائلة بمنصّات التواصل الاجتماعي مثل "الانستغرام، والسناب تشات والفيسبوك، حيث يقوم أفراد العائلة بحذف الصور القديمة واستبدالها بصور جديدة برّاقة من سهرات المطاعم الفاخرة والاجازات السنويّة في سويسرا الّتي أوجبتها الوظيفة الجديدة، يجدر الإشارة أنّ معظم هذه المصاريف بالدّين وعلى "خازوق"......

طبعًا لم أذكر التغيير في السلوك، فاليوم من غير المناسب أن نُصاحب أصدقاء "العصر الماضي"، فلدينا أصدقاء جدد وعادات جديدة، لدرجة أننا نسينا أهلنا وأقرباءنا البسطاء، فهم لا يناسبون مركزنا "وبرستيجنا" الجديدين، حتى أننا قاطعنا أعراسهم ومناسباتهم ونسينا صلة رحمهم... هل

بالفعل يمكن للوظيفة أن تغيّرنا؟ أن تحوّلنا إلى أشخاص آخرين؟

للأسف الجواب هو نعم، عند البعض.

ما أن يحصل أحدهم على وظيفة أو درجة علميّة حتى يُشعرك أنّ "بيل غيتس" (مدير شركة مايكروسوفت وأغنى رجل في العالم) يعمل عنده بوظيفة جُزئية.

والويل والعار لشخص عادي يقوم بلفظ اسمه دون لقب المدير أو الوزير أو الرئيس قبله....

حتى طالب الدكتوراة في سنته الأولى يشعرك أنه أعظم علماء عصره، وأنّ اللجنة التي تقرّر الفائزين بجائزة نوبل قد أوقفت أعمالها حتى ينهي الدكتور تعليمه....

هناك فرق كبير بين أن يحترم الانسان نفسه ويقدّرها وهذا شيء عادي لا يُلام عليه، وبين الغرور "ونفش الريش" و "الكبرة" ونسيان الأصل، فهذا فيه الشيء الكثير....

إذا كانت الوظيفة والعلم لا يزيدانك تواضعًا فنحن في غنى عنها وعنك، تواضعوا واذكروا أين كانت بدايتكم، وأين كنتم ومن أهلكم وأقرباؤكم. لا تنسوا حارتكم ومدينتكم

وأصدقاءكم، فالوظيفة غير دائمة والحياة غير خالدة، والصحة غير باقية.

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بغير طرفة كما عوّدناكم؟

"يُقال أنّ خادمًا صغيراً في أحد القصور، لجأ إلى حيلة خلال صوم شهر رمضان، فكان يخبئ ما تصل يده إليه من البيض يأكله خِلسة عن رفاقه.

وجاء من يُخبر رئيس الخدم بالقصر أنّ الصّبي قد حمل بيضة وخرج بها خارج سور القصر....

فطلب رئيس الخدم من أحد الصبية أن يتعقّبه ويضبطه بالجرم المشهود يعود به إليه مع تقشيرة البيض.

- ذهب الصبي وعاد بعد دقائق قائلًا: "سيدي! الخادم أكل البيضة.. والتقشيرة".
- فغضب رئيس الخدم واستدعى الخادم ودعاه إلى الاعتراف وأدخله وأجلسه على الكرسي الخاص بالاعتراف وسأله عمّا كان يفعل وراء سور القصر.
- قال الخادم: "نسيت".
- فنَهرهُ رئيس الخدم وقال: "هل يُمكن أن تُنْسى بهذه السرعة ما كنت تفعله قبل قليل؟"

- قال الخادم: "العجيب يا سيدي، أنّ هذا الكرسي تُنَسِّي من يجلس عليها فلا يعود يتذكّر شيئًا، وإذا كنت لا تصدق اجلس عليها ودعني أسألك سؤالًا".
- فجلس رئيس الخدم على الكرسي، واقترب منه الخادم وسأله: "أيُّها الرئيس! ماذا كنت تفعل مع ابنة وزير البلاط، تحت الزيتونة، مساء أمس؟"
- فنهض الرئيس وقال: "معك حق يا ابني، الكرسي بتنَسِّي!"

ارحموا أنفسكم وارحموا غيركم أدامكم الله.

"الشيطان يعظ"

خـلال تصـفّحي لـبعض الكتـب وقعـت أنظـاري علـى مقـال لفـت انتبـاهي وجـذبني بطريقـة غريبـة لم أعهـدها سـابقًا، شـعرت بقوّة غريبة تُسيطر عليّ فجأة وبدون سابق إنذار.

كـان عنـوان هـذا المقـال: "الشّـيطان"، أعـوذ بالله مـن الاسـم والمسمّى!

هُنـا بـدأ صـراع فِكـري ونفسـي بيـني وبـين هـذه القـوى الغريبـة حيـث شـعرت أنهـا تحـاول لفـت انتبـاهي والسّـيطرة علـى أفكـاري، حيـث بـدا لي الأمـر غريبًـا، كمـا يبـدو لكـم كـذلك الآن، يعـني كيـف خطـر هـذا الموضـوع علـى بالي ولمـاذا؟ الكثـير مـن التسـاؤلات تعصـف بي، لا شـكّ أنّ التسـاؤلات سـرعان مـا تختفـي ليحـلّ مكانهـا شـعور مـن الفضـول حـول هـذه الشّخصـيّة المثـيرة والمخيفـة الـتي طالمـا عرفناهـا وجهلناهـا في آنٍ واحـد، فالشّـيطان هـو كـائن خـارق للعـادة... ويُعتـبر تجسـيدًا للشّـرّ في كثـير مـن الثقافـات والأديان، وهـو ممثـل الشّـرّ وكـل مـا ينطـوي تحتـه مـن أفعـال وأفكـار في حـرب مقدّسـة مـع قـوى الخـير وهـو يغـوي البشـر بارتكـاب الـذنوب والمعاصـي بحـقّ الله، وقـد نُسـب للشّـيطان صـفات الخـيلاء والتّكـبّر والعصـيان والتّمـرد والكراهيـة والحسـد والغِوايـة، والخبـث، والخـداع، وغيرهـا، هـل تبـدو لكـم

هذه الصّفات مألوفة؟! ألا نرى هذه الصّفات يوميًا؟ متمثلة في الكثير من أبناء جلدتنا من البشر، لقد صرّح أفلاطون، قديمًا بأنّ الرّجال الأشرار عندما يموتون يصبحون "شياطين" مُستثنيًا النّساء من الأمر، وممّا يدعم أقواله أنّ كلمة شيطان هي كلمة مذكرة.....

- تبًا لأفكاري الغريبة!
- هل وصلت إلى هذا الحد من الملل والضّجر والافتقار إلى الموضوعات حتى لجأت للكتابة عن هذا الموضوع؟!
- هل لهذا الأمر علاقة بالنّظرية الأدبيّة القديمة والتي اعتاد العرب تداولها والتي تنصّ على أنّ لكل شاعر شيطان يلقّنه الشّعر ويلهمه الأفكار؟ "لكني لست شاعرًا".
- هل أيقظتُ شيطاني بأفكاري هذه؟ لكن ماذا بالنّسبة لشيطان كل واحد منكم؟ ألا تتساءلون عن أحوال شياطينكم أنتم في هذه الأيام؟
- آه صحيح الآن تذكّرت لماذا خطر هذا الموضوع ببالي!
- الحمد لله أنني قد أفَقتُ من غيبوبتي وبدأت أستعيد ذاكرتي وأفكاري حتى خِلت أنني قد بدأت أفقد صوابي، كم من شيطان صادفتُ في الأيام الأخيرة، شياطين تسير على الأقدام متمثلة بأناس أعرفها وأصادفها يوميًا، هل من المعقول أنّ الشّياطين قد أخذت أدوار البشر أم أنَّ البشر أخذوا ادوارهم،

إذا لم يكن الأمر كذلك فما هو تفسير الأعمال الشّيطانيّة التي تسود مجتمعنا والتي تنتشر كالنّار في الهشيم وتزداد يومًا بعد يوم، متمثّلة بالكراهية والحقد والحسد والخبث وغيرها من الصّفات الكريهة؟

- ألم يرد في الحديث الشّريف: "الحسد شيطان والغضب شيطان"؟ يبدو لي أن تعوّذنا من الشّيطان لم يعد ينفع في أيامنا هذه، حتى ترديد العبارة: "أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم" لم تعد تؤثّر لا في الشّيطان ولا فينا، ألم يرجم الملايين من الحجّاج الشّيطان في موسم الحج الأخير؟

- يا لوقاحته! كيف استطاع أن يتغلّب على هذا الكم الهائل من الشّتم والإساءة، وبمساعدة مِن أعوانه الأوفياء؟ الكثير الكثير من التساؤلات التي أعجز عن الإجابة عنها، لكنني لا أملك إلّا أن أتوجّه إليكم أعزائي وأصدقائي بقولي ورجائي منكم: (تعالوا كل واحد وواحدة منّا "نضب" شياطيننا)، دعونا نقصيه جانبًا.

- هناك مقولة شهيرة تقول: عندما يتجاهلك الشّيطان، فاعلم أنّك تفعل الشيء الغلط، حينها يقول الشّيطان: دعوه وشأنه فهذا الشّخص مقرّب منّي، وعلى العكس من ذلك، عندما يتقرّب الشّيطان منك، فربما يكون السّبب أنك تحاول أن تفعل الشّيء الصّحيح.

هل نستطيع إيقاف شياطيننا دون أن ننهي حديثنا بطرفة:

كانت هنالك قرية تعيش في سلام ووئام، وكان للشّيطان ابن بلغ سن الرّشد، فأراد الشّيطان أن يمتحن شيطنة ابنه، وطلب منه أن يستعمل أسهل وسيلة، لإثارة أكبر فتنة في القرية الآمنة.

وما هي إلّا ساعات، حتى نشب خلاف في القرية تطوّر إلى شجار، فعراك، انقسم به أهل القرية فريقين متحاربين، فاستدعى الشّيطان ابنه، وسأله ماذا فعل حتى أثار الفتنة في القرية، قال: "حللت الحبل، وتركت الباقي على أهل القرية".

وأضاف الشّيطان الصّغير، أنه رأى إحدى نساء القرية تحلب بقرة بعدما "مَنّعت" عجلها وربطته جانبًا، فتسلّل الشّيطان الصّغير وحلّ ربطة الحبل، فأفلت العجل وركض ليرضع من ضرع أمه، فقلب سطل الحليب، فغضب زوج المرأة واتّهمها بأنّها لم تحكم ربط الحبل جيّدًا حتى أفلت العجل، وضرب الرّجل زوجته، فانتصر لها أخوتها وضربوه، وجاء إخوة الرّجل وأبناء عمّه، واشتبكوا مع أولئك، وما لبثت المعركة أن شملت جميع أبناء القرية.

أحكموا رباط شياطينكم جيّدًا حتى لا يقلبوا السّطل، والله ينجينا من حلّة الحبل.

"الّي برخص تجارته بتبور"

يتحدث الناس كثيرًا عن التواضع والبساطة في التعامل بين الناس وقد قيل الكثير في هذا المجال، حيث قال جعفر الصادق: "أحب الخلق إلى الله المتواضعون"، أما العماد الأصبهاني فقد قال: "أَلِن جانبك لقومك يحبّوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم يدك يطيعوك".

في الحقيقة هذه القضيّة اشغلتني وما زالت تشغل ذهني، فالسؤال الذي يراودني كثيرًا: هل أنا متواضع؟ ما معنى التواضع؟ حقًّا ما معنى ذلك؟ ماذا يجب أن أفعل حتى يعتبرني الناس متواضعًا؟ هل معناه أن تتحدث مع الناس باحترام أو هل معناه أن تجاملهم أو تتهاون معهم؟ هل يوجد امتحان للتواضع؟ كيف يُقاس التواضع؟ هل هناك سلم يختبر التواضع كسلم ريختر لقياس الهزّات الأرضيّة مثلًا؟ هل عليك أن تكون مسؤولًا أولًا حتى تتواضع؟ ماذا إذا كنت انسانًا بسيطًا أو عاملًا بسيطًا، هل تكون متواضعًا أو كما يُقال "على البركة"؟

حدثني صديقٌ لي، يعمل في مجال التربية والتعليم حول هذا الموضوع ، قال: "منذ سنوات قليلة حصلت على ترقية في عملي وأصبحت مسؤولًا، في الحقيقة إنني قد تفاجأت من كمية رسائل التهنئة التي وصلتني من المعارف والأصدقاء،

ولكن الأدهى من ذلك كانت كمية الرسائل التي وصلتني من أشخاص لا أعرفهم ولا توجد بيني وبينهم أي علاقة تُذكر، طبعًا عَزَوْتُ ذلك أنه ربّما يكون الناس مسرورين لتعييني في هذا المنصب وأني أملك شعبيّة كبيرة بين الناس، بل يمكن القول إنني كُنت مسرورًا بذلك من منطلق المثل الذي كانت والدتي، رحمها الله، تكرره دائمًا: "صاحب المِسْعَد تِسْعَد"، استمر صديقي في حديثه قائلًا: نتيجة هذا التغيير المفاجئ في حياتي، قررت وبعد أن أصبحت مسؤولًا يسعى الناس إلى التقرّب منه أن أكون متواضعًا، وذلك بعد إلحاح شديد من عائلتي واصدقائي الذين اتهموني بالغرور والتعالي حسب رأيهم، طبعًا أنا لم أرَ الأمر كذلك، إذ رأيت أنّ الابتعاد عن الناس واعتزالهم هي الطريقة المثلى لِنأمن شرّهم فكلما اختلطت أكثر فإنك تسمح لهم بالتدخّل بحياتك أكثر وهذا شيء لا أحبّذه في حياتي الشخصيّة".....

واستمرّ صديقي قائلًا: "أعترف أنني انصعت للأمر مرغمًا وعلى مضض، فمن الصعب أن يتغير الإنسان في هذه المرحلة العمرية وبعد هذه السنوات الطويلة من إتّباع أنماط من العمل والحياة حيث أنّ الطبع يغلب التطبع، لكنّي لا أنكر أنني كنت سعيدًا بهذه الحلّة الجديدة وهذه الشخصيّة المحبّبة، وسعدت أكثر عندما رأيت ردود الفعل عند النّاس الذين رأوا شخصًا جديدًا، أقل غضبًا وحدّة في ردود الفعل، فكثرت

الابتسامات وتغيّرت النفسيّة فتبنيت عادات جديدة وتغير أسلوب اللبس من الرّسمي إلى اللبس المريح المتحرر وتغيّرت الألوان من الألوان القاتمة إلى الألوان الأكثر زركشة والألوان الفاقعة مما زاد في تقبّل النّاس للشّخصيّة الجديدة حيث الأريحية والمرونة."

وفجأةً! تغيّرت نبرة حديث صديقي في الكلام واستمر قائلًا: "في الحقيقة إنني استمتعت بهذه الشخصية لفترة من الزمن، فبدا لي الأمر ليس بهذه الصعوبة التي كنت أظن...! لكن التساؤل ما زال يراودني هل هذه الأريحيّة والاحترام من قبل الناس نابع من بواقي الشّخصيّة السّابقة القديمة أم من الشّخصيّة الجديدة البرّاقة؟

للأسف بعد فترة من الزمن بدأت الأمور تتّضح أكثر فأكثر، حيث بدأت ألاحظ أنّ الناس يحترمونني بالفعل ويجاملونني، ولكن من جهة أُخرى توقفوا عن الحذر في التعامل معي، وبدأت أحسُّ بنوع من الاستهتار والاستخفاف، هل هذا لأنهم لا يخشون جانبي أكثر؟ بدأ الأمر أنني في كثير من الزيارات العمليّة كمسؤول مع المسؤولين الآخرين توقف الناس عن ملاحظتي، أصبحت شخصًا عاديًا، يعني مفروغًا منه، فأنا أعمل وأقدّم وأبذل جهدًا وغيري يتلّقى المديح والإطراء

ويتلقّى الدعوات والاستقبالات أما أنا فأصبحت هامشيًا، فأنت مضمون وغير ضار....

توقف صديقي عن الحديث، وأخذَ جرعةً من الماء، نظرت إلى وجهه ورأيت أنّه كان متأثرًا جدًا فحثثته أن يستمر في كلامه، فتساءل قائلًا: "هل رخّصت تجارتي نتيجة كوني متواضعًا حتى بارت تجارتي؟ هل بالفعل أنّ الافراط في التواضع يجلب لك المذلّة؟ هل يُقاس التعامل معك بقدر المصلحة والحاجة إليك؟ يعني هل تنتهي صلاحيتك عندما تنتهي المصلحة منك؟

هذا الأمر يُقلقني وللتأكيد على ذلك أنني أجد ازديادًا ملحوظًا في طلب الصداقات على الفيسبوك، تزايدًا في طلبات أشخاص لا أعرفهم أو لم التقيهم أبدًا! ماذا يريدون منّي ولماذا يطلبون صداقتي؟ هل للمصلحة؟ هل أصبح الشّخص يُقاس بمقدار الفائدة التي بإمكانه أن يزوّدها للآخرين؟"

رأيت أنّ صديقي قد أصبح متأثرًا جدًا وحزينًا فقررت أن أرطّب الجو وأبعث السرور في نفسه فقلت له حديثك يذكرّني بطرفةٍ كنت قد قرأتها سابقًا تقول:

- "خرج المهدي يتصيّد فغارَ به فرَسهُ حتى وقَع في خِباء اعرابي، فقال يا أعرابي هل من قِرى (ضيافة) فأخرج له قُرص شَعير

فأكَله ثمُ أَخرج له فضلة من لبن فسَقاه، ثُم أتاه بِنبيذ في رَكوَةٍ فَسقاه فلمّا شَرب قال أَتدري مَن أنا؟

- قال: لا.
- قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة.
- قال: بارك الله لك في موضعك ثم" سَقاه مرةً أخرى فشرب".
- فقال: يا أعرابي أتدري من أنا؟
- قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة.
- قال: لا أنا من قُوّاد أمير المؤمنين قال رحبت بلادك وطاب مرادك.
- ثم سقاه الثالثة فلما فَرِغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟
- قال: زعمت أنك من قُوّاد أمير المؤمنين.
- قال: لا ولكني أمير المؤمنين.
- قال فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها (أغلقها)، وقال إليك عني، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله، فضحك المهدي حتى غَشي عليه ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأَشراف فَطار قلب الأعرابي...
- فقال له: لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال جزيل."

بـدا صـديقي متـأثرًا، وعـابس الوجـه كأنـه لم يسـمع طُـرفتي ولم تلفـت انتباهـه واسـتمر في حديثـة قـائلًا: "إنّ القشّـة الـتي قصـمت ظهـر البعـير كانـت في فـترة شـهر رمضـان، حيـث تُقيم المـدارس والمؤسسـات أُمسـيات رمضـانيّة وإفطـارات وليـالٍ للعـاملين فيهـا أو مـا يسـمى شـركاء، وجـدت أنـني قلّمـا أُدعـى لهـذه المناسـبات رغـم أنـني قـدمت الكثـير لهـذه المؤسسـات، ووجـدت أشخاصًـا آخـرين يتـألقون بالصـور علـى مواقـع التواصـل والابتسـامة العريضـة تعتلـي وجـوههم كـأنهم حققـوا الإنجـازات الهائلـة لهـذه المؤسسـات وهنـا تبقـى أنـت حـائرًا تسـأل نفـس السؤال هل:

"الّي برخص تجارته بتبور" ؟

أن تكون مسؤولًا!

أذكر أنني قد كتبت في إحدى مدوناتي السّابقة، مدوّنة بعنوان "الكرسي بتنسّي" والتي تطرّقت فيها إلى المسؤولين وكيف يجب أن يتصرفوا مع مرؤوسيهم، كما تحدثت عن الغرور "والكبرة" وأوصيتهم بالتّواضع وأنّ عليهم أن يتذكروا أين وكيف كانت بدايتهم، فالوظيفة غير دائمة والحياة غير خالدة.

هُنا خطر على بالي تساؤل: ماذا كُنتَ أنت أيّها القارئ الكريم، ماذا كنت تشعر لو كنت مسؤولًا؟

معظم النّاس ليسوا مسؤولين، ولن يكونوا كذلك، فهل تخيّلتم يومًا أن تكونوا أنتم بهذا الموقع؟ هل تعلمون أن عبء المسؤولية هو من أعظم الأمور ثقلًا على الانسان؟ ماذا يشعر هذا المسؤول، وكيف يفكّر أو ينام؟ متى يصحو وكيف يصحو؟ كيف يمرّ عليه يومه وأسبوعه وشهره؟ إنّ معظم المسؤولين يعيشون مسؤوليتهم 24 ساعة في اليوم.

- ما معنى أن تكون مسؤولًا؟

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تكون وحيدًا، أن تقف في رأس عملك وحدك، أن تتحمّل المسؤولية وحدك. سيقول البعض: لو كنت مكانك لفعلت الأمور بشكل مغاير، أو فعلت كذا

وكذا. تذكّر أنّ ما تراه وأنت تقف أمام المكتب، مختلف كل الاختلاف عما تراه وأنت تجلس خلفه، وإذا حالفك الحظ ونجحت، فسيكون النجاح حليف الجميع، حليف الطاقم المخلص، أمّا إذا فشلت فأنت الضّحيّة وأنت المُلام، وإذا خالف أحد العاملين لديك القانون فستدفع الثّمن غاليًا وقد يصل الأمر إلى أن تجد نفسك خلف القضبان.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تعرف طاقمك جيدًا، مطلوب منك أن تتفهمهم وتتفهم مشاكلهم ونفسياتهم، زلّاتهم ونزواتهم. مطلوب منك أن تكون سندهم وداعمهم وملجأهم بينما ينسى الجميع أنّك بأمس الحاجة لمن يدعمك ويقف إلى جانبك وأنّك تكتم همومك ومشاكلك داخل صدرك فلا أحد تلجأ إليه أو تفضفض له.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تصل إلى مكتبك في الصّباح الباكر، وأن تكون أول الواصلين وآخر المغادرين، أن تبذل قصارى جهدك في إتمام وظيفتك ومهامك على أكمل وجه وألّا تتغيب عن العمل إذا مرض ابنك أو ابنتك كما يفعل آخرون، وألّا تخرج إلى إجازتك وأن تعمل في نهايات الأسبوع أو في فترة الأعياد أحيانًا.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تتعرض إلى الكثير من الإغراءات والعروضات المشروعة وغير المشروعة، وأن تتلقى

شتّى العروض والدعوات، وتقديم الهدايا لك ولأفراد عائلتك، وعليك الصّمود أمام هذه الاغراءات وإلا فالويل لك.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن يُجاملك النّاس ويتملّقونك، وعندما تدير ظهرك تبدأ الألسن بنهش لحمك دون رحمة، وإذا "وقعت" كثر حاملو السّكاكين للقضاء عليك، ومن بينهم أقرب النّاس إليك.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تدفع ثمن منصبك، أولادك مُراقبون في سفرهم وتعليمهم، في انجازاتهم واخفاقاتهم، يحملون عبء منصبك، يُحاكمون على أفعالك وزلّاتك، إذا اشترى أحدهم سيارة فهذا يعني أنك اختلست من خزينة الدولة، وإذا بدّلت زوجتك سيارتها "فمن أين لك هذا؟"، أمّا إذا اشتريت بيتًا فقد اقترفت أعظم جرمٍ، وثبت عليك الأمر وانتقل من مرحلة الشكّ إلى اليقين.

- أن تكون مسؤولًا معناه أن تحرص على ألّا تترقّى زوجتك أو أولادك، لأنك ستُتَّهم بالمحاباة وتفضيل أولادك أو زوجتك على الآخرين، ودخل الفساد إلى حياتك من أوسع أبوابه، حتى لو استحق ابناؤك ذلك، فلن يصدقك أحد، حتى لو أقسمت بأغلظ الأيمان.

- أن تكـون مسـؤولًا معنـاه أن تُحاسـب علـى كـل صـغيرة وكبـيرة، فـإن ضـحكت فهـذا غـير لائـق ولا يناسـب منصـبك، وإن عبسـت فأنـت متكـبّر ومتغطـرس وبعيـد عـن النّـاس، وإن كنـت في حضـرة الجمهـور فعليـك أن تجلـس بصـورة معيّنـة وأن تـتكلّم برزانـة، وإن أكلـت وشـربت فعليـك أن تفعـل ذلـك بقمـة الحـرص والحذر.

- أن تكـون مسـؤولًا معنـاه أن يشـاركك النّـاس أفراحـك وأتراحـك، أمّـا إذا تركـت منصـبك تفـرّق النّـاس عنـك ولـن يلتفت إليك أحد.

- أن تكـون مسـؤولًا معنـاه أن تتحمّـل وزر وظيفتـك وسمعتهـا، فـبعض المناصـب سـيئة السّـمعة، وسـوء السّـمعة هـذا قـد يلحـق الضّـرر ويمـسّ سمعتـك أيضًـا "فكـلّ أصـحاب هـذا المنصـب فاسدون"، "وكل شاغلي هذه الوظيفة مرتشون".

- أن نكون مسؤولين معناه أن نختم موضوعنا بطرفة:

- سـأل الـرئيس المصـري ‘‘أنـور السـادات" سـيد مرعـي وزيـر الزراعـة آنـذاك": إيـه أخبـار مزرعـة تسـمين العجـول بالفيـوم اللـي وعدتني فيها يا سيد؟"

- رد عليه سيد مرعي: جاهزة للافتتاح يا ريّس..

– رد عليه السادات: طيب غدًا صباحًا تفتتحها..

"بالطبع لم تكن هناك مزرعة او عجول".

- ذهب الوزير مرعي إلى الفيوم على الفور، وجهز المزرعة والعجول، وذهب السادات في اليوم التالي فوجدها عامرة بكل أنواع العجول وانتهت الزيارة، وأخذ السادات سيد مرعي جانبًا وسأله: "استأجرت الجاموسة بكام يا سيد ؟؟"

- فوجئ سيد بالسؤال ورد: بعشرة جنيهات يا سيادة الرئيس..

- فرد السادات عليه: مش كتير ب 10 على 12 ساعة تأجير؟!!

- صُعِق سيد مرعي وسأله: مين يا سيادة الريس اللي بلغك عن إيجار الجواميس؟؟

- قال السادات: يا سيد أنا ابن الصعيد، أنا دخلت على الجواميس، والزريبة لقيتها هايجه ومش على بعضها والحالة دي تحصل لما الجاموس بيكون مش في زريبته ...!!

الخلاصة:

إذا دخلت على مدير او مسؤول ولقيته هائجًا ويشطح وينطح وكل يوم قرار شكل، اعرف أن هذا المدير أو المسؤول " مش في زريبته "، وأتوا به كي يمشّي المرحلة ويستفيد ثم يرحل.

"أمثالنا تفضحنا "

يُحكى أنّ رجلًا كانت له معاملة في إحدى الدوائر الحكومية... فطلب منه الموظف أولًا شهادة ميلادٍ فقدّمها، ثم طلب منه شهادة تطعيم فجاء بها، وطلب، وطلب، ...

- وعند إحضار جميع الوثائق والشّهادات المختلفة قال له: "قررّنا رفض طلبك"!
- فحملق الرجل بوجه الموظف برهةً ثم قال: "صحيح إن الحكومة مَرا، لما تصير الحكومة زلمة وقتها بنحكي"....

هكذا أراد الرجل أن يقول كلمة بالحكومة ولم يجد لسانه إلّا كلمة "مرا"، يعني لو كانت الحكومة رجلًا لعرفت ماذا تريد من أول مرّة بدل "الشحشطة" و "المرمطة". إذا تمعنّا النظر بهذه القصة نجد أنّ الإساءة هُنا ليست موجّهة إلى الحكومة، بقدر ما أنّها موجّهة إلى المرأة، كل امرأة عندنا، فنحن -بارك الله فينا- عندنا أمثال وأقوال مأثورة كثيرة تدل على نظرتنا السلبية نحو المرأة، وصدق من قال: "أمثالنا مِثالُنا"، فكلّما خانتنا الشهامة في مواقف الكرامة نقول: "الرجال عند اغراضها نسوان" كما نقول "البيت اللّي ربوا مرا كل ماله لورا"، ونسمع أيضًا: "المرة اسمها حرمة لأن الله حرمها من

العقل والدين"، ونكرر أيضًا: "المرة مثل المعزاية إن تركتها على هواها أكلت الأخضر واليابس".

يُقال إنه إذا أردت أن تتعرف على شعب ما، فانظر إلى أمثاله الشّعبيّة فهي تصوير للواقع الذي يعيشه هذا الشعب.

يؤسفني أن أقول إنّ هذه الأقوال مستأصلة في نفوسنا وفي ثقافتنا وتراثنا، وخاصة في نفوسنا نحن الرجال، وممّا يؤسف أننا نورثها لأبنائنا من بعدنا. هل تلاحظون أنّ كل الكلمات العربية ذات المضامين السّلبيّة، أكثرها كلمات مؤنثة: مصيبة وضريبة وعلّة وفتنة وطائفيّة وخيانة ومحاكمة وأفعى، وعقرب، وأم أربع وأربعين.. بينما نطلق أسماء مذكّرة على الأشياء العظيمة مثل: السّيف والرّمح والقلم والعطاء والكرم والعزم وغيرها كثير.

كلّنا نعرف المثل القائل "همّ البنات للممات"، فعندما يرزقنا الله بصبي نستبشر خيرًا، ونغدق الهدايا والهبات ونفرش الموائد والولائم كأن المولود "صلاح الدين" المستقبل، وإذا كانت المولودة بنتًا "صَفَنّا" كأنها نائبة من نائبات الدهر، ولعلّ أسوأ ما سمعناه من أمثال وأقاويل هو: "المرة كل ما بهدلتها حبّتك وكل ما دللتها سبّتك"، "والمرة مثل السجادة ما بتتنظف إلّا بالخبط" وغيرها الكثير الكثير من الأمثال.

- إذا كان الإسلام قد أنصف المرأة فلماذا نظلمها؟

- ألا تشعرون أننا -نحن معشر الرجال- قد "زوّدناها" قليلًا؟ يخرج علينا أحدهم، لا يفقه شيئًا بالدِّين الا قوله تعالى:" إنَّ كيدهنَّ عظيم " ويصدر الفتاوى والتفاسير كأنه الزمخشري.

- ألا تشعرون أننا نعطي بناتنا ذلك الشعور أنها كانت "غلطة" وأنه لو كنّا في الجاهلية لَأهَلْنا التراب عليها، هل تروني أبالغ؟! أليس من الوأد أن تعمل زوجتك ليل نهار; في بيتك وخارجه، بلا عُطل ولا إجازات، ثم تُشعرها بأنها جارية اشتريتها من سوق العبيد، لا على أنها زوجة وشريكة عمر وحبيبة!

فليفكر مجتمعنا كما يحلو له، ويَشدُ رجالنا بالأمثال كما يرضون، ولتضج المجالس بالنكات والطرائف ذاكرة المرأة بكل ما هو سيء وضار.

كل هذا لا ينفي الحقيقة أننا -نحن الرجال- كلما ازدادت اعمارنا فإننا تعلقنا بالمرأة أكثر فأكثر، لأننا أصبحنا نخاف أن نبقى وحدنا، أصبحنا لا نستطيع التدبر بدونهن، فبالكاد تغيب عن البيت حتى نبدأ بالاتصال: "وينك؟ وينتا مروحة؟، يلا طولتِ".

- وأمّـا أنـتنّ معشـر النسـاء فلكـنّ أقـول: أعـرف أنّ معظمكـنّ لـن يقـرأن مـدونتي وأكثـركنّ لا يعـرفنني، لكنـني اعـترف بفضـلكنّ وجهـدكنّ وصـبركنّ فـأنتنّ بطـلات العـالم الحقيقـي، أنـتنّ المسـتيقظات فجـرًا، المصـلّيات فرضًـا، المرابطـات مسـاجد وكنـائس، المعـدّات فطـورًا، الخارجـات عمـلًا، المطبّبـات مرضًـا، المهندسـات مبـنى، المعلّمـات طـلّابًا، الجاليـات صـحونًا، المحاضـرات جامعًـة، المنظفـات بيتًـا، والحانيـات ظهـورًا، المطعمـات أفواهًـا، العـاملات مصـنعًا، المـديرات مكتبًـا ومـدارس، المـذاكرات دروسًـا، الحـالّات فروضًـا، المصـححّات إمـلاءً، المحفظّـات قـرآنًا، الممرضـات مستشـفىً، المعـدّات للنـوم فراشًـا، الداعمات رجالًا ، الصانعات أبطالاً.
- وهل يمكننا ان ننهي حديثنا بدون طرفةٍ؟!

"راويـة متمـرس بعلـم طبـائع النسـاء يـروي، علـى ذمتـه، أن رجـلا مـن أبنـاء قريتـه دأب في مجالسـه علـى امتـداح زوجتـه وتأكيـد إعجابـه بعفـة لسـانها وصـدق محبتهـا لوالديـه وسـائر ذويـه، وكانـت المـرأة تجـاري رأي زوجهـا فيهـا فتعتصـم بالصـمت وتلـوذ بالكتمان.

وأصـيبت المـرأة أخـيراً بهـزال شـديد وشـحوب مخيـف وغـارت عيناهـا وقـل كلامهـا ونومهـا وطعامهـا، وبعـد أن عجـز الأطبـاء عـن تشـخيص دائهـا ومعرفـة دوائهـا شـكا الرجـل أخـيراً أمـره إلى

شيخ حكيم في القرية، اشتهر برجاحة عقله وسداد رأيه فقال: "دع زوجتك تصرح بحرية عن شعورها الحقيقي نحو والديك، وشجعها على انتقاد سائر ذويك، وإذا لزم الأمر افسح لها مجال التحدث عن شناعة زوجة أخيك وشقيقتك وسائر نساء عائلتك، تصح بإذن الله، لأن المرأة ربيعها في التشنيع على أقارب زوجها"، والمثل يقول: «المرا، أعدى أعداها: سلفتها وكنتها وبنت حماها».

وعمل الرجل بنصيحة الشيخ فشفيت زوجته في الحال".

صدق من قال: "وراء كل رجل عظيم امرأة"....

وأنتم معشر الرجال اصبروا على نسائكم، إنّ الله يحب الصابرين.

" إن كبر ابنك خاويه "

من الأمور التي اعتدت عليها في فترة "الكورونا"، هو موضوع رياضة السير، لتحريك الجسم بعد فترة من الخمول والكسل، هذا الأمر جعلني أخرج للسير في مسار محطة القطار القديمة، ومن الظواهر التي لاحظتها وجود الشباب" صغار السن" بكثرة في هذه المنطقة، طبعًا ما يميز الشباب في هذه الفترة، قصّات الشعر "الغريبة" بالإضافة إلى البنطلونات الممزقة بمناطق معيّنة، بمنطقة الركبة وأحيانًا الفخذ.

المفروض أن هؤلاء الشباب أتوا لممارسة الرياضة وهي خطوة إيجابية بحد ذاتها، ولكن لا.

يجلس الشباب في مجموعات كبيرة، حيث تسمع قرقرة "الأراجيل" ويعلو الدخان منها بكثافة مصاحبًا بعلو الصوت والضجيج الملفت للانتباه.

من جهة أخرى زمرة من الشباب تقودها مجموعة من الكلاب المخيفة، التي تشم المارّة بشكل مستفز بالإضافة إلى مجموعة أُخرى من الشباب عُراة الصدر، يتمرنون على أجهزة اللياقة البدنية، وكل بدوره يستعرض عضلاته أمام الجميع، "ما أصفه هنا هو عبارة عن مشهد يومي وليس حدثًا عابرًا".

- هنا يحضرني قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: "لا تربّوا ابناءكم كما ربّاكم آباؤكم فإنهم ولدوا لزمان غير زمانكم"....
- هل هذا الزمان هو ما قصده سيدنا علي؟
- هل هكذا نريد أن نرى أولادنا؟
- ما علاقة ذلك بالمثل السائر "إن كبر ابنك خاويه"؟

أعتقد أنّ علي بن أبي طالب كان يقصد بالتربية هنا العقليّة لا القيم، فالقيم تبقى كذلك ولا تفقد قيمتها لأنها مجموعة من الأخلاق الحسنة.

أما العقليّة فهي طريقة التفكير التي يتعاطى بها الانسان مع واقعه، وما دام واقع الانسان متغيراً دومًا فالحكمة تقتضي طريقة متغيّرة في التفكير أيضًا!

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل سنعطي أولادنا كامل الحرية لاتخاذ القرارات المصيرية في حياتهم؟ ماذا بالنسبة للتصرفات والسلوك؟ وهنا أصل إلى المثل الذي طالما كنا نسمعه عندما كنّا نقسو على أبنائنا "ان كبر ابنك خاويه"، "أنا بصراحة لا أوافق على هذا الأمر".

- ما معنى أن أخاويه؟

- هل يعني الأمر أن أكون صديقه ندخّن معًا ونخرج للسهر معًا؟ هل يعني أن يفعل ابني ما يحلو له باسم الأخوّة و"الزمالة"؟ " ابني سيبقى ابني واحترامه لي سيبقى طالما أنا أبوه".

لا ننسى انّ شباب اليوم ما زالوا يعيشون في كنف العائلة، يعني الشاب منهم عايش ب "اوتيل خمسة نجوم" "فول بورد"، فالأولاد بحاجة إلى النصح والإرشاد والتوجيه، ولكن بنفس الوقت علينا أن نضع الحدود اللازمة لنضمن لهم حياة أفضل ومستقبلًا زاهرًا.

لا شك أنّ التربية اليوم عملية صعبة جدًا، والكثيرون لا يربّون، بل يتركون الفرصة للزمن أن يفعل ذلك بدلًا منهم. إنّ التربية تأخذ بالقدوة لا بالتنظير "بالنصيحة والكلام" فلا بدّ من الكلام أحيانًا، ولا بد أن يفهم الأولاد ما الخطأ الذي ارتكبوه، فعليهم أن يعوا قوانين البيت، وآداب الطعام وآداب الطريق، كل هذا لا غنى عن الكلام فيه، ولكن تبقى المواقف أبلغ أثرًا، وأصدق من كل الكلام.

النبل يقتضي أن تحكم على التصرف بالخطأ والصواب، بغض النظر عمّن قام به، فالخطأ خطأ ولو قام به من نحبه، والصواب صواب ولو قام به من نكرهه. كل سلوك سيئ نراه

ولا نحرّك لتغييره ساكنًا مع امتلاكنا القدرة لذلك نحن شركاء فيه.

كما اعتدت عليه دومًا أودّ أن أختتم حديثي بطرفة:

"ضاع لرجل ولد فجاؤا بالنوائح ولطموا عليه، وبقوا على ذلك أيامًا، فصعد أبوه يومًا الى غرفة على السطح فرآه جالسًا في زاوية من زواياها.

- فقال: يا بني، أنت على قيد الحياة؟ أما ترى ما نحن فيه؟
- قال: قد علمت، أنا جالس هنا على بيضات، وأنا في انتظار أن تفرخ هذه البيضات وحتى ذلك الوقت لا أستطيع تركها. فطلع أبوه إلى أهله فقال: قد وجدت ابني حيًّا، ولكن لا تقطعوا اللطم عليه؛ ألطموا كما كنتم".

الحياة تضعنا كل يوم في اختبار تكون فيه قيمنا ومبادئنا على المحك وما أكثر الراسبين وأقل الناجحين!

" أنا دمّي فلسطيني"

اشتعلت منذ أيام منصّات التّواصل الاجتماعي بصور ومشاهد حملات التّبرعات المادّية لإخواننا اللاجئين السوريين، الذين يعانون من التهجير القسري من بلدهم من جهة واحدة، ويعانون من البرد القارس والثّلوج المتراكمة فوق خيامهم الهشّة من جهة ثانية. بالتأكيد مناظر الأولاد والبنات الصّغار تقشعر لها الأبدان وتهتز لها مشاعر العدو والصّديق، فما بالك نحن الشّعب الفلسطيني، الشّعب الذي هُجِّرَ وما زال يُهجَّر حتى هذه اللحظة، لكن رغم كل ما قيل أعلاه إلّا أنّ هناك العديد من التساؤلات التي أشغلتني وما زالت تشغلني حتى هذه اللحظة. السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هو لماذا الآن؟ وبهذا التوقيت بالتحديد؟ يعني كلّنا نعلم أنّ القضية السورية وقضيّة اللاجئين، بدأت منذ أكثر من عشر سنوات، فلماذا تذكّر الفلسطينيون في القدس والدّاخل الفلسطيني أن يخرجوا، وبهذا الزّخم غير المسبوق، بهذه الحملات الخيرية؟ ما الدّاعي لذلك؟

هل دبّت فينا النّخوة متأخرًا بعد عشر سنوات من بدء هذه القضيّة؟ بالرّغم من أنّ المناظر هي نفس المناظر، والبرد هو نفس البرد، والخيام والتّشريد لا يزالوا عنوانًا لهذه القضية؟ ممّا لا شك فيه ، أنّ حملات التّبرعات لإخواننا السوريين كانت

وما زالت مستمرة منذ بدء القضيّة السوريّة، وعادة ما تطفو وتنتشر بوسائل الاعلام في فصل الشّتاء حيث تنتشر مظاهر الفقر والعازة في هذه الفترة، ولكنها لم تكن بهذا الزّخم والقوّة التي نشهدهما اليوم ولا شكّ أنّ الشرارة لانطلاق هذه الحملة قد بدأت على يد الناشط الاجتماعي الكويتي المعروف باسم "أبو فلّة"، والتي لاقت تجاوبًا كبيرًا في العالم العربي عامة ودول الخليج خاصة، ونتج عنها جمع مبلغ كبير وصل إلى أحد عشر مليون دولار، مبلغ مجهول المصير حتى هذه اللحظة، السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل من المعقول أن يكون هذا الشخص قد استفزّنا وأشعل نار الوطنيّة فينا، الوطنيّة التي طالما وضعت تحت المحك بكل ما يخص عرب الدّاخل الفلسطيني؟

الوطنيّة التي طالما شكّك فيها حتى أقرب المقرّبين إلينا، أو هل من المعقول أننا قد اتّبعنا "ترند" عالميًا وركبنا على الموجة؟ معروف أننا شعب "يحب يجاكر"، هل من الممكن أننا "نجاكر"، يعني "راح نفرجيكم مين احنا"؟ لكن لماذا السّوريّون وليس اللاجئون الفلسطينيون في لبنان الذين يعانون الأمرين؟

لماذا ليس أهل غزّة المحاصرين منذ خمسة عشر عامًا والذين يعانون من الذل والإهانة والاحتلال؟ أليس "الأقربون أولى بالمعروف"؟ كل هذه الأسئلة تدور برأسي وتقضّ مضجعي.

كانــت الفكــرة، في البدايــة، مســاعدة اللاجئــين وســرعان مــا تحولــت الى منافسـة ضـارية بـين القـرى والمـدن وحـتى العـائلات، والشّـاطر فـيهم مـن يخـرج إلى وسـائل الاعـلام ووسـائل التواصـل الاجتمــاعي لــيعلن عــن المبــالغ الــتي تم جمعهــا، وإذا اســتطاع أحـدهم أن يأتي بصـور حصـرية مـن المخيمـات نفسـها مـع صـور الاولاد والبنات، فهذا أحسن أحسن!

استمعنا إلى أقـوال النّـاس، ومـن خـلال ردود المتواصـلين علـى الفيسـبوك، مـا هـو السّـبب لهـذا التّـبرع المفـاجئ، القـويّ؟ انقسـمت الإجـابات إلى قسـمين: القسـم الأول يقـول إننـا نقـوم بـرد الجميـل للشـعب السّـوري الـذي قـام بإيـواء الفلسـطينيين بعـد نكبـة 1948 ومـدّوا لهـم يـد العـون، حيـث يتواجـد اللاجئـون الفلسـطينيون في أكـبر تجمّعـاتهم في سـوريا مـا قبـل الحـرب الأهليّـة وخاصّة في مخيّم اليرموك.

وهـا نحـن، الـذين جرّبنـا التشـريد والتّهجـير نـردّ لكـم جميلكم الـذي لـن ننسـاه، وهـا قـد سـنحت الفرصـة لـردّ الجميـل ولـو تأخـر الأمـر 73 عامًـا، أمـا القسـم الثـاني وهـو القسـم الـذي معظمـه مـن الشّـباب المـتعلم، صـغار السّـن الـذي يـرى في عملـه هـذا ترجمـة للنخـوة والمـروءة وإغاثـة الملهـوف الـتي طالمـا فقـدها شـعبنا بكـل مـا يخـص التعاضـد والـدعم الاجتمـاعي لبعضـنا الـبعض، أمـا لمـاذا الشّـعب السّـوري بالـذات؟ أنا لا أنكـر أننـا كشـعب

فلسطيني، وكجزء من سوريا الكبرى، نحب الشعب السّوري ونستلطفه ونحب طريقة كلامه، ولهجته الجميلة، لا شكّ أن للمسلسلات السّورية، وخاصّة مسلسل "باب الحارة" في بداياته، كان دورٌ كبيرٌ في تكوين هذا الشّعور عند جيل الشّباب مثلما كان الأمر بالنسبة لمسلسل "صح النوم"، "ومقالب غوار الطوشة" بالنسبة لجيل الكبار...

قد يستغرب البعض إذا قلت إنّ بعض القيم التي سمعها أولادنا من خلال مسلسل "باب الحارة" تفوق القيم التي يتعلّمها طلابنا اليوم وما زالوا يحاولون تذويتها، مثل: عدم شهادة الزور أو حلف اليمين الكاذب، أو التعامل مع رب الأسرة والأب والأم والنّساء وأدب دخول البيت ومقاومة المحتل وما إلى ذلك من قيم النّخوة والمروءة والبطولة التي يتوق شبابنا إلى سماعها في عصر تغلب عليه الماديّة والتكنولوجيا والانفرادية، فهذه فرصة ذهبية لبث روح الجماعة والتعاون في صفوف مجتمعنا المتمزق! ما يمكن أن أقوله إنّ روح التّبرع والتّطوع هي من أهم الأسس التي يجب أن يعول عليها مجتمعنا في المستقبل الغامض الذي نعيشه، لذا من المهم أن نربّي الجيل الناشئ على العطاء لكل محتاج ومساعدة الغريب والقريب في هذا العالم الذي صغرت فيه المسافات حتى صرنا نلمس كل جرح يحدث فيه.

لـذلك أدعـوكم للخـروج والتّـبرع بمـا تجـود بـه أنفسـكم لإخواننـا في سوريا ولإخواننا في لبنان واليمن وغيرها من البلدان...

لقـد عـوّدتكم أن أنهـي حـديثي بطرفـة، ولكـني هـذه المرّة سـأنهي حـديثي بقصّـة حقيقيّـة حـدثت معـي وغـيرت حيـاتي بقـدر كبـير، هـذه القصّـة يعرفهـا أصـحابي المقـرّبين ولا أجـد حرجًـا في أن أقصّـها علـيكم: "هـذه الحادثـة، غـيرّت حيـاتي بصـورة كبـيرة، جلسـت في أحـد الأيام في ميـدان تقسـيم في العاصـمة إسـطنبول لآكـل طبقًـا مـن الكنافـة اللذيـذة الـتي ترافقهـا البوظـة بطعـم الفسـتق الحلـبي، وكانـت بـرفقتي زوجـتي وابنـتي وعنـد أول لقمـة لي وإذا بيـد صـغيرة تجـذب أطـراف ثـوبي، نظـرت إلى يميـني وإذا بطفـل صـغير قصـير القامـة يشـدّ ثـوبي ويقـول "عمّـي أنا جـائع، أطعمـني" صـعقت لجملتـه، فهـو لم يطلـب النقـود ولم يسـتجد، مجـرد يقـول أنا جـائع! تـذكّرت أولادي وتـذكّرت عطلـتي وفنـدق الخمـس نجـوم الـذي نقطنـه، أمسـكت بـه مـن ثوبـه وأجلسـته بجـانبي ونـاديـت النـادل وطلبـت لـه الكنافـة اسـتجاب النـادل بامتعـاض ولـبّى الطلـب علـى مضـض، فهـم كثـر حسـب رأيـه ويضـايقون الـزبائن كمـا ادعـى، "لكنـني لم آبـه لاعتراضـه او كلماته. "

- مـا اسمـك؟ مـن أيـن؟ مـا عمـرك؟ "سـألته تاركًـا الكنافـة والبوظـة التي ذابت بفعل حر الصيف".

- "اسمي أحمد من الشام وعمري خمس سنوات". قالها وهو يأكل الكنافة بنهم وجوع.
- سألته زوجتي كما هي عادتنا: "هل تريد أن تشرب شيئًا يا أحمد"؟
- حرّك رأسه رافضًا الفكرة كأنه يرفض، وترك صحنه كيلا يأخذه النادل الذي يقف جانبًا وقد نفذ صبره! لكنه لا يجرؤ أن يفعل خوفًا من نظراتي المهدّدة!
- لم تتنازل زوجتي، كرّرت السؤال مرّة اخرى " هل تريد الكولا أم تريد الماء" ألحّت بلطافة ورقّة!
- عندها رفع رأسه الي وقال: " عمو إذا بشرب بتعطيني ليرة"
- آه ويلاه!

فجأة! وبدون سابق إنذار، شعرت بدموعي تنهمر من عيني بلا توقف، وجدتني أبكي بكاءً شديدًا كما لم أبكِ طوال حياتي، تساقطت دموعي بكثافة، وانضمت الي زوجتي وابنتي، لم تتوقف دموعنا رغم استغراب المارّة من الناس الذين نظروا إلينا باستغراب وبعضهم باستهجان.

- لم أرَ الناس ولَم أرَ النادل الذي اختفى عن ناظري بعد أن طلبت الماء لأحمد" وبعد أن أنهى احمد طعامه وأعطيته عشر ليرات".
- اخذها مسرورًا وقال: "شكرًا" واختفى بين الجموع في ميدان تقسيم.

"لم نأكل الكنافة، بل لململمنا بعضنا وعدنا الى الفندق"!

وما زالت هذه الحادثة محفورة بذهني منذ سنوات، "وأخذت على نفسي عهدًا أن ارسم الابتسامة على وجه من استطعت من الأطفال".

"حلّاق القرية"

إذا كنّا قد تحدثنا في مدونة سابقة عن موضوع الصّراحة، وبما أنه قد أصبح بيننا صراحة واعترافات متبادلة، اسمحوا لي أن استمر بنهجي الذي اتبعته مؤخرًا، قبل أن نعود ونتقوقع وننطوي ثانيةً، كلٌ في زاويته، أو كنبته في صالون بيته.

هل تشعرون مثلي، أحيانًا، اننا بحاجة لأن نفضفض لأحدهم؟ على الأغلب شخص ليس من دائرتنا القريبة، يعني ليس زوجًا، أو زوجة، أو أخًا، أو أبًا وغيرهم من الأقارب، نحتاج أن نفضفض لشخص لا يُصدر الأحكام علينا، أو يصدرها دون معرفتنا، نفعل ذلك للحظة وننسى أننا كُنّا بهذا الموقف، كأننا نرى فيلمًا ممتعًا أو نقرأ كتابًا مُثيرًا، وننسى أننا فعلنا ذلك، ونستمر بحياتنا اليوميّة كأن شيئًا لم يحدث.

نحن شعب لا يتوجه إلى الأطباء النفسيين وذلك لأسباب كثيرة لسنا بصددها هُنا، لكن يمكنني أن أقول إنه في حالة معرفتنا أنّ شخصًا معيّنًا يراجع طبيبًا نفسيًّا حتى تنقلب حياته رأسًا على عقب، فيُصبح موصومًا بالجنون أو العقد النّفسيّة وغيرها من التقوّلات اللانهائيّة، وإذا فعلها أحدنا فإنه يفعل ذلك بأعلى درجات السّرية.

أذكـــر أنـــني أنهيـــت دراســـتي الجامعيّـــة وبـــدأت مشـــواري الشّـــاق بالبحـــث عـــن عمـــل يليـــق بي، أعـــيش بواســـطته بكرامـــة واحـــترام دون الحاجـــة إلى أحـــد، بهـــدف الـــزّواج وإنشـــاء أُســـرة كمـــا يفعـــل كـــل شـــاب في مجتمعنـــا العـــربيّ المحـــافظ، والأهـــم مـــن كـــل هـــذا إرضـــاء والـــدي الـــذي كـــان ســـقف توقّعاتـــه عاليًـــا جـــدًا، فـــأنا أول أبنائه الذين يدخلون الجامعة ويتخرجون منها.

خـــلال بحثـــي المتواصـــل وفشـــلي في الحصـــول علـــى وظيفـــة في ســـلك التعلـــيم، بعـــد إنهـــائي اللقـــب الأول، أرســـل لي صـــديق قريـــب مـــني إعـــلانًا عـــن" دورة لتعلـــيم الحلاقـــة"، هـــذه الـــدّورة ســـتقام في القـــدس الغربيـــة بتكلفـــة "خمســـة آلاف شـــاقل"، وهـــو مبلـــغ كبـــير جـــدًا آنـــذاك. أعـــترف أنـــني كنـــت ســـاذجًا عنـــدما قمـــت بالاتصـــال بوالـــدي عنـــدها، طالبًـــا رأيـــه في الموضـــوع، كمقدمـــة للطلـــب الثـــاني في المرحلـــة الثانيـــة، وهـــي طلـــب النقـــود لتمويـــل هـــذه الـــدّورة، الـــتي ســـتؤدي بالتّـــالي إلى مهنـــة مـــدرّة لـــلأرباح الكبـــيرة، كمـــا ظننـــت! ذُهلـــت مـــن ردة فعـــل والـــدي الـــذي قـــال بنـــبرة حـــادّة، يخالطهـــا قـــدر كبـــير مـــن الحـــزن والأســـى، إذا قـــال: "بـــدك تفضـــحنا!"، شـــو حـــلاق؟، هـــذه مهنـــة وضـــيعة، بـــدك يقولـــوا ابـــني حلّاق!"... كان الجواب بالنّفي قاطعًا وبنبرة لا جدال فيها.

هـــا هـــي أحلامـــي بأن أُصـــبح حلّاقًـــا تتلاشـــى هبـــاءً منثـــورًا أمـــام موقـــف والـــدي الحـــازم، لتُضـــاف إلى أحـــلام أخـــرى تلاشـــت أمـــام

طلباته القاطعة بأن أعمل في سلك التّعليم، الذي كان المفر الوحيد أمام الخريج العربي في تلك الأيام.

تلاشى حلم الحلاقة، لن أقف أمام زبائني حاملًا مقصّي، حالقًا رأس زبائني بمهارة وحرفيّة عاليّة.

طبعًا لم يشفع لي ادعائي ودفاعي أمام والدي أنني لن أكون حلّاق نساء إنّما حلّاق للرّجال، آملًا أن يرق قلب أبي، الذي بادرني بقوله: "انصرف من وجهي وإلّا...".

عُذرًا لحلّاقي، منذ ثلاثين سنة، "الحاج صلاح"، وتلك الأيام التي حلقت عنده فيها، لقد مدّ لي إكليل المحبّة، وحادثني بأطايب الموضوعات، وتحمّلني وتحمّل مُزاحي الثّقيل معه.

لم تعد الحلاقة اليوم مهنة عاديّة، بل أصبحت صناعة زاهرة أصّلت أصولها وقعدت قواعدها، وصارت حوانيت الحلّاقين عبارة عن" بوتيكات حديثة" لتصميم الشعر، مؤثثة بأفخم الأثاث، ومزودة بأجود المكيّفات، ومزيّنة بألمع المصابيح، فأنت تحتاج إلى علاقات جيّدة ووقت غير قصير لحجز دورك، هاتفيًّا، لتحظى بخدمات مميّزة على يد أمهر الحلّاقين.

هل تتصورون حياتكم دون حلّاق! هو من يُحسّن ديباجة الوجه، ويخفّف عن الرأس وطأة الآلام، ويرقّق في الحديث.

يحذق الحلّاق المجاملة، كلما ذهبت إليه يُشعرك أنك أجمل شخص في هذا العالم، وهذا من طبعه! بل حيلته التجارية! وإن كنت أقبح من الجاحظ!

امتاز الحلّاق بالماضي بسعة الثقافة وإن لم يكُن حائزًا على شهادة الدكتوراه من جامعة مُعتبرة، فهو يورد الأمثال والطرائف، يعلّق على الوقائع السياسيّة، يحكي لك نوادر التاريخ، يعرف طبائع النّاس، يُفسح لك مجال الحديث فتبوح إليه ذوات نفسك بما قد لا تبوح به إلى أعز عزيز لك. ثرثرة الحلّاق التي رافقتنا منذ الطفولة وفي الكتب المدرسيّة الأولى، أُريد بها أن تكون علامة دالّة على مهنة اجتماعيّة متدنيّة بين المهن الشعبيّة اليوميّة.

هل تعلمون أنّ بعض الحلّاقين في الماضي كانوا هدفًا لتجنيدهم في صفوف المخبرين والعملاء؟

كل شاردة وواردة يتناقلها السّكان تجد طريقها إلى حلّاقها عبر النقل السّريع ليكون هو الحاضنة اليوميّة لأخبار بني جلدته، والحافظة الوحيدة التي تتجمع فيها أخبار الآخرين، لا سيّما إذا عرفنا أنّ القرى القديمة لا تمتلك وسائل الاتصالات الحديثة لذلك صار دكّان الحلّاق بمثابة (وكالة أنباء) تصب فيها كل المعلومات اليوميّة من خير وشر، وبحكم ثباته المكاني فهو رادار اجتماعي يلتقط الصغيرة والكبيرة في مسارب

المجتمع الصّغير، لذا فهو مصدر خطير لجمع المعلومات عن الآخرين وهو مصدر استخباراتي شديد الخصوصيّة والسريّة، فلا بد لمقص الحلّاق أن يتكتك عليها في ثرثرة، تنتج عنها ثرثرة أُخرى مُعلنة على رأس الزّبون وهي ما يميّز الحلّاق عن غيره من ذوي المهن الحرّة" الكلام الكثير والثّرثرة "!

حلّاق القرية القديم كانت وسائله بدائيّة وكانت الحياة من حوله أكثر بساطة وتكاد تكون تجاربها محدودة كما هي تجارب النّاس، لذلك كان يلجأ إلى الخيال واستحضار القص الشّعبي من حكايات شهيرة، كسيرة الزّير سالم وعنترة وحكايات الجن والعفاريت وما يحفظه شفاهيًّا من أدبيات ألف ليلة وليلة.

هل تلاحظون أنني لا أتحدث عن الحلاقين في أيامنا هذه؟ "نعم أقصد ذلك! "، فهم يفتقرون إلى كل ما ذكرته أعلاه من مواهب ومعلومات، الأمر أكبر من ذلك فعملية الحلاقة التي كانت يدوية وتستغرق وقتًا طويلًا، بين استراحة للحديث وعودة إلى العمل، حيث أصبحت اليوم تستغرق دقائق معدودة، أصبح الحلّاق صامتًا، يعمل بصورة اوتوماتيكيّة فهو يرغب بإنجاز وإتمام أكبر عدد من الزبائن بأقل وقت ممكن، فلا وقت لديه "للّت والعجن"... فالماكينة شغّالة والعداد

يعدّ، طبعًا ناهيك عن الأسعار العالية، وقصّات الشّعر الغريبة والموضة الصّاخبة.

وهل يُمكننا أن ننهي "حِلاقتنا" دون طرفة مناسبة للكاتب القصصي المازني:

- استدعى جُحا حلاقًا قرويًّا ذاع صيته أنه بليدٌ أحمق، فأراد جحا أن يسخر منه، وأن يجعله أضحوكة امام النّاس، رغم تحذير أصدقائه ألّا يفعل!
- وبعد ساعات جاء الحلاق يحمل كيسًا كبيرًا، فأخرج منه مقصًا كبيرًا جدًا فسأله جُحا: هل في القرية فيل؟ وأشار إلى المقص!
- فقال الحلّاق: "هذا مقص حمير ولا مؤاخذة"، ثم أخرج موسًى من طراز المقص.
- أجلسَ الحلّاق جُحا على الأرض، وجذب رأسه فذعر جُحا ونفر وولّى هاربًا إلى أقصى الغرفة فلحقه الحلّاق وتناول رأسه بين يديه ثم وضع ركبته على فخذه ولف ذراعه حول عنقه فشرع جُحا بالصّراخ وسط ضحكات أصحابه.
- أهوى الرّجل بموسه على رأس جُحا فسلخ قطعة من جلده وجرحه عدة جراح "وكان كلّما جرحه وسال دمه، يضع قُطنًا على الجرح. "

- تكاثرت الجراح وسط صراخ جُحا إلى أن استطاع أن يفلت من قبضة الحلّاق ونهض قائمًا فقال له الحلّاق: اصبر حتى تنتهي!
- فأجابه جُحا: كفى فقد زرعت نصف رأسي قطنًا، وأريد أن أزرع النصف الآخر كتانًا".

أنتَ وحظّك!

آمن العرب منذ قديم الزمان بالخرافات والأساطير، وتشعّبت طرق إيمانهم كل حسب موقعه ومكانته في هذا العالم، فعندما يسافر أحدنا إلى خارج البلاد نقول له "على الطائر الميمون".

وأصل هذه المقولة أنّ العرب اعتادوا، إذا أرادوا السفر، أن يأخذوا طائرًا مثل الحمامة وأن يقوموا برميها في الجو، فإذا اتجهت على اليمين وهو الدلالة على الخير والبركة فإنهم ينفذون مخططهم، وأما إذا اتجهت إلى جهة اليسار، وهو الدلالة على الشؤم وسوء الحظ، فقد كانوا يعدلون عن ذلك، ومنها أيضًا "طريقك خضرا" وغيرها من المقولات والخرافات.

وها نحن اليوم نسير على درب آبائنا وأجدادنا، فما أن تدق ساعة انتهاء العالم المنصرم حتى نلتصق بشاشات التلفزيون مُنتظرين بفارغ الصّبر البرامج التي تتكهن بما سيحدث في كوكبنا في السّنة القادمة، من سيموت من الرؤساء ومن سيعيش؟ ومن الذي سيُغتال والقضاء على حكمه؟ وماهي الكوارث التي ستصيب الدول؟ وأين ستقع الهزّة الأرضيّة القادمة؟ وغيرها من الأمور التّي يتنبأ بها هؤلاء الدجّالون الذين يربحون أموالًا طائلة من الإعلانات والدّعايات المعروضة ببرامجهم التلفزيونيّة والإذاعيّة.

ثمّة أشخاص لا يكتمل صباحهم إلّا بقراءة الأبراج، كاتبو الأبراج أذكياء محنّكون، يستعملون كلمات مخدّرة نحب أن نسمعها.

أذكر أنني، ومنذ زمن بعيد، عندما كنت طالبًا في الجامعة، كان لديّ صديق يكتب زاوية الأبراج في إحدى الصحف الأسبوعيّة، طبعًا كما تتخيّلون فهو لا يعرف شيئًا في علم الفلك والأبراج، فكنّا نجلس في ليلة من ليالي الأسبوع "لتأليف" حظ كل برج من الأبراج لبث الأمل في نفوس القرّاء، "مبلغ من المال سيصلك قريبًا"، "صفقة عمل رابحة في الأفق"، " تحسّن في علاقتك مع الحبيب"، "حاول ألّا تسافر هذا الأسبوع" وغيرها من الأمور اليوميّة التي تحدث مع كل منّا، ومن سخرية القدر أننا كنّا نجلس مع أصدقائنا ومعارفنا وهم منغمسون في قراءة الأبراج باهتمام وتركيز شديدين، بينما أنا وصديقي نتغامز عليهم، مُستغربين من تفاهة تفكيرهم وضحالة عقولهم.

أعرف أنّ الكثير من النّاس لا يصدّقون الأبراج، ولكننا نجد أنفسنا نهرع إلى قراءتها بشغف، قد يكون الأمر من باب التسليّة وقد يكون من باب التفاؤل، إلّا أننا نقرأها.

هل صدف والتقيتم بفتاة أو شاب بهدف التّعارف للزواج وكان أول سؤال طرح عليكم: "ما هو برجك"؟

وهل حدث أن قيل لكم إنه يوجد تناقض وتنافر بين برجه وبرجك؟ وإنه من الصّعب أن ينجح هذا الزّواج فبرجك ناري أما برجه فترابي وما إلى ذلك من تفاهات وخرافات. لقد أقرّ ديننا الإسلامي أنّ الأبراج والتنجيم حرام، وكلّنا تربينا على المقولة: "كذب المنجمون ولو صدفوا"، وعلم الغيب اختصّ الله تعالى به، قال تعالى: "قُل لا يعلمُ من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله"، فالغيب عنده سبحانه وتعالى هو الذي يعلمه جلّ وعلا، وليس عند المنجّمين والسّحرة والكهنة....

والتنبؤ بالغيب والمستقبل يختلف عن علم الفلك الذي هو علم من أهم العلوم التي اعتنى بها علماء الإسلام، وهو يتعلّق بالمحسوسات، ولا يتعلّق بالغيبيات، حيث يتعلّق بنواميس الكون، ورصد مواضع الأجرام السّماويّة وحركتها، وتحديد مواعيد الصيام والحج والصّلاة وغيرها من الأمور.....

وعليه فإنّ أرزاقنا مكتوبة، وأنها آتية "شاء المنجمون أم أبوا"، وإنّ حياتك ستستمر كما كتبها الله لك، وأنّ الحب والعريس سيأتيان، حتى لو أخبرك المنجّمون والعرّافون أنه سيتأخر هذا العام بسبب النجوم والكواكب....

لا تجعلوا الدجّالين يخططون حياتكم ونهجكم، اسعوا إلى رزقكم، أحبّوا غيركم وبادروا إلى ما هو أفضل لكم ولأبنائكم، ثم دعونا نختم حديثنا بطرفة:

- يحكى أنّ ملكًا رأي في منامه أنّ اسنانه كلّها سقطت أمامه وهو ينظر إليها...!
- طلب الملك من أحد المنجّمين تأويل رؤياه، فقال له المفسّر: سيموت كل أقاربك أمام عينيك!
- فغضب الملك غضبًا شديدًا وأمر بحبس المفسّر وطلب مفسّرًا آخر، فلمّا حضر بين يديه وقصّ عليه رؤياه قال المفسّر: أيّها الملك سيموت جميع أهلك أمامك!
- غضب الملك غضبًا أشد من غضبه الأول، وطلب من حرّاسه أن يُلقى المفسّر في السّجن مع المفسّر الأول.
- ما ان سكت الغضب عن الملك حتى طلب مفسّرًا ثالثًا، فلمّا حضر بين يدي الملك وقصّ عليه رؤياه، ابتسم المفسّر وقال: رأيت خيرًا أيّها الملك، ستكون أطول أهلك عمرًا!

ملاحظة:

أكثر الكتب مبيعًا في العالم العربي هي كتب الطبخ، وكتب تفسير الأحلام.. هذا يعني أننا شعوب طيّبة تأكل وتنام... طعامًا شهيًّا ونومًا هنيئًا.

"حمير القمم"

تلقّيت قبل عدّة أيام مكالمة هاتفيّة غريبة من صديق أمريكي، كان هذا الصّديق قد عاش في البلاد فترة زمنيّة، تعلّم فيها اللغة العربية وتعرّف على عادات وتقاليد العرب، بعد التحيّة والسّلام فاجأني عندما بدأ بمعاتبتي حول كتاباتي الأسبوعيّة.

- قال صديقي شاكيًا: "ماذا لديك ضدّ الحمير؟ أنت تعرف أنني أعمل في جمعيّة الرفق بالحيوان، وقد لاحظت من خلال كتاباتك أنك كثيرًا ما تنهيها بطرفة أبطالها من الحمير، كل ذلك بصورة ساخرة ونمطيّة عن الحمير، على ما يبدو أنك لا تدرك الكثير من الحقائق عن هذا الحيوان، دعني أذكّرك ببعض هذه الحقائق علّك تغير رأيك وتوجّهك عن هذا الحيوان الرائع!
- أعترف أنني كنتُ مصدومًا وشعرت بالارتباك والاستغراب في آن واحد... ووجدت نفسي قائلًا: "تفضّل كلّي آذان صاغيّة"!
- لم ينتظر صديقي أن أنهي جملتي حتى شرع بمونولوج طويل عن الحمير: "هل تعلم أنّ الناس في الولايات المتحدّة يربّون الحمير كحيوانات أليفة للتسلية؟ وأنّ الممثّل المشهور "آرنولد شوارزنيجر" لديه حمار للترفيه اسمه "لولو".... وهل تعلم أنّ الحمار هو رمز الحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة؟ وأنّ

الحمار يستطيع أن يعيش 40 عامًا إذا لقي العناية المناسبة واحيانًا حتى جيل الخمسين؟ هل تعلم أيضًا انّ بإمكان الحمار أن يتذكر انسانًا أو حمارًا آخر بعد 25 سنة من لقائهما؟ هل تعلم أنّ العناد والحماقة والبلادة التي ينسبها الناس للحمير لا أساس لها من الصحّة؟ هل تعلم أنّ الحمار حيوان اجتماعي ويعيش بمجموعات، وفي حالة بقائه وحيدًا فإنه يُصاب بالاكتئاب؟ وهل تعلم يا صديقي أنّ بإمكان الحمار سماع نداء حمار آخر عن بُعد 60 كيلومترًا؟ كما أنه يستطيع بمساعدة أذنيه الطويلتين، أن يحافظ على حرارة جسمه في الصحراء الحارة؟! هل تعلم أنّ المسيح المنتظر سيأتي راكبًا على حمار عند قيام السّاعة؟

- في هذه المرحلة قاطعت صديقي "كلّ هذا بطلع من الحمار؟! وليش الحمير عندنا مش هيك؟!"، "هنا حاولت أن أسترجع معلوماتي المحدودة عن الحمير، شاحذًا ذهني طويلًا، محاولًا مجاراة صديقي بهذه المعلومات حيث أحسست أنني أمثّل تراثنا الشعبيّ بكلّ ما يتعلّق بثقافة الحمير"، أحسست أنني أمام معركة طاحنة بين الثقافات المتمثلة بحميرنا وحميرهم، "هل تعلم أيّها الصّديق الغربي أنّ من تقاليد العرب أنّ الحمار لا يدفع مهرًا للعروس، ولا يكون مركوب عريس أو عروس، ولا يُستوفى ديّة قتيل، ولا يكون هدية أمير، ولا يُمشى فيه بمأتم، ولا يُربط قرب جامع، لأن الحمار مشهور بقلّة لياقته في

التعبـير عــن ذاتــه.. ولأن أنكـر الأصـوات أصـوات الحمـير، ومــن تقاليــد العــرب كــذلك، أن يُطــاف بالزّانيــة والــزاني في شــوارع المدينـة علـى ظهـر الحمـار، بالمقلـوب، بحيـث يكـون وجـه المطوّفـة أو المطـوّف إلى ناحيـة ذيـل الحمـار، وذلـك إمعـانًا في تحقيرهمـا، أمـا المقتـول برفسـة حمـار، فـلا يندبـه النـادبون، لأنـه يكـون قتيـل عـار، ومــن مـزايا قلّـة مـروءة الحمـار أنـه إذا عـبر فـوق مـاء جـارٍ وقـف الحمـار وشـرب علـى مهلـه، ثم مـا لبـث أن بال بالمـاء، وإذا بال حمـار في مكـان مـا، بال كـل حمـار آخـر يمـر فيـه، كمـا أن كلمـة "حمـار" معناهـا في مفهـوم العامّـة: إنسـان قليـل الاعتبـار، وإذا أردنا أن نصف الغشيم أو البليد، قلنا إنه حمار.

- هنـا انفجـر صـديقي صـارخًا: "ألا تشـعر أنكـم تظلمـون الحمـار كثيرًا في ثقافتكم وتراثكم؟!"
- دعــني أخــبرك شــيئًا يا عزيــزي: نحــن شــعب شــرقي، نــؤمن بالقصــص والحكــايات، بالأســاطير والخرافــات، نــؤمن بالقضــاء والقــدر والمكتــوب علــى الجبــين تــراه العــين، كمــا نــؤمن بالفــأل والنصـيب، دعــني أخـبرك بقصـة حـدثت منـذ زمـن طويـل: يُقـال أنّ شـابًا مـن إحـدى القـرى خطـب فتـاة مـن قريـة أُخـرى قريبـة، فأوفـد العـريس وفـدًا في طلبهـا، وحضـر هـؤلاء إلى القريـة علـى ظهـور الحمـير ومعهـم فـرس واحـدة مركـوب العـروس، وحـدث أن مختـار قريـة العـروس أصـرّ علـى مواكبـة العـروس، وقضـت اللياقـة أن تُعـرض الفـرس عليـه، فامتطاهـا، ونُقلـت العـروس علـى ظهـر

حمار، لكن ما أن شاهد أهل العريس العروسَ على ظهر الحمار، حتى غضبوا ورفضوا تسلّم العروس عن ظهر الحمار، قالوا هذا عار، وأكبر عار، على قريتنا وشؤم على الجميع، وهكذا أُعيدَت العروس على ظهر الحمار إلى قريتها لكي يُعاد إحضارها على ظهر فرس، لأن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، إلّا أنّ ذوي العروس غضبوا هم بدورهم، لرجوع ابنتهم مكسوفة الخاطر إليهم واحتفظوا بها حفظًا لكرامتهم.

- ما انتهيت من حديثي حتى صُعِقَ صديقي وقال: "يعني العُرس فَرَط من قصة الحمار، والله أنتم شعب غريب الأطوار، أنتم تستعملون الحمار علاقةً لتبرير آرائكم المتخلّفة، يا للعجب!"
- شعرت بحرج شديد عند سماع جملة صديقي الأمريكي واستدركت وقلت: اننا قرويون وقد اكتسب آباؤنا وأجدادنا من عِشْرةِ الحيوانات بعض الحكم، وبنينا عليها قصص تراثنا وأمثالنا الشعبية، فالحمار مثلًا: يستطيع أن يحك جميع أعضاء جسمه، ما عدا ظهره، لذلك كلّما التقى حماران عاريان تولّى الواحد منهما، بحكم غريزته حك ظهر الآخر بأسنانه، لذلك نقول في بعض كلامنا عن تبادل المنفعة: "حكّلّي وبحكّلّك".

- بادرني صديقي قائلًا: "نحن نستعمل هذا المثل للمصالح والمنفعة المشتركة أيضًا، هل تعتقد أنّ للحمار، كرمز للحزب الديمقراطي الحاكم، علاقة بالسّياسة؟".
- دعني أُجيبك يا صديقي على سؤالك هذا بطرفة بطلها "صديقك" الحمار:

اشترى رجل حمارًا، ومن فرحته به أخذه إلى سطح بيته.... وصار الرجل يدلل الحمار ويُريه مساكن قبيلته من فوق السطح، حتى يتعرف على المنطقة ولا يتيه حين يرجع للبيت وحده.

وعند مغيب الشّمس أراد الرّجل أن يُنزل الحمار لإدخاله إلى الإسطبل، فحزن الحمار ولم يقبل النزول، فقد أعجبه السطح وقرّر البقاء عليه، توسّل إليه صاحبه مرات عديدة وحاول سحبه بالقوّة أكثر من مرّة، فلم يقبل الحمار النزول، لكن الحمار دق رجله بين قرميد السطح، وصار يرفس وينهق في وجه صاحبه وبدأ البيت بالاهتزاز وعجز سقف البيت الخشبي المتآكل، عن تحمّل حركات ورفسات الحمار، فنزل الرّجل بسرعة ليُخلي زوجته وأولاده خارج المنزل، وخلال دقائق انهار سقف البيت ومات الحمار، فوقف صاحبنا عند رأس حماره الميّت وقال: "الغلطة ليست غلطتك، أنا الغلطان الّي طلعتك على السطح".

العبرة يا صديقي أنه من الصعب إنزال الحمير الذين تمّ إيصالهم لمكان غير مكانهم الحقيقي، لا يُلام إلّا من أوصلهم لذلك المكان فعند تعيين أناس غير مناسبين في مواقع القرار، فلا عجب من انهيار المنظومة وتصدّع البيت.

ربنا يُسترنا من حمير القمم.

أينَ نحنُ مِن....

استوقفتني منذ أيام قليلة مقولة الرئيس الأمريكي الراحل "جون كنيدي" التي أطلقها في خطابه الشهير عام 1961 حيث قال: "لا تسأل عمّا يمكن أن يفعله بلدك لك، اسأل ما يمكنك القيام به لبلدك".

لقد تردد أنّ الرئيس الأمريكي استلهمها من المفكر العربي "جبران خليل جبران" الذي تحدث عن السياسي وليس المواطن، لكن ما استوقفني هنا وأنا اتأمل حياتنا وأوضاعنا وتربيتنا في حالة انعدام وجود "الأب" وأقصد به الوطن الراعي لنا.

لطالما بقيت مع الإحساس أننا كشعوب عربية وقد وُلدنا أيتامًا لا أب لنا ولا أم، وتعلمنا أن نتأقلم مع وضعنا هذا ونواجه المصاعب المترتبة عنه، حيث كثيرًا ما شعرنا "كالأيتام على مأدبة اللئام"......

الكل ينهشنا من كل جانب، لكننا استطعنا دومًا أن نعود ونقف على أرجلنا بمساعدة الدعم العائلي، الحَمولة والقبيلة، الدين وعادات حسن الجوار، المروءة العربية، النخوة، العزوة والفزعة، إلى آخره من مصطلحات وتعابير.

نحن العرب شعب فعّال، ولنا رأي في كلّ شيء وفي كل موضوع ومجال، فكلّنا نفهم بالطّب والسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد وعلم الفلك والنجوم والرياضة وكمال الأجسام، آه ولا ننسى الدين والفتاوى والفقه والشريعة وتفسير الأحلام، مع كل هذا أتساءل أين نحن من:

-أين نحن من العنف المستشري في مجتمعنا، حتى كِدنا لا نخرج من بيوتنا كي لا نصطدم مع أحدهم فنخسر حياتنا أو حياة أبنائنا.

-أين نحن من الظلم السائد بيننا، فنحن نصفّق للقويّ الذي يأكل مال الضعيف.

-أين نحن من تعدّي بعضنا على الملك العام من" تكسير وتخريب" ولا نحرّك ساكنًا، كأنّ الأمر لا يعنينا.

-أين نحن من المفرقعات "والفتّيش" الذي يُقلق راحتنا ليلًا ونهارًا باسم الفرح "والانبساط" في الحفلات والمناسبات، وأقصى ما نفعله أن نشتم الفاعل هو وأباه الذي فشل في تربيته.

-أين نحن من الشاحنات والحافلات التي أصبحت تملأ قُرانا ومدننا وكل بقعة خضراء، وتسدّ منافذنا وشوارعنا وتحتلّ أرصفتنا، وتقض مضاجعنا في ساعات الصباح الباكر،

فنستيقظ على صوتها المزمجر بدل الاستيقاظ على صوت زقزقة العصافير.....

- أين نحن من فقدان القيم والأخلاق حيث لا احترام لكبير ولا شيخ أو امرأة.

- أين نحن عندما كنّا نقف إكرامًا للعجوز والمرأة والصغير في الحافلات، للأسف أصبحنا متسمّرين في شاشات هواتفنا مدّعين الانشغال عمّا يدور حولنا......

- أين نحن من قول الشاعر "كاد المعلم أن يكون رسولًا" أين نحن من حقيقة أن المعلّم اليوم لا يستطيع توبيخ طالب أو طرده خارج الصف دون أن يتعرض لهجوم شرس من أهل الطالب وعائلته، أين نحن من قول آبائنا وأجدادنا "إلكم اللحم والنا العظم"....

- أين نحن من صلة الرحم، واحترام الأمهات، والأخوات، والزوجات.

- أين نحن من حرمان أخواتنا وأمهاتنا من الميراث الشرعي لهنّ، والذي منحهن إياه رب العالمين.

- أين نحن من أصوات الدراجات الناريّة التي تبدأ حفلتها في ساعات ما بعد منتصف الليل والتي تقضّ مضاجعنا

ومضاجع أمهاتنا وآبائنا كبار السن وأطفالنا الصغار الذين يستيقظون مرتعبين منها.

والأدهى من ذلك أنه عندما يقع حادث ويُصاب أحدهم نتيجة تهوّره، فإننا نُطالب بالدعاء لهم بالشفاء العاجل حتى يعودوا إلى ازعاجنا مجددًا... أيّ تناقض نعيشه نحن؟؟

- أين نحن من تواضعنا في الملبس والذهاب والإياب، أين نحن من ملابس أولادنا وبناتنا الممزّقة المرقّعة، أين نحن من نومنا ليلًا في أسرّتنا، وأولادنا يجوبون الشوارع ويعيثون في الأرض فسادًا.

- أين نحن من السيارات الفارهة الجديدة التي تم شراؤها بأموال البنوك لكي نتفاخر بها ونتباهى بمن لديه سيارة أحدث وأسرع وأوسع، أين نحن من مقولة " على قَدْ لحافك مد أجريك ‘‘، نحن بحاجة اليوم لأن نُقَصِّر أرجلنا كي ننهي الشهر بكرامة واحترام....

-أين نحن من أعراسنا ذات اعداد المدعوين الهائلة، واللحوم بالأطنان، وعلى بُعد نصف كيلو متر منّا عائلات كاملة لا تعرف طعم اللحم.

-أين نحن من أصوات الموسيقى العالية والمفرقعات المدوّية غير مراعين أنّ جارنا المتوفى لم تبرد جثته بعد، هناك الكثير والكثير

ممّا يُقال، وبالتأكيد أنه لديكم الكثير مما تضيفونه على ما ذكرت، ولكن رغم ذلك أقول كما قال الشيخ المشهور: "شبابنا مناح وإحنا مناح".

"تربيتنا"

مشهد مروّع شاهدته بالأمس، ظاهرة مُقلقة صدمتني وأصابتني في الصميم، من أكثر المشاهد المؤلمة التي رأيتها في السنوات الأخيرة بكل ما يخص العلميّة التعليميّة التربويّة.

ستتساءلون ماذا رأيت؟ أنتم بالتأكيد لا تستغربون شيئًا في هذه الأيام، ولا تستبعدون شيئًا عن هذا الجيل السيئ.

رأيت طلابًا من مدرسة كاملة، في بلدة محترمة جدًا ومحافظة جدًا جدًا، ليس طالبًا او اثنين، بل عشرات الطلّاب، يخرجون من المدرسة كأنهم في مظاهرة صاخبة، هؤلاء الطلّاب قاموا وبشكل جماعي بتمزيق كتب الدراسة وأشعلوا النار فيها، على الملأ وبدون أيّ خوف أو وجل....

كانت العمليّة صادمة ليس فقط لأنني رأيت الطلّاب يحرقون "خير جليسٍ في الزّمان"، إنّما أيضًا بسبب التصفيق والهتافات والتّشجيع من قبل مجموعة كبيرة من الطلّاب المتحمسين لهذا "الإنجاز الكبير"....

عملية حرق الكتب أعادتني سنوات طويلة إلى الوراء، إلى إبان حكم الحزب النّازي في ألمانيا، كانت عمليات حرق الكتب عبارة عن حملة من قبل اتحاد الطلّاب الألماني في ألمانيا

والنمسا، في الثلاثينات من القرن الماضي، وكانت الحملة تستهدف حرق الكتب التي يعتقد الطلّاب أنها ذات صبغة تخريبيّة أو تمثّل أيديولوجيات معارضة للنازيّة....

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: أي أيديولوجيّة تخريبيّة تمثّلها الكتب التي نتعلّمها في المدارس؟ أشك في ذلك، فهذه الكتب لا علاقة لها بالسياسة أو نظام الحكم فقد تكون كتب علميّة أو دينيّة.... لم تكن كتبًا منحلّة أو مدمّرة، كانت مجرد كتبٍ تعليميّة، نتاج تعب وجهد معلّمين أكفّاء، بذلوا جلّ جهدهم وتعبهم من أجل إيصال أفكارهم ومعلوماتهم لطلّابنا.

هل يكره طلّابنا الكتب والمدارس إلى هذا الحد؟! هل أهلهم بحالة اقتصاديّة من الرفاه والثراء تسمح لهم بإحراق الكتب؟ أين التربيّة؟ أين سلطة الأهل أين الحياء والخجل؟ أليسوا هم من صاموا رمضان قبل شهرين؟ ألم يكن هؤلاء الطلّاب هم من نادوا بالشّعارات الرنّانة والمتحمّسة بحق الوطن؟ الكثير من الأسئلة التي تدور برأسي وتؤرقني وتقضّ مضجعي وعليها أن تقضّ مضجعكم كآباء وأمهات، إنها تدقّ ناقوس الخطر لكل واحد منّا.

أنا متأكد أنّ هؤلاء الطلّاب عندما قاموا بحرق هذه الكتب لم يفكّروا بالآية القرآنيّة: "اقرأ باسم ربك..."، ولم يفكّروا بالتربيّة

والأخـــلاق، ولم يفكّـــروا بعاقبـــة عملهـــم.... هـــل فشـــلنا بالتربيّـــة؟ نعم فشلنا فشلًا ذريعًا.

للأســف انجــررنا في تعليمنـــا إلى تحقيـــق الإنجـــازات العلميّـــة ونســـينا القـــيم والأخـــلاق، أنا لا ألـــوم طلّابنـــا فقـــد انتهـــت وظيفـــة الكتـــاب عنـــد انتهـــاء الفصـــل والامتحـــانات وقـــد تحقـــق النجـــاح أو الفشـــل، لا، لا تقولـــوا إنّ الطـــلّاب الفاشـــلين هـــم مـــن قـــاموا بـــذلك، كـــذلك الطـــلّاب الجيّـــدون، بـــل حـــتى المتفـــوّقين مـــنهم، فـــلا فـــرق بيـــنهم، اقـــترح أن نُعيـــد حســـاباتنا مـــن جديـــد، في البيـــوت والمـــدارس، في المســـاجد والكنـــائس ، وأن نعيـــد النظـــر إلى تربيتنـــا، إلى قيمنـــا وأخلاقنـــا فـــنحن القـــدوة لهـــذا الجيـــل، فهـــذا الجيـــل لم يأتِنـــا مـــن كوكـــب آخـــر، هـــذا الجيـــل هـــو نتـــاج تربيتنـــا ونظرتنـــا للأشـــياء، لـــن أختـــم حـــديثي بطرفـــة أو نادرة كمـــا اعتـــدت، فهـــذا الأمـــر لا يحتـــاج إلى مـــزاح أو ضـــحك، ولكـــن ســـأنهي حـــديثي بجملـــة خطـــيرة كتبهـــا "هـــاينريش هاينـــه" في مســـرحيته الشّـــهيرة "ألانســـور" حيـــث قـــال: "حيـــث يحرقـــون الكتـــب، ســـوف يقومـــون في النهايـــة أيضًا بحرق النّاس".

تيك توك...بوم

أنا مصدوم، مصعوق... يقولون " الّي بعيش كثير، بشوف كثير"!

منذ أسبوعين وبمحض الصدفة أرسلت لي صديقة مقطعًا أخذني إلى ما يُسمّى بلغة التواصل الاجتماعي " تيك توك " وهو تطبيق صيني يعتمد على توثيق لحظات من حياتنا من خلال تسجيل أفلام لمدة دقيقة واحدة كأقصى حد.

أعترف أنني لم أجرب هذا التطبيق سابقًا، ولكن وصلت إلى مسامعي بعض الادعاءات والانتقادات حول هذا التطبيق وكان آخرها محاولة الرئيس الأمريكي السابق " ترامب " حَظْرها كونها من صنع دولة الصين المكروهة عنده على خلفية ادعائه أن الصين قد زرعت فيروس كورونا في العالم كجزء من مؤامرة للسيطرة على الاقتصاد العالمي.

لم نولِ أي أهمية لأقوال " ترامب " بل أردنا أن نصدق العكس فهو كاره للعرب والإسلام وعنصري من الطراز "الأبيض"... سيقول لي البعض بلا مبالاة، "أصبحنا لا نتفاجأ من شيء في هذه الأيام " لكن اعترف أنه تفاجأت ممّا رأيت، قد أكون ساذجًا في توقعاتي من أبنائنا وخاصة بعد سنوات طويلة في سلك التربية والتعليم.... هل ذهبت

جهـودنا سُـدى، هـل طـارت آمالنـا وتبعثـرت كلماتنـا في مهـب الريح؟

امتـازت مشـاهدتي للأفـلام في " التيـك تـوك " بعـدة مجـالات، أولًا: أفـلام نـرى فيهـا مجموعـات مـن الشـباب الـذين يملكـون السـيارات الفخمـة الثمينـة الـتي لا أشـكّ أدنى شـك أنـه قـد تم شـراؤها بأمـوال "مشـروعة"، يعـني نحـن نعمـل طـوال حياتنـا ورغـم ذلـك نشـتري سـيارات عاديـة معظمهـا يـد ثانيـة وأغلبهـا سـيارات يابانيـة أو كوريّـة الصـنع، وإذا بالغنـا فإننـا نشـتري جيـب "تويـوتا أو هيونـداي، أمـا هُـم فمـا شـاء الله لم يبلـغ أحـدهم منتصـف العشـرينات حـتى تـراه يركـب السـيارات الفارهـة مـن أغلـى الشـركات العالميـة، ويخـرج ذلـك الشـخص التافـه الـذي يبـدأ حديثـه بالصـفير "هـاي راكـب مرسـيدس بينـز...." ومـا إلى ذلـك من تفاهات....

ومـن هنـا تبـدأ السـباقات الليليّـة المصـوّرة حيـث يـتم تثبيـت الكـاميرا علـى العـداد الـذي يتعـدى 200 كيلـومتر بالسـاعة، ثم يأتيـك الأشـخاص الـذين يضـعون أمامـك "صـفطات" مـن النقـود متبـاهين بإنجـازاتهم وأرباحهـم الكبـيرة.... لا شـكّ لـدينا أن هـؤلاء الشـباب كـانوا مـن بـين الأطبـاء والعلمـاء الـذين اكتشـفوا مصـل التطعـيم "فـايزر" المضـاد لفـايروس "كـورونا"..... أنا متأكـد أنكـم تبتسـمون أو تضـحكون، "شـر البليّـة مـا

يضحك".... انتظروا لم ننته بعد، إذ يخرج إلينا الأزواج الذين يمثّلون المواقف التي من المفروض أن تكون ساخرة ومضحكة، حيث الزوج لاهٍ بهاتفه بينما تقوم الزوجة بلباسها "المحتشم" بتوجيه الأسئلة التافهة له فيجيبها بالإجابات السخيفة التافهة مثلهما، هل أصبحنا نستعرض نساءنا من أجل الشهرة؟ أكيد العائلة تفتخر بهؤلاء ويهدونهم "اللايكات" و "القلوب" من كل حدبٍ وصوبٍ....ثم ننتقل إلى الأهم، إلى الموضوع الرئيسي، إلى الشغل الشاغل لعالمنا العربي والمحلي، إلى موضوع الحب والجنس، حيث أصبح هذا التطبيق المنبر الأساسي، والموسوعة العلميّة لنشر "التوعية" الجنسية للشعب العربي المتعطش لهذه المعلومات، معلومات نتلقّاها نحن وأولادنا من مجموعة من الفتيات اللواتي مررن بعمليات "ترميم" من أعلى رؤوسهنّ وحتى أخمص أصابعهن، مستعملات بذلك مصطلحات "علمية" ولغة بحثية اكسفورديّة، حيث التركيز بالأساس على التضاريس الجغرافية في أجسادهن من مرتفعات وتلال..... ناهيك عن المتحولين والمتحولات، أشكال وأنواع لم نعهدها سابقًا ولا حتى بالأحلام!

هل أصبحنا عاجزين إلى هذا الحد؟ ماذا يحدث لنا ولأولادنا في شهر رمضان؟ " شهر العبادات والصلوات وكبح الشهوات" هل لهذه الدرجة "تمسحنا" وفقدنا حواسنا؟
الجواب: نعم بدون شك!

كل ما وصفته سابقًا يبقى نظريًا، يعني ممكن التغاضي عنه بأن تقوم بحذف التطبيق، "ولا من شاف ولا من دري" ونعود إلى سباتنا العميق كأن شيئًا لم يكن، ولكن تركت الأهم للنهاية، قمة الإبداع والتقدّم وهو تصوير الأعمال وإخراجها وتحريرها على الملأ.... كنّا نرى الأحداث الأخيرة خلال شهر رمضان بمنطقة باب العامود والبلدة القديمة، أعترف أنّ هذا الأمر ليس من ابتكار شبابنا العرب، ولكننا أبدعنا به وتفوقنا.

فهذا شاب عربي يقوم بصفع فتى يهودي بالقطار السريع، في حين يقوم صديقه بالتصوير مع التعليق على الحدث، ويقوم هذا الشخص برفع الفيلم على التطبيق مع خلفية موسيقية دراماتيكية من مسلسل "وادي الذئاب" التركي متقمصًا شخصية البطل "مراد علمدار"، مثيرًا بذلك الفتن بين العرب واليهود في هذه الأيام العصيبة الحساسة.

وهذا يذكرني بقصةٍ من تاريخ العرب حيث روى ابن الجوزي: " لَطَمَ (صَفَعَ) رجلٌ الأحنف بن قيس (كان زعيم قومه، ويضرب به المثل بالحِلمِ والتسامح)، فقال لهُ: لِمَ فعلت هذا؟
فقال الرجلُ: جُعِلَ لي جُعْلٌ (أي أُعطيت مبلغًا من المال) على أنْ أَلْطُمَ سيد بني تميم، فقال الأحنفُ: ما صَنَعْتَ شَيئًا، عليك بحارثة بن قدامة (كان فارس تميم)، فإنه سيد بني تميم،

فـانْطلقَ، فَلَطَمَـهُ، فَقَطَـعَ يَـدَهُ وعلَّقَهـا برقَبَتـه، فنـال جـزاءَه. وهـذا الشاب تم التعرف عليه واعتقاله من قبل الشرطة.

العـربي يصـوّر واليهـودي يصـوّر "وكـلٌّ يغـنّي علـى لـيلاه"، هـل هكذا نريد أن يتصرف شبابنا في هذا الشهر الفضيل؟

مـاذا عـن الشـاب الـذي طلـب منـه زميلـه أن يقـوم بعمـل مُشـين بفتـاة وتصـويرها مرافقًـا بضـحكات أصـدقائه المتعاليـة، هـل هـذه هي تربيتنا وأخلاقنا؟

لم يبـقَ لهـؤلاء الشـباب إلّا أن يقومـوا بحرق بيـوتهم وتصـويرها حـتى يحصـلوا علـى إعجـاب الجمـاهير، والأدهـى مـن ذلـك أنهـم أصـبحوا مـن شخصـيات "التيـك تـوك" ويـتم دعـوتهم لعمـل دعايـة لمحـلّات ومنتوجـات مختلفـة، يعـني تعـدّى الأمـر مـن التسـلية والضـحك وأصـبح مهنـة يتقاضـى الـبعض منهـا أمـوالًا وأرباحًـا لا يُستهان بها.

نعـم أنا غاضـب، ولـو اسـتطعت فلـن أتوقـف عـن الكـلام، هـل تـذكرون قصّـتي لكـم في مدونـة سـابقة عـن الشـخص الـذي تبـول في بئـر زمـزم بهـدف الشـهرة؟ نعـم يتبـوّل أبنـاؤنا عـبر هـواتفهم مـن أجـل الشـهرة، لكـن النتيجـة والحسـاب لا يأتي عـبر فـاتورة الهـاتف، إنمـا يأتي عـبر بيوتنـا وأجيالنـا الـذين سـيدفعون ثمنًـا باهظًـا عاجلًا أو آجلًا.

"ثلج ثلج عم بتشتّي الدنيا ثلج"

صوت المذياع يصدح منذ ساعات الصّباح بصوت الرائعة فيروز مبشّرًا النّاس بسقوط مؤكد للثلوج على جبال بلادنا الجرداء، بين فرحة الأولاد الصّغار وانفعالهم لرؤية تساقط الثّلوج في القدس، وقلق الكبار وخوفهم من الكوارث التي قد تسببها هذه العاصفة الثلجية.

بعض هؤلاء الأولاد لم يرَ الثّلوج سابقًا ولم يمر بهذه التّجربة من قبل، وها هي أصواتهم تتعالى وهم يلعبون بالثلوج المتراكمة بالحدائق والشوارع بينما تقوم الامهات بالتقاط الصور التذكارية بالهواتف الذكية....

الحقيقة أنّ موضوع الأحوال الجويّة يشغل بال النّاس منذ أسابيع عديدة، خاصة في نشرات الأخبار ونشرات الأحوال الجويّة التي أخذت حيّزًا معتبرًا في برنامجنا اليومي، فكلّنا ننتظر نهاية النّشرة الإخبارية لنستمع إلى أحوال الطقس.... هل أصبحنا فجأة مهتمّين بالأرصاد الجويّة؟ هل أصبحنا نعي موضوع التقلّبات الجويّة وموضوع الاحتباس الحراري ونقلقُ لما سيحدث لطبقة الأوزون؟

بالتأكيد أنتم تضحكون من سذاجتي! لكن الجواب: طبعًا لا، فنحن كمجتمع عربي أبعد ما نكون عن جودة البيئة الخضراء

وآخر من يهتم بالتّغييرات الخطيرة على درجات الحرارة التي ترتفع سنةً بعد سنة، إذا كان الأمر كذلك فما هو سرّ هذا الاهتمام المفاجئ؟ ماذا نرمي من وراء هذا "التطبيل" المتزايد في وسائل التّواصل الاجتماعي ووسائل الاتصال؟

الهدف واحد: عدم الذهاب إلى العمل، عدم ذهاب الطّلاب الى المدارس، النوم لساعات أكثر، تعطيل مرافق الحياة في شتى المجالات، "يا رب تثلج"، "ياريت يعقد الثلج"، "إن شاء الله ما يذوب بسرعة"، هذه الجمل نسمعها كل يوم من الأطفال والأولاد وحتى من كبار السّن.....

لا أبالغ إذا قلت إننا نشهد "مهرجانًا" شعبيًا لا يقل أهمّية عن عيد الأضحى أو عيد الفطر أو حتى عيد الميلاد، هل تروني أبالغ في كلامي؟ لا أعتقد ذلك، عليكم أن تشاهدوا فرحة الكبار قبل الصغار لتتأكدوا من أقوالي.... عليكم أن تشاهدوا كمية المقاطع المصوّرة في "الفيسبوك والواتساب" سيقول البعض إنّ الناس بحاجة إلى الفرح والتفريغ من الأوضاع العصبية والكورونا والحجر والحظر، يا رب يديم الفرح علينا وعليكم.

في إحدى المقالات السّابقة كتبت عن نمط الشّخصيّة الفهلويّة التي أصبحت تغلب على المجتمع العربي، هذا النمط في الشّخصية الذي يؤدي إلى التّخلف الاجتماعي والابتعاد

عن التفكير العلمي وهي السبب في الهزائم التي مُني بها العرب على جميع الأصعدة، هذه هي الشّخصيّة الاتكاليّة الكسولة التي تلقي الحِمل والمسؤولية على الآخرين.

تخيّلوا أننا كمجتمع عربي في البلاد، لدينا دولة ومؤسسات ومستشفيات ومطارات، معاهد وجامعات، كيف بإمكاننا أن ندير هذه الدولة ونحن نملك هذه العقليّة؟

أذكر، أنا ومن هم بسنّي، كيف كنّا نذهب إلى المدارس في أيام الشّتاء، سيقول لك أبوك أو جدك أنّه كان يذهب مشيًا على الأقدام، قاطعًا جبلًا أو اثنين منتعلًا جزمةً بلاستيكية عازلة للمياه، ولكنها لا تقي من البرد، ملتحفًا بمعطفٍ أشبه ما يكون إلى "شوال" منه إلى معطف، كنّا نصل إلى المدرسة "منقوعين" بمياه الأمطار الغزيرة، طبعًا لا حاجة للتذكير أنه لم يكن هناك مكيّفات أو تدفئة في الصّفوف، كنّا نجتمع سويّة لكي نتدفأ، ننفث دخّان أنفاسنا على أيدينا لنشعر بقليل من الدفء، مُتناسين سراويلنا المبلولة، فوق الرّكبة وتحتها، لم نكن نفوت درسًا أو حصةً، كنّا نفرح لتواجدنا معًا، حيث قلّما غاب أحد الطّلاب أو أحد المعلّمين.

ها هي المدارس قد أغلقت أبوابها، "طبعًا مين المجنونة اللي بتطلع ولادها بهذا الطقس"، بالتأكيد ما يناسب اللعب بالثلج لا يتماشى مع التواجد بالصفوف والمدارس فشتّان ما

بين هذا وذلك، "خسارة ان غدا يوم الجمعة" سمعتها على لسان أحد الطلاب "كنا سحبنا العطلة يومين او ثلاثة".

وبالتأكيد إنّ "المهرجان "ما زال مستمرًا، بالطبع المواقد مشتعلة ورائحة الحطب تفوح مختلطة برائحة الكستناء وعبق الشاي بالنعناع يفوح من فتحة الإبريق الموضوع على دفيئة الحطب، ناهيك عن السّحلب السّاخن والحلويات العربية، آآه ماذا فعلته بنا "فتافيت" الثلج القليلة، آآه ما فعلته بأجيال كاملة "تقدّس" المطر والثّلوج.

أذكّر الجميع أنّ شهر رمضان الفضيل على الأبواب، شهر العبادة والصّلاة والمحبّة والإخاء، شهر غياب الطّلاب عن المدارس، شهر إهمال الدّراسة، شهر النّوم حتى ساعات ما قبل آذان الإفطار، شهر السّهر والمسلسلات الرّمضانيّة (للأسف لن يكون هناك جزء جديد من مسلسل "باب الحارة" لوفاة المخرج قبل أسبوع).

كيف وصلنا إلى هذا الانهيار في العزم والاجتهاد؟ أترك لكم الإجابة، كلٌّ كما يشاء فأنتم أدرى بما لديكم، وأهل مكة أدرى بشعابها، وهل نستطيع أن نترك الثلوج تذوب دون أن ننهي بطرفة:

"يُحكى أنّ رجلًا أصابته لوثة في عقله، فظنَّ نفسه حبّة قمح، وفكّر مليًا في الأمر، قال: أنا حبة قمح، وحبة القمح تأكلها الدّجاجة، إذن أي دجاجة وجدتني أكلتني"!

وانزوى الرّجل في بيته، فاجتمع اصدقاؤه حوله، وقالوا له: "أنت تتكلم وتمشي وتأكل وتنام وتعرف من نحن فهل رأيت في زمانك حبة قمح تفعل هكذا"؟

ففكّر الرّجل قليلًا، ثم أذعن وقال: "صحيح! وين كانوا عقلاتي، الحق معكم أنا رجل ولست حبّة قمح".

فشكروا الله لأنه هداه، وخرجوا فخرج معهم مشيِّعًا، لكنه لم يصل إلى الباب حتى صرخ: "دجاجة، دجاجة" وهرب إلى الدّاخل، فتبعوه، وقالوا: "إنّا أقنعناك فاقتنعت أنك لست حبة قمح، فلماذا خفت من الدّجاجة؟" قال: "من جهتي! اقتنعت.. لكن أرجوكم أن تقنعوا الدّجاجة"، أنا متأكد أنني قد اقنعتكم لكن أرجوكم أن تقنعوا أبناءكم.

أرجو لكم ليلة دافئة.

"...بالّتي هي أحسن "

"عـاد إلى البيـت بعـد يـوم عمـل طويـل، فتحـت لـه زوجتـه البـاب كمـا اعتـادت أن تفعـل، دخـل إلى البيـت بعـد إلقـاء التّحيـة، نظـرت إليـه زوجتـه، لم يكـن يحمـل بيديـه إلّا حقيبـة العمـل...، لاحـظ نظـرات خيبـة الأمـل علـى وجـه زوجتـه: "الأكـل بالفـرن" قالتهـا بـلا مبـالاة. لم يعْتـد ذلـك فقـد كانـت تحضّـر لـه المائـدة فـور وصوله، فوضع الأكل وتناوله على مضض...

"انتظـر فنجـان القهـوة مـن يـديك!"، قالهـا باسـتجداء، "باسـتطاعتك تحضـير القهـوة بنفسـك فـأنا متعبـة"، قالتهـا ودخلت غرفتها.

دار هـذا الحـوار بـين رجـل وزوجتـه، في اليـوم الـذي يصـادف فيـه مـا يُسـمّى بعيـد الحـب أو عيـد العشّـاق. لا لا تـذهبوا بخيـالكم بعيـدًا، هـذا الشّـخص لـيس أنا، أنا قمـت بتقـديم الهديـة في ذلـك اليوم، أو كما يُقال: "دفعت بالّتي هي أحسن".

اعـترف أنـني لا أؤمـن بكـل هـذه المناسـبات الدخيلـة علينـا، ابتـداءً بعيـد الحـب، وانتهـاءً بعيـد الأم وعيـد المعلّـم وعيـد العمـال وغيرهـا، حيـث اعتقـد أنّهـا تُعتـبر انتقاصًـا مِـن قيمـة مَـن نحتفـل بهـم، إذ نتـذكرهم ونتـذكر أعمـالهم يومًـا واحـدًا بـدل تقـديرهم

على مدار السّنة، على فكرة كلّما أسمع "بيوم المعلّم" أعرف أنّ مكانة المعلّم بانتقاص يومًا بعد يوم.

لم يعرف آباؤنا وأجدادنا ما يسمّى بعيد الحب، لم يعرفوا يوم الحب أو عيد العشّاق أو يوم القدّيس "فالنتين". بالمناسبة هذا الاحتفال هو يوم احتفال عند إخواننا المسيحيين، يحتفلون بالحب والعاطفة حيث يُعبّر المحبّون فيه عن حبّهم لبعضهم البعض عن طريق تقديم الهدايا أو إهداء الورود وغيرها......

لا يوجد أي مجال للحديث عن الرومانسيّة في السّيرة الأصليّة للقدّيس "فالنتين"، القدّيس "فالنتين" يقع بحب ابنة الامبراطور "كلاوديوس" ويزني بها، ولأنه راهب لا يستطيع الزواج، فما كان من الامبراطور "كلاوديوس" إلّا أن أعدمه!

وهكذا اتخذ الغرب من يوم إعدام "فالنتين" عيدًا للعشّاق، وقُمنا نحن العرب بدورنا باستيراد هذا العيد كما نستورد كل شيء من الآخرين، دون أن نعي حتى جذوره ومصادره.

أما كان أحرى بِنا أن نقتدي بعشّاقنا العرب الأمجاد الذين صنعوا للحب بُرجًا عاجيًّا وأمثلة يعجز الغرب عن الإتيان بمثلها وبمثل نقائها وعفّتها حتى سميّت بالعذريّة (نسبة إلى قبيلة بني عذرة لكثرة العشّاق فيها) .....

عشّاق عرفوا حبيباتهم غيبًا دون وصل أو لقاء، عُرفوا بعفّتهم وفصاحتهم وانتشرت أشعارهم وذاع صيتهم مثل "مجنون ليلى"، "جميل وبُثينة"، "عنترة بن شدّاد" وغيرهم من العشّاق والمحبّين.

ما علينا! سيقول البعض أنّه تاريخ وانتهى وكفى بكاءً على الأطلال فنحن "أولاد اليوم!".

حقًا أننا نمر بأيام غريبة... فالأحداث تتوالى بسرعة كبيرة، أحداث الحروب في العالم العربي، وفي أوروبا حيث التهديد الرّوسي بغزو أوكرانيا وإشعال فتيل الحرب في كل العالم.، كذلك هزّات أرضيّة غير متوقّعة، منها الجغرافيّة ومنها السياسيّة، أمراض "الكورونا" الجديدة بتشعّباتها وغيرها من الأمور المحزنة، عالم مجنون لم نعهده من قبل....

ممّا لا شك فيه أنه توجد جهات أو قُوى خفيّة وظاهرة تُسوِّق مناسبات مثل عيد الحب، لأسباب اقتصادية تجاريّة.

عندما زُرت بائع الورد، الذي اعتدت شراء الورد من عنده، أخبرني أنّ سعر الورود والأزهار قد تضاعف عمّا كان عليه من قبل عيد العشّاق، ونحن نعرف جيدًا أنّ ما يرتفع من أسعار في هذه البلاد لا ينخفض أبدًا إلّا سعر الإنسان فهو بانخفاض دائم، هل يقتصر الأمر على بائعي الورود؟

طبعًا لا، فهناك بائعو الهدايا (الدببة الحمراء والقلوب المخمليّة) وبائعو الحلويات والزّينة والبالونات الملوّنة، فلا يخلو عيد بدونها ناهيك عن عيد العشّاق والمحبّين!

انا لا أذكر أنّ أبي قال لأمي يومًا، أمامنا، "أنا أحبك"، وحتى بعد أن كبرنا لا أذكر أنّه صرّح بحبه لها علنًا أمام النّاس أو حتى من خلال منصّات التواصل الاجتماعي كما يفعل البعض بصورة مبتذلة، فهذا الشيء كان يُعتبر عيبًا في تلك الأيام ومرفوض رفضًا قاطعًا، هل تعلمون أنّ الشّاعر كان يُمنع من الزّواج بمحبوبته إذا قال بها شعرًا كما حدث مع "قيس بن الملوّح" وحبيبته "ليلى"؟

اليوم الأمور معكوسة فعلماء النّفس يؤكدون واجب إبداء مظاهر الحب بين الزّوج وزوجته أمام أولادهم بكل فرصة متاحة، وذلك بهدف تذويت قيم الحب في نفوسهم منذ الصغر كما يدّعون، لهذا أصبح أبناؤنا يحبّون كلّ اثنين وخميس، متأثّرين بكلمات الحب بين الأم والأب! أنتم تعرفون أنني أسخر من ذلك! أنا لست هنا بصدد مناقشة قضيّة "البُخل العاطفي" الذي امتاز به أهلنا في الماضي وعلاقته بعواطفنا اليوم، حيث لا أجد تغييرًا كبيرًا قد طرأ منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، فما زلنا نبخل على أنفسنا بتعابير الحب والعاطفة، على زوجاتنا وأزواجنا وحتى على أولادنا،

هذا الزّمن المادي الذي نعيشه قتل فينا مشاعر حلوة ما كان يجب أن نسمح لها أن تموت، لست من دعاة المثاليّة، فأنا أعرف أنّ الخلافات الزّوجيّة شيء طبيعي في حياة كل زوجين، تفرضه هموم الحياة اليوميّة وصعوباتها ومتطلباتها، رغم معارضتي لعيد الحب وغيرها من الأيام كعيد الأم وعيد المعلّم إلّا أنني لا أرى ضررًا في الاحتفال في هذه الأيام، إذا كان بالأمر تخفيف وترويح عن أنفسنا لما نمرّ به في هذه الأيام العصيبة. أقسى ما نواجه اليوم هو مشكلة الأحاسيس والمشاعر، فالنّاس يجفّون من عدم الاهتمام مثلما تجف الزّهرة من انعدام الماء، فالحب عبارة عن زرع، فاسقوا زرعكم كيلا تحوجوه لماء الآخرين!

كما تعلمون فإنّ اللون الأحمر يغلب على ألوان عيد الحب، لذلك لن تخلو مدونتنا من طرفة: المعروف أنّ آباءنا وأجدادنا كانوا يلبسون "المداس" وهو حذاء مصنوع من جلد الماعز، وكان "المداس" غالي الثمن يلبسه العريس يوم عرسه ويحتفظ به بعد ذلك للمناسبات مدى الحياة....

وحدث أنّ أحد العرسان لم يكن بمقدوره أن يشتري مداسًا أحمر جديدًا ليوم عرسه فاستعار، سرًا، من أحد أصدقائه مداسًا أحمر "ليستر وجهه" به أمام النّاس.

وكانت العادة أن يخرج النّاس "للزّفّة" بشوارع القرية، فمشى صاحب المداس بجانب العريس وأخذ يوشوشه من وقت إلى آخر...

- انتبه للمداس! قدامك حجر!

- لا تدعس بالوحل! بتوسّخ المداس...حيّد عن المي، امشي على مهلك! اوعى! المداس...!

فانتبه أحد أقارب العريس وهزّته النخوة فذهب وأحضر مداسًا أحمر له، فطلب من العريس أن يخلع مداس الرّجل ويرميه بوجهه.... فامتثل العريس لأمره وفعل ما قال له.

وبعد قليل خرج موكب العريس مجدّدًا إلى حيث كان يجب أن يتم عقد القران، فمشى صاحب المداس الجديد إلى جانب العريس وأخذ يقول له بصوت مرتفع:

- المداس مداسي! ادعس ولا يهمك، كل المداس على حسابك، امشي بالميّ! خبّص بالوحل! مداسي فداك...

- فانتفض العريس وانتزع المداس من رجليه وقال: "بلا مداس، ولا جميلة الناس".

حج سبع نجوم

قال تعالى في محكم كتابه: "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"، نعم، "من استطاع إليه سبيلًا"!

تداولت وسائل الاعلام مؤخرًا خبر زيادة تكاليف الحج بشكل كبير وملحوظ حيث يصل تكاليف الشّخص الواحد ما يُعادل عشرة آلاف دولار أمريكي، طبعًا هذا مبلغ كبير إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ غالبية الحُجّاج هم من عامة الشّعب أو حتى من الأشخاص غير المقتدرين.

لن نتعرّض هنا إلى النّظريات الاجتماعية التي تقول إنّ المتدينين في غالبيتهم يأتون من بين طبقات الشّعب الفقيرة ناهيك عن الحقيقة أنّ الحاج أو الحاجة لا يخرجون عادة منفردين، بل أزواجًا، حيث أنّ قضية "المحرم" هي قضية مهمّة ومركزيّة في الإسلام، فالرّجل يخرج مع زوجته أو أخته أو أمه وما إلى ذلك، معنى الأمر أنّ الزّوجين بحاجة إلى عشرين ألف دولار كتكاليف ورسوم للحج ولا يتضمن ذلك المصاريف اليوميّة من مأكل ومشرب وسفريات وغيرها من الأمور الأخرى، الحقيقة أنّ هذه المبالغ تُعتبر خيالية بالنّسبة لمعظم النّاس حتى للطبقة الوسطى من موظّفين وأجراء.

هل معنى هذا أنّ الحج سيُصبح للأغنياء فقط؟!

لا تقتصـر تكـاليف الحـج في بـلادنا علـى مصـاريف الحـج نفسـه، خـلال وجـود الحـج في مكـة والمدينـة، فقـد تبَنينـا في بـلادنا عـادات غريبـة دخيلـة وزائـدة بكـل مـا يتعلّـق بمراسـم الحـج ، فهنـاك طبعًـا عـادات توديـع الحـاج لمـدة أسبوع قبـل المغـادرة، تتخللهـا الضـيافة المعتـادة مـن شـاي وقهـوة وعصـائر ومكسّـرات، وفي آخـر الليـل المعجّنـات ومـا شـابه ذلـك مـن الحلـويات وغيرهـا، وعنـد عـودة الحـاج سـالمًا يبـدأ مهرجـان مـن نـوع جديـد حيـث ينهـال المهنئـون علـى بيـت الحـاج، محمّلـين بأكيـاس السّـكر وعلـب الشـوكولاتة ذات النّـوع الـرّخيص وغيرهـا مـن الهـدايا الـتي لا حاجـة لهـا حيـث تتكـدّس في البيـت مشـكّلةً عِبئًـا إضافيًا على العائلة.

في المقابـل يقـوم الحـاج وعائلتـه بالـذهاب إلى الخليـل علـى الأغلـب، للتـزوّد بكميـات كبـيرة مـن المسـابح بشـتّى الأنـواع والأحجـام، لإهـدائها للمهنئـين، علـى فكـرة كلّمـا كانـت هديّـة المهنـئ أكـبر وقيمتـه أعلـى فـإنّ قيمـة المسـبحة أكـبر، طبعًـا ناهيـك عـن سـجاجيد الصّـلاة، فخـر الصّـناعة الصّـينيّة، ولا ننسـى تكـاليف اليافطـة ذات الإضـاءة المزركشـة، ومـرة أخـرى الشـاي والقهـوة والتمـور، وهـذه المـرة تمـور المدينـة المنـورة ذات النكهـة الدينيـة الخاصّـة، بالإضـافة الى " ميـة زمـزم " لـزيادة البركـة، نسـينا ان نـذكر الهـدايا لـلأولاد والاحفـاد وبطانيـات الصـوف الثقيلـة الـتي تُصـر الحاجـة علـى جلبهـا" لكنانينهـا " كأننـا

نعيش في سيبيريا، وهنا يجد الحاج نفسه متحمّلًا تكاليف الحاج الباهظة بالإضافة إلى تكاليف الوداع والاستقبال إضافة إلى أنه أصبح مديونًا للمهنّئين الذين قاموا بإحضار الهدايا والمباركات، وفي كثير من الأحيان مغلفًا فيه مبلغ من المال يبقى دَينًا في رقبته حتى يقوم بتسديده بأقرب مناسبة....

أذكر أنني في ذات عام ذهبت لتهنئة أحد الحجاج أنا وزوجتي، وعندما قلت لزوجتي أنني سأُبادر بالتّغيير بألّا آخذ هدية لهذا الحاج، عندها رفضت زوجتي الخروج من البيت قائلة: "ألا تخجل أن تذهب إليه خالي اليدين، أنا لن أذهب معك" عندها اضطررت أن أشتري هدية تليق "بمركزي" كما قالت زوجتي.

هل أصبح الحج تجارة؟ هل أصبح رجال الدّين تُجّارًا؟!

هناك من يقول أنّ تجارة الدين هي أكثر التجارات ربحًا في العالم وهي أقدم أنواع التّجارة منذ بدء الخليقة....

أذكر أنني قد زرت اليابان مرتين حيث استضافني أحد رجال الدّين اليابانيين. قمت بمرافقة رجل الدّين حيث توافد إليه المصلّون، منهم من يطلب بركته لشرائه سيارة أو لولادة طفل وغيرها من الأمور الغريبة العجيبة. بالطبع كل عملية من هذا النّوع كان يرافقها مغلّفٌ مليء بالنقود، وأذكر أن رجل الدّين

قد اصطحبني معه لاجتماع عام لرجال الدّين في المنطقة، تفاجأت أنني عندما وصلت إلى مكان الاجتماع، شاهدت أغلى أنواع السّيارات في العالم من "فيراري، ولمبورجيني، ومزراتي" وغيرها من السّيارات الفاخرة، وعندما سألته عن هذه السّيارات قال لي: "إنها سيارات رجال الدّين". على فكرة رجل الدّين صديقي كان يملك سيارة يغوار، هذا في اليابان.. طبعًا عندنا الأمر مختلف لكن لا شك أن بعض رجالات الدّين قد استغلّ هذا المركز وجمع أموالًا طائلة وبنى قصورًا ضخمة، خاصّة من جنّد لنفسه وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي، فأصبح لهم برامج ومحطّات.

للأسف لقد وصلنا إلى هذا الحال وسلبنا من النّاس إحدى فرائض الإسلام، دين التّواضع والتسامح والمحبّة لدرجة أنّ هناك من ينادي إلى مقاطعة الحج حتى يتراجع أصحاب القرار عن قرارهم بإعادة الأمور الى نصابها، وإعادة الأسعار إلى عهدها السّابق.

وهل يُمكن أن ننهي حديثنا بدون طرفة؟

حدّثني من أثق به: أنه من شدّة الزحام والتّدافع عند رمي الجمار رأى حاجًا كاد أن يسقط من أعلى الجسر، لكنه تمسّك بالحديد بقوّة، فسقطت ثياب الإحرام عنه، كان هذا الحاج افريقيًّا شديد السّواد، ضخم الجثّة، فلما رآه بعض

الجهلـة، ظنّـه الشّـيطان قـد خـرج، فصـار يهتـف بكـل حمـاس: خـرج الشّـيطان!! ظهـر الشّـيطان!! وأخـذ يسـدّد الجمـرات يريـد أن يصـيب هـذا المسـكين، وبـدأ الجهلـة يرجمـون هـذا المسـكين بالحصـى والنعـال، حـتى أدركتـه سـيارة الإسـعاف وهـو علـى وشك أن يُفارق الحياة....

حجًّا مبرورًا..

حفلات–حفلات–حفلات

لا يختلف اثنان على أهميّة حفلات التّخرج في أيامنا هذه، حيثما مشيت وأينما كنت فإنك ترى حفلات التخريج حولك.

أنا نفسي كنت ضيفاً في عدد من هذه الحفلات، أعترف أنها كانت حفلات جميلة، طبعًا هناك حفلات تخريج منها الجامعيّة ومنها حفلات تخريج الثّانوية العامة وتخريج الاعداديّة وتخريج الابتدائية وتخريج الرّوضات.

من الجدير بالذّكر أنّ حفلات التخريج يرافقها مصروفات ليست بسيطة، بل يمكن القول أنّها مكلفة للأهل وللطّلاب من ناحية الرّسوم التي يطالب الخريجون بدفعها وذلك لاستئجار قاعة ومصوّر ومهندس الصّوت، بالإضافة للملابس الجديدة وتسريحات الشّعر للبنات والحلاقة للشّباب والورد والبالونات، ناهيك عن حفلات التصوير المرافقة المكلفة والخروج الى المطاعم الغالية بعد الحفلة، باختصار أصبح التخريج مشروعًا للعائلة.

سيوجّه البعض الكثير من الانتقادات بسبب هذه المصروفات التي يعتقد البعض أنّها زائدة ولا حاجة لها. طبعًا هناك الكثير من الأمور التي يجب مراعاتها في حفلات التخريج.

خلال عملي مديرًا لمدرسة كنت شاهدًا على الكثير من الحفلات وكانت لدي بعض التحفظّات ومنها: ألا تتعدّى مصاريف الحفل مبلغًا من شأنه أن يشكّل عبئًا على العائلة، لأنّ مصاريف العائلات آخذة بالازدياد خاصة في موسم الصّيف من مناسبات وأعراس وأعياد وسفر حجّاج وغيرها من المناسبات المتتالية وغير النهائيّة...

أنا مع إيجاد مناسبات لتعمّ الفرحة في مجتمعنا العربي، عندي إحساس أن مجتمعنا جريح، جريح من الأزمات الاقتصاديّة والسياسيّة وأننا بحاجة إلى الفرح والسّرور، وإذا كان الفرح والسّرور يأتينا من حفلات التخريج فأهلًا وسهلًا بهذه اللحظات، أعرف أنّ النّاس في ضائقة، وأعرف أنّ حفلات التخريج تضغط بعض العائلات اقتصاديًا، لكن هناك نوع آخر من الضغط الذي كنت شاهدًا عليه....

نعرف أنّ مسألة النّجاح في الامتحانات هي مسألة ليست بالسّهلة، هناك من ينجح بعد بذله مجهودًا كبيرًا وهناك من يرسب في الامتحانات نتيجة كسله وعدم اجتهاده.

هنا نجد الضغط على العائلة، العائلة التي تنتظر نجاح أبنائها بفارغ الصّبر، تريد الأم ان تفرح وكذلك الأب، ولو عرف الأبناء ما يشعر به الأب والأم لما تجرأوا على الفشل، من أكثر المشاهد ايلامًا لي أن أعرف أنّ فلانًا قد أقام حفلة رغم أنه

قد فشل في الامتحانات، لكن العائلة لم تستطع مواجهة هذه الحقيقة خوفًا من الشّماتة "والقيل والقال"، ففضّلوا إقامة حفلة ودعوة الأقارب على ألا يُقال إنّ ابنهم فشل، آه كم يشعر الأهل بالألم المضاعف وهم يمثّلون دور الأهل الفخورين بنجاح ابنهم، هناك طبعًا الطّلاب المستهترون الذين قضوا معظم سنواتهم في المدرسة بين الازعاج والتّشويش على المعلّمين وبين تكسير الكراسي والطاولات، بين الإحباط وبين اليأس من كل ما يسمى عمليّة تعليميّة وتربويّة، يا ترى ماذا يشعر به هؤلاء الطّلاب عندما يصعدون إلى المنصّة لتسلّم شهادات الانهاء؟ ماذا يشعرون وهم يرون أقرانهم يستلمون هذه الشّهادات بفخر واعتزاز بعلاماتهم وانجازاتهم؟ كثيرًا ما رأيت نظرات الاحراج في أعينهم وأعين أهلهم، هل يعني هذا أنّ حفلات التخريج قد فقدت مصداقيتها واعتبارها؟

حفلات التخريج بحد ذاتها أمر جيد ومحمود، وأنا أرى أنّها أمرًا ايجابيًا يجب الحث عليه، ولكنها في نفس الوقت كما يرى البعض، فقدت قيمتها ومصداقيتها عندما ساوت (من لغة المساواة) بين الطّالب المستهتر والرّاسب مع الطّالب المجتهد والمتفوّق. لماذا لا يكون التخريج فقط لمن ينجح في امتحاناته وحصل على علامات تؤهله لدخول الجامعات والكليّات على غرار حفلات التخريج في الكليّات والجامعات حيث يكون التكريم للمتفوقين الناجحين؟

بينما يعتقد البعض الآخر أنه ليس من العدل أن نحرم هؤلاء الطّلاب من هذه الحفلات لأن الهدف منها هو الاحتفال بانتهاء مرحلة وأنّ مقياس النجاح والفشل ليس واردًا هنا، فبعض هؤلاء الطّلاب لديهم صعوبات تعليميّة أو أصحاب قدرات محدودة وهذا ليس سببًا من حرمانهم من التخرج....

سأترك هذه القضيّة مفتوحة لتقرروا أنتم وحدكم في أي جانب أنتم، أما أنا فسأنهي كلامي بطرفة:

اعتاد أحد الميسورين أنْ يعطي متسولاً كل شهر الفَ جنيه، ظل الرجل على هذا الحال لمدة عامين، وفي يومٍ من الأيام، أعطى الرجل المتسول 750 جنيه فقط، فاستغرب المتسول منه ذلك، ولكنه قال لنفسه 750 جنيهًا أفضل من لا شيء، وبعد شهر أعطى الرجل المتسول 500 جنيه فقط، تعجب المتسول! وقال للرجل: لقد كنت تعطيني ألف، ثم 750، والان 500!!

هل لي أن أعرف السبب؟ رد الرجل: في السابق كان أولادي صغارًا، وكنت ميسور الحال، فأعطيك ألفًا، ثم كبرت ابنتي، ودخلت الجامعة، ومصاريف الجامعة كثيرة فأصبحت أعطيك 750 والآَن دخل ولدي الثاني الجامعة وزادت المصاريف فأصبحت أعطيك 500، فقال المتسول: وكم عدد اولادك؟

قـــال الرجـــل: أربعـــة! فقـــال المتســـول: أنا قلـــقٌ أنـــك الآن أن سوف تعلمهم جميعًا على حسابي...

دامت الأفراح في دياركم العامرة.

"كلاسيكو العرب"

أقرّ وأعترف أنني أُحب كرة القدم، واعترف أنه كانت لي تجربة في الماضي كلاعب كرة قدم، إلى أن أتى والدي رحمه الله، وقطع دابر هذه الموهبة وهذا المستقبل بقوله: "الفطبول بطعميش خبز"، آه كم كان أبي مُخطئًا، وها نحن نرى المبالغ الطائلة التي تُدفع للاعبي كرة القدم اليوم.

لا تأخذوا الانطباع من حديثي أنني كنت لاعبًا لا يُشَقُّ له غبار، اعترف أنني كنت أسافر في أوقات متقاربة - قبل عصر الكورونا- إلى خارج البلاد لمشاهدة مباريات كرة القدم، وخاصة فريق روما الإيطالي المفضّل على أولادي.

ما الذي يجعل ملايين الأشخاص حول العالم يجتمعون لتشجيع رجالٍ لا يعرفونهم لوضع كرة جلدية في الشبكة، أمر غير ضروري، غير اساسي، ولكنّه يعني كل شيء، إنها العاطفة إنه الشّغف...!

لا، لم آتِ هنا لأبكي على الأطلال ولا لأندب حظي وأتحسّر على ماضٍ لم يتحقق، أتيت لأتحدث عن ظاهرة الاستحواذ التي تسيطر على جزء غير بسيط من مجتمعنا العربي في البلاد، لدي صديق، اعلامي مرموق، هو في نظري من أرق الأشخاص وألطفهم الذين قابلتهم بحياتي، كتاباته راقية،

متحضّرة لطيفة، حتى يصل الأمر إلى فريقه الكروي، ريال مدريد، عندها ينقلب إلى انسان لاذع، متذمر وفي بعض الأحيان متشائم، وهو الذي كان بنظري رمزًا للتفاؤل والمحبة، ما الذي تفعله هذه الكرة الجلدية بالناس الطيبين!!، للأسف صارت لعبة كرة القدم اليوم أكثر من لعبة، أصبحت حربًا أهليّة بين جماعات ومجتمعات.

صادف أن كنت يومًا ما في مقهى في مدينة بيت لحم مع أصدقاء لي، لاحتساء فنجان من القهوة والتحدث بالأمور اليومية، وصادف في ذلك اليوم وجود مباراة كرة قدم بين فريق برشلونة الإسباني وفريق آخر من دولة أخرى في نطاق تصفيات بطولة أوروبا، وطبعًا كان تواجد كثيف لجمهور برشلونة، بقمصانه المخطّطة باللون الأزرق والأحمر أو البوردو وشالاته الطويلة البرّاقة، وممّا أثار استغرابي أنني تعرّفت على بعض الوجوه المألوفة من أيام دراستي بالجامعة.

تبادلنا التحية وأطراف الكلام، وسمعت منهم محاضرة قصيرة وتلخيص أولي عمّا "سنواجه" في هذه المباراة المهمّة، لدرجة شعرت أنني موجود في جلسة ارشادية من مدير اللواء حول سياسة الدولة التربوية أو الأمنيّة، لقد حدّثني هذا الصديق القديم عن الخطّة والاستراتيجيات التي سيلعب فيها الفريق الاسباني، وذكر طرق الهجوم والدفاع واستراتيجيات الكرّ

والفرّ، حتى خِلتُ أنّ "نابليون بونابرت" يرسم خطة اختراق سور عكا المنيع، أو أنّ الجنرال "أيزنهاور" يحاول دكّ الخطوط الدفاعيّة لألمانيا النازيّة.

واستمرّ صديقي في تحليله العميق لكل ما سيحدث ذاكرًا خطة اللعب 4-4-2 وهي خطة معتدلة، لا دفاعيّة ولا هجوميّة لكنها تفي بالغرض المنشود، غير ناسٍ أنّ فريق برشلونة يمثّل منطقة "كتالونيا" التي تسعى للحصول على الاستقلال من اسبانيا ذاكرًا احتلالها على يد الفاشيّة بقيادة الجنرال "فرانكو" وأنصاره من مؤيدي الفريق الملكي ريال مدريد، العدو الّلدود.

كل هذا الوصف الدقيق المسهب، يرافقه صديقي بكلمات مثل "نحن" و "هم"، "سنقوم"، "سنضرب"، وما إلى ذلك من استعمال لضمير الشأن حتى خلت نفسي أستعدّ لهجوم معاكس وراء خطوط العدو، وأني أنتظر أن يزوّدني بخوذة وبندقيّة حتى ننفّذ الهجوم المباغت ونحتل هذا الحصن المنيع ، وممّا أثار جنون صديقي أنني تجرأت وسألته بسذاجة وخبث: "أنت تكرر كثيرًا نحن ونحن، يعني أنت تأخذ الأمور بصورة شخصيّة أكثر من اللازم"، عند سماعه كلامي استشاط غضبًا وثارت ثورته ووقف قائلًا: "من البداية شعرت أنك لست معنا، الحق عليّ الّي بشرحلك"، وغادر الطاولة وهو يتمتم

كلمات غاضبة وغير مفهومة، لقد شعرت بأنني عميل مزدوج قد تم الكشف عن هويته على الملأ، ولاحظت نظرات الغضب والاستهجان من جمهور برشلونة الغاضب، ووجدت نفسي في مأزق لا أحسد عليه، فقلت محرجًا: "اعذروني على جهلي فأنا لا أفهم بكرة القدم" عندها فقط ابتعدت الأنظار عنّي متّجهة إلى شاشات العرض الكبيرة الموزّعة على جدران المقهى، عندها فقط تنفست الصعداء نادمًا على حضوري، لائمًا نفسي على هذا الخطأ الجسيم.

هذه الحادثة ذكرتني بسباقٍ للخيل في حلبة محلّية، كان الفوز حليف حصان سريع من بينها ممّا جعل شابًا يافعًا من بين الحضور يقفز فرحًا وهو يكبّر ويصفّق، ممّا جعل بعض الحضور يظنّ أنه صاحب الحصان الفائز، وعندما سأله أحد الحاضرين: هل الحصان لك؟ فقال: لا، لكن اللجام لي!

لا شيء أشبه بصاحب اللجام اليوم من جماهير كرة القدم المتعصبين لفرقهم، لا يقتصر الأمر على هذه الاحتفالات داخل المقاهي أو البيوت التي تتعالى منها الصرخات والهتافات، بل تخرج الجماهير العربيّة تجوب الشوارع بعد انتهاء المباراة كأنه قد تم تحرير الأندلس واستعادة الديمقراطية في البلاد العربية.

لست ضد كرة القدم ولست ضد ريال مدريد أو ضد برشلونة، ولكن ما يزعجني أن تتحول لعبة كرة القدم لأكثر من لعبة تشغل جماهيرنا عن قضايانا الاجتماعيّة والسياسيّة وهموم شعبنا المستعصية، ما يزعجني أن يعرف أولادنا "ميسي" أكثر من معرفتهم لعمر بن الخطاب، وأن يحفظوا أهداف "كريستيانو رونالدو" ومراوغاته أكثر ممّا يعرفوا فتوحات خالد بن الوليد وحروبه.

تذكير: ستقام الأسبوع القادم مظاهرة لنبذ العنف المستأصل في المجتمع العربي، اقترح أن تقام المظاهرة في "الكامب نو" ملعب "برشلونة"، أو "البرنابييو" ملعب "ريال مدريد" لنضمن حضوركم!

أرجو لكم مباراة شيّقة!

"دافنينه سوا"

أتذكّر دائمًا القول: "رافق المِسْعَد تِسْعَد"، وممّا لا شك فيه أنّ نفسيتنا تتأثر كثيرًا بالأشخاص الذين نجلس معهم والذين نتحدث إليهم، وكثيرًا ما وجدت نفسي أمتنع عن لقاء أو الجلوس مع أشخاصٍ دائمي التذمّر والشكوى، كيلا تنتقل العدوى إليّ، وتتأثر نفسيتي وينقلب مزاجي إلى الأسوأ، كذلك الأمر في كتاباتي الأسبوعيّة، أحاول أن أكون متفائلًا كيلا أوصم بالسّلبية والنكد، وكيلا أتحول إلى نذير شؤم في كتاباتي، وخاصة عندما أسمع بعض تعليقات الأصدقاء والقرّاء حيث قالت لي صديقة، تعليقًا منها على المدونة الأخيرة، قالت: "يا ريت تكتبلنا عن شيء إيجابي يملؤنا حيوية وطاقة إيجابية ولو لمرة، تمرمرنا من سرد الواقع الأليم". تأملت لكلماتها التي ما زالت ترن بآذاني كلّما أقدمت على كتابة سطر أو جملة حول الواقع الذي نعيشه. لا شكّ في أنّ الكتابة حول المواضيع السّلبية هي أسهل وأكثر تشويقًا للقارئ، كما أنّها أكثر استفزازًا للكاتب، لذلك نحن نميل أكثر إلى قراءة الفضائح من قراءة الأخبار السّارّة، هل تعوّدنا أن تُثيرنا الفضائح؟ الجواب: نعم.

من هذا المنطلق قال لي صديق حميم، عندما ذكرت أمامه هذا الموضوع وأعربت عن مدى تردّدي في الكتابة، حيث اقترح

عليّ أن أكتب عن مواضيع إيجابية، واقترح عليّ أن اكتب عن موضوع "الصداقة" شارحًا لي بالتّفصيل ما سأكتب وكيف سأقوم بصياغة الموضوع وتحريره. استمعت إلى صديقي "خلدون" متظاهرًا بالاهتمام والإصغاء، بينما تتسارع الأفكار في ذهني وتتلاحم، متسائِلًا بيني وبين نفسي عمّا سأكتب في موضوع الصداقة، وكيف سيكون رد فعل القرّاء حول هذا الموضوع؟ خططت كثيرًا وحاولت أن أرسم في مخيّلتي بعض الأفكار حتى لا أُكرر ما كُتب سابقًا حول هذا الموضوع، فكّرت كيف سأبقى متفائِلًا وفي نفس الوقت مُثيرًا ومشوّقًا؟

بما أنني أحب اللغة العربية وأعشقها وأعود إليها دائمًا في كتابتي وتفكيري، فقد أخذت بالتفكير حول قضية تعدد أنواع الأصدقاء في اللغة العربية، فهناك عدد من المستويات ومسمّيات الصداقة، وهذه المستويات تصل إلى ثلاثة عشر مستوى هنا لا بد من السؤال: لماذا احتاجت اللغة العربية إلى كل هذا التفصيل؟

صحيح أنّ اللغة العربية هي لغة واسعة مفصّلة ودقيقة في مفرداتها وتعابيرها، حيث نجد ثلاثمائة اسم للسّيف، وهناك مقولة مفادها بأن الإبل وحدها تحمل ألف اسم في اللغة العربية.

إذا عــدنا للصــديق فباعتقــادي أنّ تعــدد المســتويات والتســميات: يــدل علــى عــدم المســاواة في معــنى الصّــديق، باعتقــادي أيضًــا أنّ الصّــديق اليــوم هــو عملــة نادرة ولكــي نكســب صــديقًا، اليــوم بواقعنا هذا، فإننا نحتاج إلى نفسيّة معيّنة متوافقة من الطرفين.

هــل تشــعرون مثلــي أنــه كلّمــا تقــدّم بنــا الســن وكلمــا كــبرنا فــإنّ أصــدقاءنا يقلّــون أو حــتى يتلاشــوا؟ لقــد كنــت بالماضــي أفتخــر بعــدد "الأصــدقاء" الكبــير الــذي لــدي، هــذا العــدد قــد يصــل أحيــانًا إلى العشــرات وعنــد بعــض النــاس إلى المئــات، أنا طبعًــا لا أعتبر أصدقاء الفيسبوك ولا أضمّهم إلى هذا الإطار.

كثــيرًا مــا يلــومني أفــراد عــائلتي أنــني أقبــع كثــيرًا في البيــت، وأنــه لا أصــدقاء يــزورونني أو أزورهــم، والســؤال هــو أيــن ذهــب هــؤلاء الأصدقاء؟

خــلال أحــد النقاشــات الــتي دارت بيننــا قــررنا تجديــد صــداقاتنا القديمــة وبعــث الحيــاة بهــا مــن جديــد، جلســنا وحــددنا الاســتراتيجيات والخطــوات الــتي يجــب أن نســلكها، وجــدنا أنّ أفضــل طريقــة هــي أن نقــوم بــدعوة بعــض الأصــدقاء إلى وجبــة العشــاء والسّــهر معًــا. حاولنــا جاهــدين حــتى وجــدنا أنّ التنسيق الأمــني بــين إســرائيل والسّــلطة الفلســطينيّة أســهل بكثــير مــن التّنســيق للخــروج إلى مطعــم مــع أصــدقائنا، وعنــدما نجــح الأمــر وخرجنــا، رأينــا أنــه لم يكــن هنــاك اســتمرارية وتبادليــة مــن

أصدقائنا "القدامى"، يعني لبّوا دعوتنا وأكلنا وسهرنا وكما يقول المثل: "هذا وجه الضيف"، لم نيئس وأعدنا الكرّة من جديد، حاولنا إغراءهم من خلال السفر معًا في رحلة خارج البلاد، وليتنا لم نفعل اذ قضينا الرّحلة محاولين إصلاح ذات البين بين الرجل وزوجته وعقد هدنة مؤقتة حتى عودتنا إلى البلاد.

أعتذر، ها أنا أجد نفسي أعود وأتذمّر وأشكو الواقع المرير، آسف أنني انجرفت وراء عواطفي، دعوني أقُل لكم إنّ الصّديق، في بعض الأحيان، أقرب إليك من أخيك، فعندما نختلف مع أي كان نهرع للصّديق، نفضفض له ما تكنّه صدورنا، نبثّ له أحزاننا، علّه يخفف عنّا وطأة الثقيل، لا علاج للضغط والغضب أفضل من أن تفضفض عنه لتستريح.

لكن هل هناك أمور يجب أن نتجنبها في علاقتنا مع الأصدقاء حتى تستمر صداقتنا إلى أطول وقت ممكن؟

باعتقادي هناك عدة أمور علينا أن نتجنبها حتى نحافظ على صداقاتنا، أول هذه الأمور هي: المحافظة على الصّديق قريبًا كان أم بعيدًا، بمعنى أنّ القرب الشديد يولّد الاحتكاك والمشاكل، لا تسافر مع صديقك في رحلة إلى خارج البلاد خاصّة إذا كان متزوجًا، ابتعد عن السفر والتواجد معه، فإنّ

السّــفر مشــقّة ومصــاريف، وهنــا تظهــر الشخصــيّة الحقيقيّــة للصّــديق أو الصّــديقة خاصّــة في وجــود شــخص آخــر معكــم وهــو الــزوج أو الزوجــة، حيــث ســتظهر في تصــرفاته جوانــب لا ترغب في معرفتها، أنا دائمًا مع المثل القائل "إبعد تِحلى".

الأمــر الثــاني: هــو الصّــراحة التّامــة، حيــث تعتقــد أنّهــا أفضــل شــيء في الحيــاة، تصــطدم بموقــف مــن تُصــارحه مــن الأصــدقاء، فــإذا ذكــرت لــه عيبــه كأنّــك لطمتــه علــى وجهــه، فيتلــوّن وجهــه، وقــد يُقصــيك مــن قائمــة أصــدقائه، لأنــك لم تعــد مرغــوبًا لديــه، وعلــى حــين غِــرّة تتغــير الأحــوال وتصــبح في نظــره إنســانًا متصــلبًا لا تفقــه مــن الحيــاة شــيئًا ولا تعــرف أصــول التعامــل مــع النــاس وأنّك أصبحت فظًّا غليظ القلب.

أمّــا الأمــر الثالــث: فهــو هــل بمقــدورك مــنح بعــض المــال لصــديقك؟ بالطبــع يمكنــك ذلــك ، لكــن إذا مــا أردت الحفــاظ علــى العلاقــة بينكمــا: أقــترح عليــك ألّا تقــرض المــال لصــديقك إلّا إذا كنــت مُســتعدًا في داخلــك ومتقــبّلًا لحقيقــة أنّ هــذا المــال قــد لا يُــرد لــك أبــدًا، وهكــذا إذا لم يُــرد لــك المــال – وأؤكــد أنّ هــذا هــو مــا يحــدث غالبًــا- لا تشــعر بأي ســوء تجــاه الأمــر، أمّــا إذا توقعــت ممّــن أخــذ المــال أن يــردّه لكنــه لم يفعــل، تخيّــل مــدى الجــرح والخــذلان اللــذين ستشــعر بهمــا مــن جــرّاء هــذا الموقــف، إذا أقرضــته بعــض المــال ولم تســترده، اعلــم أنّــك بهــذا تخســر مــا هــو

أكثر من مجرد المال – حيث تفقد الصداقة كذلك، وسوف يشعر صديقك بالحرج ويتهرب منك، والنتيجة هي خسارة الاثنين.

دعوني أرطّب الجو وندعو لدوام الصّداقة والإخاء بين الناس، هيا ننهي حديثنا بطرفة:

اتفق أنّ صديقين فقيرين أرادا أن يقوما بفريضة الحج، فتشاركا بشراء "حمار"، كانا يتناوبان الركوب عليه ذهابًا وإيابًا، وحدث في طريق العودة أن مات الحمار، وكانا قد أطلقا عليه اسم "زنكي"- فحفرا حفرة بجانب الطريق ودفناه فيها، وما أن فرغا من دفنه حتى مرّ بهما جماعة من الحجاج وسألوا عمّن يدفنانه فقالا: "إننا ندفن الشيخ زنكي هنا، وهو رجل بار تقيّ نقيّ صاحب كرامات، وعندما وصل إلى هذا المكان شعر بدنو أجله، فطلب منّا، ونحن من اتباعه، أن ندفنه هنا وأن نبني ضريحًا ومزارًا في هذا المكان".

فما كان من الحجاج إلّا أن تبرعوا بما جادت به نفوسهم، وتكرر قدوم الحجاج وتكررت التبرعات، فبنى بها الصّديقان مقامًا على اسم الشيخ زنكي وأخذ الناس يتوافدون على زيارته وتقديم النذور إليه، فجمع الرجلان ثروة طائلة وعاشا وقتًا طويلًا بأحسن حال، ثم استأذن أحدهما رفيقه وذهب ليتفقد عائلته، وعندما رجع طلب حسابًا عن التبرّعات التي

جاءت في غيابه، وعندما اطّلع عليها أعلن شكّه بأمانة رفيق، فما كان من هذا الّا أن قال: "أقسم لك بالشيخ زنكي أنّ هذا كل ما قبضته في غيابك".

فصاح به الرّجل الآخر: "ويحك! أتقسم بالشّيخ زنكي وهو حمار ابن حمار وقد دفناه سويا ".

ذاكرة للنّسيان

لقد قضيتُ سنوات عمري وأنا أعمل في التربية والتعليم وما زلت. لا حاجة لي أن أشرح الأهميّة والحاجة الماسّة لهذه المهنة الشريفة، لا، لن أتحدث عن المعلّم ولا عن مهنة التعليم، فقد تحدثنا كثيرًا، وناقشنا كثيرًا، وتألمنا كثيرًا لما آل إليه حال المعلّمين في أيامنا.

لكن ما يقلقني مؤخرًا ويقض مضجعي هو "موضوع الذاكرة": إنّ الإنسان كائن ذو ذاكرة، ولا يمكن لحياة البشر أن تستقيم دون ذاكرة.

ففي كل أوجه الحياة تحضر الذاكرة بقوّة، تحمي الوجود الإنساني في صوره المتعددة من الضياع.... "الذاكرة عماد الشعوب"، وهناك تجلّيات عدة للتعبير عنها: التّراث، العادات والتّقاليد، الحكايات، الأساطير، الآداب، الفنون...الخ

الذاكرة لا تقتصر على الماضي فحسب، ولكنها آنية وهي أداة ضبط لسلام الفرد الداخلي وتصالحه مع الذات، وعندما يفقدها الانسان يتيه، وهي تساعده في توجيه بوصلته في المستقبل.

من هنا نتساءل: ما هي الذاكرة التي نتركها لأولادنا وبناتنا؟ وما هو الإرث الفكري والحضاري والفنّي والتراثي الذي نتركه للجيل القادم؟ وهل الجيل القادم معني ومهتم بما ننوي أن نتركه له؟!

للأسف لست متفائلًا في جوابي عن هذا الموضوع، وأنا أرى اهتمامات أولادي وأبناء جيلهم تتّجه نحو مناحٍ مختلفة غريبة ودخيلة على مجتمعنا العربي وعلى عاداتنا وتقاليدنا، فلا أرى أنّ أولادنا يهتمّون بالقراءة والآداب.

لقد ترك لنا آباؤنا وأجدادنا الكثير في هذا المجال، فقرأنا كل من نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وغسان كنفاني...، فعرفنا منهم الواقعية ومعاناة مجتمعاتنا وشعوبنا.

كما عرفنا " المتنبي، وأبو النواس، وهارون الرشيد، والفرزدق، والأخطل، وجرير"، وترعرعنا على اشعار "عنترة بن شداد وامرئ القيس، وبكينا مع الخنساء على أخيها صخر، وتألمنا على الحسن والحُسين، وتغزّلنا مع بني عذرة ومجنون ليلى، وأبهرنا حب عمر بن أبي ربيعة واستغربنا جرأته ووقاحته".

كما وعِشنا بطولات الملك "سيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي، والمهلهل وكليب، وحرب داحس

والغبراء، ومعارك البسوس والشاطر حسن، وغزوات خالد بن الوليد، وعدل الفاروق عمر، وتواضع عمر بن عبد العزيز، ولومنا بني أمية، وأبا لهب وامرأته حمالة الحطب، وأحببنا آل البيت، وتضامنّا مع سيدنا علي بن أبي طالب، وندبنا يوم أُحد حتى كدنا نشارك المسلمين في حربهم مع الكفار، فتعلّمنا التضحية والوفاء والعطف ومساندة الضعيف".

ومع ذلك لم ننسَ الفن والفنانين، فطربنا لسماع آهات" ام كلثوم" وعزف عود "فريد الأطرش" وقراءة الفنجان عند "عبد الحليم حافظ" وأخذتنا "أسمهان" الى عوالم خارج مخيلتنا في ذلك الوقت، وقضينا معها "ليالي الأنس في فيينا" وشربنا معها قهوتها في أغنية "أهوى" كما متّعنا محمد عبد الوهّاب بألحانه وأغانيه، فركبنا "الجندول" وزُرنا "الكرنك" وتساءلنا "كل ده كان ليه". منهم تعلّمنا نقاء الحب وصفاء النيّة، وأنّ الحب يبقى خالدًا مهما تغير وتجدد الزمان والمكان.

وجلسنا معًا، أيام الجمعة، نُشاهد حكايتنا وهموم شعوبنا العربية ،من خلال أفلام "فؤاد المهندس وشويكار"، وضحكنا مع "إسماعيل ياسين" و"غوار الطوشة" و"أبو عنتر "ورددنا "ياموووو يا ست الحبايب يامووو"، وعلت ضحكاتنا عاليًا مع "عادل إمام "ومدرسة المشاغبين" و "شاهد ما شفش حاجة"، وتخيلنا أنفسنا أبطالًا وفتوّات من خلال معارك فريد

شوقي وتوفيق الدقن ومحمود المليجي، واستعدنا شبابنا من خلال شخصيات "رشدي أباظة "و"كمال الشناوي" و"فاتن حمامة "و"عمر الشريف" و"سعاد حسني" وغيرهم من عمالقة الفن والتمثيل في زمن البراءة والسذاجة.

ولكننا لم ننسَ أن نكون أطفالًا، فجلسنا إلى "جدّاتنا " واستمعنا إلى قصصهن عن "جبينة" و "سندريلا " و "ليلى الحمرا" و "نص نصيص" وغيرهم، أصغينا وأشغلنا فكرنا وخيالنا، فبنينا قصورًا وقلاعًا، ولعبنا كثيرًا وركضنا أكثر، خرجنا صباحًا لنعود مساءً بعد استجداء ووعيد أمهاتنا، عُدنا متّسخين ملطّخين بالوحل والطين وجملة أمهاتنا المعهودة: "على الحمام دغري".

فلعبنا "الزقطة" و "الغمايّة" وتمزقت بنطلوناتنا عند الركبة من كثرة الركوع في لعبة "البنانير" أو "الجلول"، وخرجنا لصيد العصافير، ونصبنا فخاخنا وعُدنا في جعبتنا بعض العصافير و "الحيايا" وبعض الجراذين والسحالي.

مع كل هذا لم نهمل دروسنا، فجلسنا، على مضض، نحفظ القصائد والمحفوظات وتقوم أمهاتنا "بتسميعها" لنا، ونقوم بتأديتها في اليوم التالي أمام المعلّم والطّلاب، بعضنا يجيدها والبعض الآخر يرددها على أنغام عصا المعلّم، فحفظنا الشعر وتبارينا به، ومثّلنا المسرحيات وأدّينا أدوار " قيس بن الملوّح"

و"ليلى العامريّة"، و"أشعب وجُحا "و"أبو القاسم الطنبوري" وغيرهم من الشخصيّات الخرافيّة الأسطوريّة التي لا زالت أصداؤها تتردد في أذهاننا. "كل هذا بدون دروس ومعلمين خصوصيين ولا برامج مساعدة وتقوية".

كما حفظنا الآيات القرآنية القصيرة منها والطويلة، وأبهرتنا قصص الأنبياء والرسل والصحابة والأولياء الصالحين.

خرجنا في رحلاتنا السنويّة متحمّسين، وانضممنا إلى الحركة الكشفيّة ونمنا في الخيام وعلى الحجارة والصّخور، وأكلنا علب السردين وأرغفة الخبز الكبيرة. لم نحلم بفندق أو طائرة أو "بوفيه" مفتوح ولم نتسوّق في عواصم العالم، بل كانت أقصى مُتعتنا أن نعرّج إلى مدينة الناصرة، لشراء الحلويات من محلات "المحروم" و "المختار"، من كنافة وبقلاوة وعش العصفور".

هذه هي ذاكرتنا، وما زلنا نراها أمامنا كل يوم: ذاكرة مليئة بالقيم والأخلاق والمروءة والنخوة والوفاء والسذاجة والبراءة، وغيرها من القيم التي يفقدها أولادنا ونتنازل عنها يومًا بعد يوم. آه أخذني الحماس حتى نسيت طرفتنا الأسبوعيّة:

"أرسل قرويٌّ ابنه إلى المدينة ليتعلم فيها، فانخرط الولد في إحدى الفرق الموسيقيّة وأهمل دروسه، ولم يتعلم سوى التزمير بالمزمار.

عاد الولد أخيرًا إلى قريته ومعه المزمار، وجلس قبل المساء على شرفة بيت أبيه، وأخذ يلعب على المزمار، فأقبل إليه بعض الفتيان مُعجبين، ثم كثر عدد الزائرين، فقال أبوه: " ضمنّا مستقبل الصبي وأصبحنا من الوجهاء" أخذت حفلات الزمار تتكرر كل مساء، وتزايد عدد القادمين، فقلقت أفكار بعض وجهاء القرية الآخرين، فاقترح أحدهم أن ينافسوا الصبي وأباه وقرروا أن يلملموا أولادهم وأن يشتروا "دربكّة".

وذهب في اليوم التالي أحد رجال القرية إلى المدينة واشترى "دربكّة" وبدأ في الحال تصريف الأعمال: فإذا هبّ هؤلاء إلى التزمير ردّ عليهم أولئك بالضرب على "الدربكّة" – وما برد الرّطل إلا رطل ووقية....

ولم يمض سوى قليل من الزمن، حتى تشيع نصف أهل القرية إلى حزب الدربكّة والتحق الآخرون بفريق المزمار، وتعطّلت مصالح القرية...

رجل واحد لم ينجرف في تيّار الدقّ والتزمير وبقي على الحياد، فحاد عنه الجميع ونبذوه وتهجّموا عليه بعنف: "يا معنا يا علينا"، فعاش الرجل وحيدًا حتى خشي أن يموت مكسور الخاطر، وفي صباح يوم: شوهد الرّجل يشدّ طبلًا على تارّة غربال عتيق فسألوه: "شو صار حتى قررت أن تصير طبّالًا،

في آخر الزمان؟"، فقال: "إن جنّوا ربعك، عقلك ما بينفعك".

فَذكّر إنْ نفَعَت الذكرى...

"سبايا العرب"

لقد عرف كل من يتابع مدوناتي الأسبوعيّة، أنني لم أكتب مدوّنة هذا الأسبوع، كان الأمر عبارة عن استراحة قصيرة، وذلك لأن الكتابة الأسبوعيّة متعبة ومرهقة، فما أن أنتهي من مدوّنة حتى أبدأ بالتّفكير بموضوع جديد لمدوّنة جديدة، وهذا بحد ذاته مُتعب ومُرهق، ناهيك عن اختيار موضوع جديد وشيّق، والبحث عن طُرفة مناسبة، لذلك فضّلت ألّا أكتب هذا الأسبوع، من مُنطلق أنه يفضّل عدم الكتابة إذا لم يكُن هناك موضوع يستحق التّطرق إليه.

أو كما علّقت لي زميلتي حنان: "استراحة المفكّر لانطلاقة أقوى، خير من كلمات بالهواء"، طبعًا إنني أوافقها القول، باستثناء أنني "مفكّر" فهذه كلمة كبيرة ومسؤولية أكبر وأنا لست كذلك.

أعترف أنني قد تفاجأت من الرسائل التي تلقيتها والتي تتساءل وتستهجن عدم وصول المدوّنة الأسبوعيّة، وانهالت التساؤلات حول الأسباب لذلك! فكان جوابي مراوغًا حيث نَسبْت السّبب للحرب الأوكرانيّة الروسيّة من جهة واحدة، وللجفاف الفكري من ناحية أُخرى..

لم يدُم صمتي أكثر من 24 ساعة، فقد تم استفزازي بصورة كبيرة ممّا جعلني أخرج عن صمتي...

بالطبع تتساءلون ما الذي استفزّني؟ لا لا لم تستفزّني الحرب رغم الإحباط والاكتئاب الذي يرافق أحداثاً من هذا القبيل، فالتأثير مُباشر على كلّ واحد منّا، ليس فقط من النّاحيّة الإنسانيّة والسياسيّة، فويلات الحرب هي من أسوأ ما يُمكن أن تتعرّض إليه البشرية، ناهيك عن التأثيرات الاقتصادية المرافقة لذلك، من غلاء بأسعار الوقود والبنزين وهبوط في أسواق الأسهم والبورصات العالميّة، بالإضافة إلى زيادة عدد اللاجئين الذين يُضافون إلى الأعداد الهائلة والمتزايدة بأرجاء العالم ، كلّكم تعرفون هذا، ولكن ما أثار استفزازي واشمئزازي في آنٍ واحد هو قضيّة "الفتيات الأوكرانيات"، حيث اشتعلت منصّات التواصل الاجتماعي بأخبار الفتيات، اللواتي سرعان ما سيصبحن متاحات لشبابنا اللاهثين وراء تطبيق عادات آبائنا العرب القدماء الذين طالما نادوا "بإكرام الضّيف وإغاثة الملهوف"، بالطبع أنتم تعلمون جيدًا سُخريتي من الموضوع فنحن لسنا كذلك وما هذا إلّا شعارٌ أجوف أكل الدّهر عليه وشرب.

حسب توقعات شبابنا وتقديراتهم وتحليلاتهم العسكريّة فإنه في حالة خسارة روسيا الحرب، فسيحصل كل شاب عربي على

سبع فتيات روسيّات، وأما إذا خسرت أوكرانيا، وهذا هو الاحتمال الأكبر، فإنّ كل شاب عندنا سيحصل على أربع فتيات أوكرانيّات، وإذا نظرنا إلى النتيجة من جميع النواحي فإننا نخرج بربح كبير بأقل تكاليف.

هذه ليست المرّة الأولى أو الوحيدة التي نواجه فيها هذا الواقع، ففي سنوات الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، ونتيجة لانهيار الاتحاد السوفياتي، تعرّضت البلاد إلى هجرة كبيرة من روسيا وازدانت البلاد بكمٍّ هائل من الفتيات الشقراوات ذوات العيون الزرقاء، الفقيرات على الأغلب، الباحثات عن "العطف والحنان" والدعم المادّي، ممّا أدى إلى موجة من الزّيجات المختلطة التي تهدف إلى "تحسين النسل"، "وتطعيم سلالاتنا"، الغالب عليها البشرة الشّرقيّة السمراء، بنفحات رطبة من رياح سيبيريا الباردة.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد اشتعلت الحرب الأهليّة في الدول الساعية للحصول على الاستقلال نتيجة انهيار دولة "يوغوسلافيا" الكبيرة ونشوء دُويلات صغيرة، فاشتعلت الحرب الأهليّة بين "صربيا المسيحيّة وكوسوفو والبوسنة، المكتظتين بالسكّان المسلمين، وبدأ التطهير العرقي ضد المسلمين، فهرع شبابنا وأفصحوا عن نواياهم الشّريفة بإغاثة الفتيات المسلمات في البوسنة، "فليس من المعقول لا دينيًّا ولا

اجتماعيًّـــا، أن تبقـــى فتيـــات المســـلمين بـــدون أزواج يرعـــوهنّ ويـــدافعون عـــن حقـــوقهنّ ويتركـــوهنّ عُرضـــة للمخـــاطر والمتاعـــب المترتّبة عن الحرب"، كما ادّعوا....

وهـــا هـــو المسلســـل يســـتمر اليـــوم مـــع الفتيـــات الأوكرانيـــات! مـــا الـــذي يحـــدث لشـــبابنا عنـــدما تتعـــرض الشـــقراوات للخطـــر؟ هـــل مـــا زلنـــا نعـــاني مـــن عُقـــدة الفتـــاة البيضـــاء الشـــقراء ذات العينـــين الزرقـــاوين؟ مـــاذا لـــو كانـــت الحـــرب في الصّـــومال، هـــل مـــا زلنـــا نرغـــب في مســـاعدة "وإغاثـــة" الفتيـــات المســـكينات؟ الجـــواب بالطبـــع لا، فـــنحن نســـعى بكـــل قـــوانا إلى تحســـين نســـلنا وتغيـــير "ألوانـــنا" لنصـــبح "متلـــوّنين" ونواكـــب شـــعوب أوروبا المتقدّمـــة، أم مـــا زلنـــا متـــأثرين بحيـــاة الســـلب والنهـــب والغـــزوات والسّـــبايا مـــن الفـــترة الجاهليـــة، هـــل للأمـــر علاقـــة بكوننـــا مســـلمين ولـــدينا الخيـــار في تعدد الزّوجات؟ مثنى وثلاث وربا ع؟

باعتقـــادي، ومـــن خـــلال أحاديـــث داخليّـــة رجاليّـــة، فـــإن الكثـــيرين مـــن الرّجـــال يرغبـــون بالـــزّواج مـــن أكثـــر مـــن امـــرأة واحـــدة، ولكـــنّ الأغلبيـــة لا يســـتطيعون ذلـــك، إمّـــا خوفًـــا مـــن زوجـــاتهم، أو لمنـــع القـــانون لتعـــدد الزوجـــات، وإمّـــا لأســـباب اقتصـــاديّة، فمـــن منّـــا يســـتطيع اليـــوم أن يفـــتح بيتًـــا اضـــافيًا ويتحمّـــل تكـــاليف الـــزّواج الباهظـــة الـــثمن؟ مهمـــا كـــان الأمـــر ومهمـــا كانـــت الأســـباب، فـــأنا أعتقـــد أنـــه مـــن العـــار علينـــا ومـــن العيـــب أن نقـــوم بالحـــديث عـــن

هذا الموضوع وبهذا الشّكل حتى ولو مُزاحًا، فنحن شعب عانى وما زال يُعاني من التّهجير، والتشريد، والحروب الأهليّة، والاستعمار.... الخ

النكات حول ما يجري في أوكرانيا والاستهزاء بآلام الناس، كالاستعداد لاستقبال الحسناوات الأوكرانيّات وما إلى ذلك، تعبّر عن انحطاط أخلاقي وإنساني، بل وديني....

لاحول ولا قوة الا بالله صارت مصائب الناس ماده للتسلية والدّعابة، يا عيب العيب...! هذه حرب وتشرّد وموت، وأناس أبرياء واطفال وشيوخ، وأناس سوف تفقد أحبابها وعائلاتها هي ليست مادة للسخريّة والمزاح "علينا أن نحتضن هذه الشّعوب وأن نقوم بمساعدتها قدر امكانياتنا" ، وأن نأخذ الموضوع بجديّة كبيرة وألّا نعرض الأمر بالصّورة السّاخرة التّي يقوم بعض الأشخاص بعرضها في منصّات التّواصل الاجتماعي، حتى لو كان الأمر مُزاحًا، تخيّلوا لو كان الأمر عكسيًا، وقام شباب أوروبا بالتطّرق إلى أزمة شعوبنا وضائقة نسائنا بالصّورة التي تتعرض لها الفتيات والنساء الأوكرانيات، وعرضها كسلعة رخيصة للبيع، كمزاد لمخلفات الحرب، ماذا كنّا سنشعر وكيف كنّا سنتعامل مع الموضوع؟ لا اعتقد أننا سنكون متسامحين بذلك.... وهل يُمكن أن تخلو مقالتنا من طُرفة:

حَـطَّ الـدّهر يومًـا بجُحـا، وكـان لـه دالّـة علـى سـلطان ذلـك الزّمـان، فطلـب جُحـا منـه أن يعمـل لـه " تنفيعـة" إسـوةً بسـائر رجال البطانة.

ولمـا كـان بعـض الأنصـار والأعـوان قـد هيمنـوا علـى أكثـر المرافـق، لـذلك تمـنّى جُحـا علـى السّـلطان أن يستصـدر لـه "فرمـانًا" يخوّلـه بموجبـه أن يسـتوفي حمـارًا مـن كـل رجـل يثبـت عليـه أنـه يخـاف مـن زوجته.

وهكـذا كـان وحمـل جُحـا الفرمـان وراح يطـوف مـن مكـان إلى مكـان، وكـان كلّمـا حَظِـيَ برجـل ثبتـت عليـه تهمـة الخـوف مـن زوجتـه غرّمـه بحمـار- بموجـب أحكـام الفرمـان- حـتى جمـع عشرين حمارًا عاد بها حامدًا شاكرًا.

وعنـدما علـم السّـلطان بعـودة جُحـا اسـتدعاه وسـأله عمّـا سمـع ورأى من أحوال الرعيّة في رحلته "الحماريّة".

فشـرع جُحـا يـروي علـى مسـامع السّـلطان مـن مشـاهدات ومـا سمـع مـن أخبـار وإشـاعات، إلى قـال: "ورأيـت مـن جملـة مـا رأيـت، يا سـيّدي السّـلطان، علـى شـرفة أحـد البيـوت في شـارع البيلسـان، فتـاة، سـبحان الـذي براهـا، وجـه جميـل وطـرف كحيل وثغـر مثـل السلسـبيل، فتمنيّـت أن تضـمّها إلى حريمـك، لتسلّيك وتحلّيك وتدفّيك وتجدد لك بهجة شبابك.... الخ".

فصـاح بـه السّـلطان "كفـى، كفـى لـئلّا تسـمع الملكـة كلامـك فيتعكّر صباحنا وصباحك!".

فتنـاول جُحـا الفرمـان مـن عبّـه، وقـال: "وعليـك حمـار، يا سـيدي السّلطان بموجب هذا الفرمان".

شُكرًا رمضان

– شكرًا رمضان الفضيل، شكرًا رمضان الخير والبركة، شكرًا رمضان المحبّة والإخاء، شكرًا رمضان فمنك تعلّمت الكثير الكثير:

– شكرًا رمضان، منك تعلّمت أنّ العادات التي اكتسبناها في فترة "الكورونا" لم تكُن حدثًا عابرًا أو مُؤقّتًا، فما زِلنا مُنغلقين على أنفسنا بعض الشّيء، فقد تقلّصت " عزوماتنا" ودعواتنا واقتصرت على الأقارب المقربين جداً وعلى من لا مفرّ منهم، انطوينا على أنفُسنا، وقَلَّ خروجنا من البيت إلّا للضّرورة القصوى.

– شكرًا رمضان، منك تعلّمت أننا استغللناك للنّوم الطّويل في النّهار والرّاحة والكسل، والسّهر الطّويل حتى ساعات الصّباح الباكر....

– شكرًا رمضان فقد ''تزهَّدَ" أبناؤنا عن المدارس، فتركوا مقاعدها ليلتحقوا بأترابهم للسّهر ليلًا والنّوم والكسل نهارًا.....

– شكرًا رمضان على المأكولات الشّهيّة الرّائعة وعلى التّشكيلة والتّنوّع الكبير في الأطعمة العربيّة والتّركيّة والأوروبيّة،

ناهيك عن الحلويات والحلوى السّورية والتّركيّة من "كنافة وكُلّاج وفطائر وقطايف"...

- شكرًا رمضان ففيك أخذتنا زوجاتنا وأمّهاتنا في جولةٍ طويلة في مطابخ العالم مأكولاته الشّهيّة، في مشوارٍ دام شهرًا إلّا بضعة أيّام، (في الأسبوع الأخير خارت قوى النساء)، فيه عُدنا إلى الأكل السّريع "كالبيتزا والشنيتسل والبرغر والسّوشي" في بعض الأحيان، ورجعنا في هذا الأسبوع لنرتاد المطاعم فتزاحمنا على أبوابها لنأكل الطّعام الجاهز، الأقل جودة عمّا عهدناه في بداية الشّهر، وذلك إرضاءً لزوجاتنا الطّالبات للرّاحة والابتعاد عن المطابخ والطّناجر، وأصوات الصّحون، والملاعق، والسّكاكين.

- شكرًا رمضان على بضع الكيلوغرامات التي تراكمت على أجسادنا لتزيدنا "وقارًا" و "وجاهةً"، كيلوغرامات التي سببها الكمّ الهائل من القطايف ذي اللون الذهبي المحشي بالجبنة أو بالجوز لتلبية أذواقنا المختلفة المتنوعة...

- شكرًا رمضان لأنك ستجعلنا نعود لممارسة الرياضة والمشي للتّخلّص من كميّات السكّر والدُهنيّات التي دفعنا الغالي كي ندخلها إلى أجسادنا، بعضنا رغبةً منه، والبعض الآخر مجاملةً لأصدقائنا وأقربائنا حتى لا يحبطوا، نتيجة رفضنا لتجربة مأكولاتهم التي دعونا إليها، ولم يبخلوا علينا بشيءٍ منها....

- شكرًا رمضان، من قلوب أخواتنا، على زياراتنا لهنّ في العيد، ولو كانت زيارات خاطفة قصيرة، رفعنا فيها العتب عن أنفسنا وجبرنا خواطرهنّ ببعض "الشواقل" الزّرقاء منها والصّفراء والتي لم يؤثر عليها ارتفاع الأسعار أو التضخّم المالي في الأسواق المحلّيّة، فحافظت على قيمتها وبقيت كما هي منذ عشرة أعوام أو أكثر.

- آآآه كم اشتقنا لدعوات أخواتنا لنا بطول العمر وسعة العيش وأمنياتهن أن نبقى سندًا لهنّ ونبعًا من الحنان لا ينضب أبدًا...

- شكرًا رمضان على الفرصة التي منحتنا إياها، لنوسّع آفاقنا ونطوّر معلوماتنا الاجتماعيّة والدينيّة والتّاريخيّة، من خلال المسلسلات التلفزيونيّة المختلفة والمتنوّعة، التي ارتقبناها على أحرّ من الجمر والتي جعلتنا ننشّط أصابعنا ونعيد لياقتها، نتيجة لتنقلنا بين المحطّات العربيّة الكثيرة، بحثًا عن برنامج "رامز" ومقالبه مُظهرين اشمئزازنا منه ومن محتواه، ورغم ذلك نعود لمشاهدتها في اليوم التالي لتأكيد استيائنا منه ومن ضيوفه...

- شكراً لرمضان هذه السنة فقد كنت خفيف الظّل، سريع الخطو، بعيد الأثر فينا وعلينا.

هل يمكننا استقبال العيد بدون طرفة نختتم بها مدوّنتنا؟

دخل عيد الفطر وجُحا في الطّابق العلويّ من منزله، فطرق بابه أحد الأشخاص، فأطلّ جُحا من الشّباك فرأى رجُلًا غريبًا فبادره بالسّؤال: ماذا تريد؟

فقال الرّجل الغريب: انزل إلى تحت لأكلّمك، فنزل جُحا مُتعِضًا، فقال الرجل: أنا فقير المال، وأُريد حسنةً يا سيدي...! فاستشاط جُحا غضبًا منه، ولكنه كتم غيظه وقال له: اتبعني...، وصعد جُحا إلى أعلى البيت والرّجل يتبعه، فلمّا وصلا إلى الطّابق العلويّ التفت إلى السّائل وقال له: الله يعطيك.... فأجابه الفقير: ولماذا لم تخبرني بذلك ونحن تحت؟ فأجابه جُحا: وأنت لماذا أنزلتني ولم تقل لي وأنا فوق؟ فأجابه الفقير: ولماذا لم تخبرني بذلك ونحن تحت؟ فأجابه جُحا: وأنت لماذا أنزلتني ولم تقل لي وأنا فوق؟

دمتم ودامت أعيادكم بكل الخير...

" شوفوني يا ناس "

كنت قبل عدّة أيام بزيارة اجتماعية لقرية من القرى في ضواحي مدينة القدس، أعرف هذه القرية منذ ثلاثين سنة، حيث كانت قرية صغيرة، بيوتها بسيطة متواضعة، كم كانت المفاجأة كبيرة عندما دخلت القرية، رأيت بيوتًا كبيرة، فارهة وضخمة، رأيت "فيلات" على أحدث الطراز وأجمل التّصاميم... "فيلات" تمتد على أمتارٍ كثيرة، وتُحيط بها الحدائق من كل الجهات، إلى جانب بنايات متعددة الطّبقات، مبنيّة من أحجار القدس البيضاء منها والحمراء.

قد يرى بعض الناس في هذه الظاهرة علامة من علامات الرخاء الاقتصاديّ في البلاد، مع أننا نعرف جيدًا أنّ هذا الرخاء الاقتصاديّ هو رخاء خارجي، أي لأشخاص من خارج القرية.

لكن ليس هذا الموضوع الذي أرغب بالتحدث عنه، أنا في الحقيقة أتساءل كيف من الممكن العيش في هذه البيوت الكبيرة الضّخمة مع حالة التفكك الأُسريّ والعائلي وقلّة الضّيوف والزّوار في بيوتنا... هنا أجد نفسي أقفُ أمام اعتراف شجاع، يعود في الزمن إلى خمسة وعشرين عامًا، حيث أذكر أنّ بيتي كان لا يخلو من الزّوار والضّيوف

والأصدقاء، أمّا اليوم فكثيرًا ما أجد نفسي، بعد أن كبر أولادي، جالسًا أنا وزوجتي لوحدنا مع أننا لا نملك بيتًا كبيرًا، نجلس وحدنا بانتظار عودة أولادنا بساعة متأخرة، بينما يدخل كل منهم إلى غرفته مُنشغلًا بأموره الشّخصية....

يذهب تفكيري بعيدًا إلى عدّة سنوات إلى الأمام، حيث سيغادر الأبناء البيت الضّخم تاركين الأهل وحدهم، يعيشون بين أربعة جدران. السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا نبني هذه البيوت من الأساس، ونحن نعرف أنه لا يوجد لدينا غير ثلاثة أولاد كأقصى حد؟ الجواب بنظري أننا نبني لأنفسنا سجنًا كبيرًا نقضي به شيخوختنا ونخلّد، من خلال جدرانه شعورنا بالوحدة، في نظري، لا يوجد في هذه الدنيا أناس يسكنون في بيت حجمه 200 متر مربع، حيث أنّ نصف البيت عبارة عن " صالون وغرفة طعام" وذلك لكي يقول الضّيوف أنّ بيتهم جميل وفاخر، ولكن أين هم هؤلاء الضّيوف؟!

لماذا نحن في مجتمعنا نحب الأشياء الضّخمة، البيوت الضّخمة، السّيارات الضّخمة، هل نحاول بواسطة ذلك أن نعوّض أنفسنا عن سنوات طويلة عشناها بفقر وحرمان؟ هل نحاول أن نثبت لأنفسنا ولغيرنا أننا نعيش برفاهية ورخاء؟ انظروا مرة أُخرى إلى أعراسنا! إنّ أقل عرس عندنا لا يقلّ عن

600 مدعو طبعًا هذه الأعراس مكلفة جدًا، تبدأ من التجهيزات البسيطة مثل المصوّر والمغنّي، طبعًا قصة المغنّي قصة بحد ذاتها، حيث إننا نتنافس على سعر المغنّي، مَن مِنّا أحضر مُغنّيًا أغلى وتقاضى نقودًا أكثر، لا ينظر النّاس إلى صوت المغنّي، فالجميع يرقص! وكما قال لي عمي" عدنان " عندما تزوجت وأردت إحضار مغنٍ مكلف حينها قال لي: "يا عمي الناس دقّلهم على تنكة مخلل برقصوا عليها" آه كم صدق عمي عدنان!

طبعًا موضوع الأكل هو موضوع آخر، إذا كانت الوجبة غنيّة قال الناس: "والله حرام، كثير، مش أحسن لو أعطوه لدور الأيتام؟!" وعندما يكون الأكل قليلًا لعن الناس العريس وأبا العريس واتهموه بالبخل و"الكحتتة"، طبعًا لا ننسى فستان العروس وتوابعه من مكياج وأدوات زينة وهدايا للمدعوين.

طبعًا إذا تحدث أحد الحكماء والعقلاء منتقداً، هوجم هجومًا عنيفًا خاصةً من النساء ويتم اتهامه بالبخل على أولاده وأنه "نكد" ولا يحب الفرح....

للأسف نحن شعب نقيم الأعراس والأفراح وندعو مئات المدعوين وندفع راتب أربع سنوات لكي يقول النّاس إنّ عرسنا كان جميلًا وفاخرًا ويليق بالمقام، ويستمر العريس في تسديد ديونه ويعيش بفقر وضنك من العيش مما يؤدي إلى

الطّلاق المحتوم حيث إنّ المثل يقول: "إذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من الشّبّاك"، كذلك لا ننسى السّيارات الفخمة الفاخرة، اعتاد آباؤنا وأجدادنا أن يقولوا: "على قد لحافك مد اجريك، لم يبق لحاف يتّسع لأقدامنا فقد تفوّقنا على كل شعوب العالم، ممّا يحيّرني ويثير استغرابي، كميّة السيارات الفخمة الموجودة في قُرانا ومُدننا العربية، يا ترى من أين؟ وكيف؟ مُعظمنا لم ينشأ في عائلة غنيّة ميسورة، كلّنا أشخاص بسطاء نعيش على رواتبنا الشهريّة ولم نرث أموالًا من أهالينا..... كلمة السّر هي كلمة عبرية سرعان ما أصبحت جزءً من قاموسنا اللّغوي العربي، "ميمون" يعني تمويل، يعني بنك وفوائد عالية، يعني ربا وديون، أخبرني صديق لي لديه معرضٌ للسّيارات أنّ معظم الأشخاص الذين يشترون السّيارات بهذه الطّريقة، يضطّرون إلى إعادة سياراتهم بعد أربعة أشهر فقط من شرائها...

لا أعرف لماذا تحتاج ربّة بيت سيارة "جيب" أو "أربعة على أربعة"؟! لا أفكّر إلّا بشيء واحد هو إغاظة "سِلفتها" أو جارتها....

إننا نعيش خطأً وبخلاف طبقاتنا وقدراتنا الماديّة بدءاً من الشّخص الذي يشتري "آيفون" وراتبه لا يتعدّى خمسة آلاف

شيكل، وحتّى سيدة البيت التي تشتكي من غلاء أسعار الخضار والفواكه والأكل وتقوم برمي نصفه كلّ يوم...

نحن لسنا فقراء إنّما نحن نحب المظاهر والمناظر، دعوني أختم حديثي بطرفة علّها تخفف حدّة كلامي ونقدي:

يُحكى أنّ رجلًا من أغنياء المدينة، كانت عنده ابنة وحيدة طلب يدها شاب من عِلّيّة القوم... فقال الرجل: هذا الشّاب لا بد أنّه طامع في مالي، فرفض أن يزوجه ابنته، وبعد أن ألحّ أهل الخير في طلبها قال: "هذا الشّاب "ابن دلال" لا يعرف قيمة التّعب، أنا أريد أن أحتاط لثروتي من الضّياع، لذا اشترط عليه أن يتعاطى مهنة التّسوّل سنة كاملة ليذوق طعم العوز ويعرف قيمة المال....

وقبل الشّاب شرط الرّجل مُكرهًا وبدأ يقف على الأبواب وتعوّد أن يمد يده باستمرار أمام عابري السبيل، سائلًا عطاءهم وطالبًا لهم العمر الطّويل، ومرّت الأيام وانقضت السّنة ولم يحضر الشّاب لإتمام مهام الزواج، وراح والد الفتاة يبحث عنه حتى وجده جالسًا على الرّصيف، وأمامه صحن فخّار عتيق يستعطي فيه ويُنادي: " يا مُحسنين، لله يا مُحسنين، حسنة لوجه الله"...فقال له: ألم تفطن أن السّنة انتهت... ونحن بانتظارك..."؟ أجاب الشّاب بجدّ ورزانة: اعلم يا عم أنني تعلّمت علومًا كثيرة وحصلت على شهادات

عليا كثيرة، لكن درسًا واحدًا كان ينقصني فالنّاس يتعبون في تحصيل المال، ثم يحزنون عند انفاقه، وقد تعلّمت في هذه السّنة ألّا أتعب ولا أحزن، لأننا نحن معشر "الشحّادين"، نقبض بلا حساب ونرفع أدعية لا تُستجاب، لذلك قررت أن أتابع مهنتي هذه مدى الحياة، وإذا كانت ابنتك لا تزال ترغب في أن تكون زوجة لي، فقل لها أن تحمل صحنها وتتبعني...!

صاروخ أرض– أرض

من منّا لم يتمنَّ، عندما كان طالبًا، أن تُهدم المدرسة أو أن يتم قذفها بصاروخ أرض أرض؟ طبعًا أُمنياتنا، التي لم تتحقق، كانت موجّهة إلى أيام العُطلة الأسبوعيّة حتى لا يُصاب أحدٌ، لا سمح الله.... كم كرهنا المدرسة آنذاك! ثم كبرنا وتعلّمنا وأصبحنا معلّمين، وهُنا أيضًا كرهنا المدرسة وتمنينا أن تُهدم المدرسة مرةً أُخرى، وأيضًا في نهاية الأسبوع حتى لا يُصاب أحدٌ، لا سمح الله، فنحن في نهاية الأمر تربويون ولا نرغب بوقوع ضرر لأحد...

لا شك أنّ أولادنا يكرهون المدرسة، ولا شك أيضًا أنّ معلّمينا يكرهون المدرسة، قد يختلف معي البعض منكم، ولكن أنا اتحدث بصورة عامة، ومن خلال سنوات طويلة من العمل في سلك التعليم في المدارس ومع الطلّاب....

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هُنا: لماذا كل هذه الكراهية لمؤسسة التي من المفروض أن تكون منارةً للعلم وعنواناً للإبداع والتّطوّر والتّسامح وكل القيم والأخلاقيات التي في مجتمعنا؟

كل مدارسنا، بدون استثناء هي مدارس تحصيليّة، بمعنى أنها تضع التحصيل العلمي في المرتبة الأولى، طبعًا هذا الأمر ليس ذنب مديري المدارس أو المعلّمين. هذا الأمر له عدة أسباب

وعوامل، أولها الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي نعيشها في البلاد كأقليّة، تحتّم علينا أن نمتاز ونتميّز في تعليمنا لكي نحصل على مناصب عُليا تنقذنا من الفقر أولًا، وترفع مستوانا الاجتماعي ثانيًا، وتعزّز مكانتنا في المجتمع، وما يعزّز هذا الأمر الأهل في المرتبة الأولى الذين يدفعون أولادهم إلى التميّز وإلى التحصيل العلمي ويشكّلون ضغطًا على أولادهم وعلى معلّميهم ومدارسهم، من أكبر الاشارات لهذا الضغط الحفلات التي تُقام للأبناء الناجحين في الامتحانات أو حتى غير الناجحين منعًا من الاحراج والشماتة من الجيران والأقارب.

ضغط آخر على المدارس يتم من قبل المسؤولين، حيث تتم عمليّة تقييم المدارس ومديري المدارس حسب انجازات طلّابهم في التوجيهي أو البجروت، ضاربين بكل المعايير الأخرى عرض الحائط، من بناء الشخصيّة والقيّم والمواطنة الصالحة وبناء الانسان، فالمدارس هي مصنع للعلامات لا غير....

هذه الأمور تضغط المعلّمين، الذين بدورهم يضغطون الطلّاب، حيث يجدون أنفسهم بين مطرقة الأهل وسندان المعلّمين، ممّا يجعلهم يكرهون المدرسة ويحاولون التخلص منها بشتّى الطّرق والوسائل، ويظهر ذلك في مظاهر العنف تجاه طلّاب آخرين وتجاه المعلّمين، وفي كثير من الأحيان يعبّرون

عـــن ذلـــك بعمليّـــات التخريـــب، والتكســـير بالممتلكـــات، والكراســـي والطـــاولات، أمّـــا المعلّمـــون فتـــزداد كـــراهيّتهم للمدرســـة وقوانينهـــا، والطّـــلاب وأهلهـــم، فيكثـــر غيـــابهم عـــن الـــدّوام وتنتشـــر ظاهرة اللّامبالاة لديهم.

معظـــم مواضـــيع التعلـــيم، هـــي مـــن المواضـــيع الاعتياديّـــة الكلاســـيكيّة، مـــن لغـــة عربيّـــة وانجليزيّـــة ورياضـــيّات وغيرهـــا مـــن المواضـــيع...، الـــتي لا علاقـــة لهـــا بصـــورة مباشـــرة مـــع شخصـــيّة وأهواء الطالب...

هـــذه المواضـــيع غالبًـــا مـــا تُصـــيب الطّـــالب بالملـــل والضـــجر خـــلال الحصـــص، ممّـــا يدفعـــه إلى الانشـــغال بالأمـــور الجانبيّـــة، وبالتـــالي دراســـة هـــذه المـــواد للامتحـــان فقـــط، هـــذا الملـــل والضّـــجر يُعطـــي شـــرعيّة لعمليّـــة الغُـــش في الامتحـــانات والأبحـــاث، وفي بعـــض الأحيـــان تقـــوم بعـــض العناصـــر في المدرســـة بالمســـاعدة، ودعـــم عمليّـــة الغُـــش بِـــدءًا بالعلاقـــات المدرســـيّة، وانتهـــاءً بمســـاعدة الطّـــلاب وقـــت الامتحـــان و"تغشيشـــهم".... وهُنـــا تختفـــي الكثـــير مـــن القـــيم والسّـــلوكيات، فـــأي معلّـــم ســـيتجرأ بالحـــديث عـــن الصّـــدق والأمانـــة والأخـــلاق والاعتمـــاد علـــى الـــنّفس وعلـــى "مـــن غشَّـــنا فلـــيس منّـــا" وغيرهـــا مـــن القـــيم الـــتي طالمـــا نادينـــا وتغنينـــا بها....

لطالما ادّعيت أنّ المشكلة الأساسيّة في التعليم تعود على طواقم المعلّمين، أنا لست هنا بصدد لوم المعلّمين أو اتهامهم، ولكن لا نُنكر أنّ الكثير من المعلّمين لا يحبّون مهنة التعليم، وأنهم توجهوا إليها لأنها المهنة الوحيدة تقريبًا المتوفرة أمام الخريجين العرب.

ها نحن نرى معلمًا جديدًا لم يمضِ على تعيينه ثلاث سنوات، نرى أنه قد تآكل، وأصبح غير مبالٍ لما يدور حوله من أمور، ومن هُنا تبدأ عمليّة من عدم الثّقة بين الأهل والمدرسة بمديرها ومعلّميها...

هذه الأمور تظهر بصورة جليّة بغياب المعلّمين حيث قلّ ما تجد مدرسة بدون 5-8 معلمين غائبين يوميًا وبدون سبب يُذكر.

إنّ قضيّة الثقة بين الأهل والمعلّمين هي قضيّة مهمّة جدًا لإنجاح العمليّة التربويّة التعليميّة، أنا لدي نظريّة راسخة بهذا الموضوع وهي: " إذا أحبك الطالب كمعلم فإنّ هذه المحبّة تنتقل للأهل، وإذا كرهك الطالب فإنه ينقُل كراهيته وعدم احترامه للمعلّم، إلى أهله ".

ماذا يفكّر الأهل عن المعلّمين؟ كيف ينظرون إليهم؟ ما هي صورة المدرسة في نظر الأهل؟ الكثير من الأهل يعتقدون أنّ

المعلّمين لا يستحقون الرّاتب الذي يتقاضونه، لأنهم لا يشتغلون ولا يبذلون جُهدًا في تعليم أبنائهم، فهم لا يقومون بواجباتهم تجاه المدرسة وتجاه طلّابهم..... فالمعلّمون يتقاضون رواتب عالية بدون مبرر! وبالرّغم من ذلك يتغيّبون كثيرًا وبدون سبب وأنه لا ضمير لديهم، بالإضافة إلى ذلك فإنّ المعلّمين يقضون وقتهم بالعطل والاجازات والأعياد معظم أيام السنة، وإذا لم تكُن هناك عطلة فهناك اضراب، طلبًا لزيادة الأجور، فالمعلّمون عبارة عن مصاصي دماء، وما يهمّهم هو زيادة الرواتب، وأنّ مصلحة الطالب هي آخر اهتماماتهم، وهكذا فهُم لا يشكّلون قدوة للطلّاب ولا يقوموا بدورهم في تربية الأبناء، لأنّ معظم المعلّمين قد تم تعيينهم بالواسطة، لأنهم مقرّبون من المسؤولين لذلك فلا أحد يحاسبهم أو يقوم بطردهم....لن أُطيل عليكم الحديث فالصّورة واضحة لكم، دعوني أختتم حديثي بطرفة متحدّيًا صديقتي "سماح" التي قالت لي إنني لن أنجح في إيجاد طرفة لهذا الموضوع:

- قال غُلام للصّبيان: هل لكم أن يفلتنا الشّيخ اليوم؟
- قالوا: نعم، فقالوا: تعالوا لنشهد عليه أنه مريض.
- فجاء واحد منهم فقال: أراك ضعيفًا جدًا، وأظنّك ستُصاب بالحمّى، فلو مضيت إلى منزلك واسترحت؟
- فقال لأحدهم: يا فلان، رفيقك فلان يزعم أني مريض.

- فقال: صدق والله، وهل يخفى هذا على أحد؟ اسأل جميع الغِلمان أن يخبروك، فسألهم، فشهدوا.
- فقال لهم: انصرفوا اليوم وتعالوا غدًا.

"فيها إنَّ..."

هل سمعتم يومًا عمّا يُسمّى "بنظريّة المؤامرة"؟

هذه النظريّة متداولة كثيرًا في الكثير من الأحداث في العالم، بدءًا من تفجير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك وحتى يومنا هذا.

ومن بين الأمور التي تنصّ عليها نظريّة المؤامرة ببساطة، أن لا شيء يحدث بالصّدفة، ولا شيء يكون كما يبدو عليه، وكل شيء مرتبط ببعضه، يعني باختصار شديد هي المصطلح المتداول عند النّاس والذي نصه: "فيها إنّ...".

كلّنا نسمع بهذا المصطلح وخاصة عند حدوث أمر جلل، خاصّة بما يتعلق بالأمور السياسيّة والشؤون الدّولية، خاصة الدّول العُظمى والدّول الاستعماريّة... لكن لماذا نحن بصدد هذا الموضوع؟ ما أهميّة ذلك وما علاقته بمدونتنا اليوم؟ لماذا نشكك دائمًا في كل شيءٍ؟ لماذا نفكر بعدم نقاء نوايا الآخرين حتى في علاقاتنا الشخصية؟ لماذا لا نأخذ الامور ببساطة، ولماذا نعتقد أنّ هناك دومًا امراً خفيًّا او أيدي خفيّة وراء كل حدث؟

فكّرت مليًّا في طرح هذا الموضوع خاصّة أنني لست بصدد المدوّنات التحليليّة، عميقة الأبعاد والنتائج، إلّا أنّ الحاجة دفعتني إلى التّطرق إلى هذا الموضوع الشائك...

في الحقيقة إنّ الذي دفعني إلى خوض هذا الموضوع، هي التقوّلات والتساؤلات التي قُمنا بطرحها في مدونة الأسبوع الماضي حول التّبرعات للّاجئين السّوريين، والتّي بادر إليها فلسطينيو الداخل وأهلنا في القدس.

طبعًا كما هو معهود عندنا دائمًا، وكما يُقال "بعد أن صحونا من أثر الصدمة"، بدأت التساؤلات والشّكوك تنهال من كل حدبٍ وصوبٍ. وبدأ كمٌّ هائلٌ من الأسئلة وكلّها تثير الشّكوك حول الأشخاص القائمين على المشروع، وأكثر هذه التساؤلات يدور حول قضيّة سماح دولة إسرائيل لهؤلاء الأشخاص بنقل هذه المبالغ الطائلة إلى تركيا أو إلى سوريا، التي ما زالت تُعتبر دولة مُعادية، الأمر الذي يعاقب عليه القانون؟ ماهي مصلحة دولة إسرائيل في حدوث ذلك، وما هي المكاسب التي تسعى إليها من وراء هذا العمل؟

سيقول البعض أنّ الهدف من وراء ذلك هو توطين اللاجئين السّوريين في بيوت حجريّة، حتى لا تحدث أزمة عالميّة ومنعهم من الوصول إلى دول أوروبا التي ترزح تحت وطأة هذا العبء الثقيل.

بنظري أنّ دولة إسرائيل تسمح بذلك حتى تقول للعالم عامة وجيرانها خاصّة: انظروا كيف نحن كدولة ديمقراطية متنوّرة ومتقدّمة نسمح لمواطنينا بالقيام بأعمال خيرية، تهدف إلى مساعدة دول منكوبة، حتى لو كانت دولة عدو....

انظروا إلى التربية التي نربيها لمواطنينا (لا تنسوا أن فلسطينيي الدّاخل هم مواطنون إسرائيليون).

هل تعلمون أنّ دولة إسرائيل قد عرضت على لبنان مساعدتها في حل أزمة الكهرباء، رغم عدم وجود علاقات دبلوماسيّة بين الدولتين؟

ممّا لا شك فيه أنّ دولة إسرائيل لو رغبت في إيقاف هذه التّبرعات فإنها ستفعل ذلك بسهولة، لكن العكس هو الصحيح فهي قد سمحت وعلى مرّ السنين بإرسال هذه المساعدات، وأكثر من ذلك أنها سمحت بالماضي بنقل جرحى سوريين إلى المستشفيات الإسرائيليّة..هل تذكرون برنامج "عرب آيدول"؟ طبعًا تذكرون الفنانين الشّباب من" دير الأسد وسخنين والناصرة".... وغيرها من البلدان العربية في الداخل والذين شاركوا بهذا البرنامج وتواجدوا لفترات زمنيّة متفرّقة في "بيروت ولبنان" رغم كونها دولة عدو، هذا دليل على رِضا إسرائيل عن هذه الخطوة، بل أكثر من ذلك أنّ

أخبار هؤلاء الفنانين كانت تتصدر عناوين الصحف ونشرات الأخبار في إسرائيل.

هل رأيتم مدى تأثير وسائل التّواصل الاجتماعي على تصميم وحتى صقل الرأي العام؟

هل رأيتم كيف تجندت وسائل التواصل الاجتماعي من أجل نقل حدثِ محاولة انقاذ الطفل المغربي "ريّان" الذي وقع في البئر، وكيف حبس النّاس في العالم العربي أنفاسهم، وكيف تناقلت وسائل الاتصال الأخبارَ منذ اللحظة الأولى وانتقلت بنا خطوة خطوة، مترًا بعد مترٍ بالحفريات... وكيف هرع النّاس من كلّ حدبٍ وصوبٍ نحو مكان الحدث، ألم تروا النّساء المغربيّات بملابسهن التقليديّة وهنّ يطبخن الطّعام لفرق الإنقاذ وللنّاس؟ بالفعل "عرس شعبي" يقوم على أساس حدث مأساوي، كم بكينا عندما سمعنا خبر وفاة الفتى "ريّان"، وكم شعرنا بالغضب على الدّولة المغربيّة لأنها لم تقم بتحضيرنا نفسيًا لهذه النهايّة المؤسفة.... ومن الفتى المغربيّ انتقلنا إلى الفتى السّوري المخطوف، ومنه انتقلنا إلى حدثٍ آخر وآخر في هذا العالم الصّغير الذي أصبح في متناول اليد، أو بالأحرى في متناول العين والأذن، والسؤال الذي سيطرح نفسه هو: ماذا لو قرّرت إحدى وسائل التّواصل مثل "الفيسبوك أو التيك توك" تنصيب أحدهم رئيسًا لدولة أو

بالعكس إقالة رئيس، مثلما اتّهمت مصر قناة "الجزيرة" بمحاولة الإطاحة بحكم السّيسي في مصر، ماذا لو امتلكنا المال وحاولنا ترويج سلعة ما، أو عادةٍ ما في مجتمعنا، هل كنّا سننجح في ذلك؟ أعتقد أننا سننجح بذلك بلا أدنى شك..

لقد نجحت وسائل التّواصل في جعلنا نتجنّد لجمع التّبرّعات للّاجئين السّوريين، وجعلتنا نشدّ إزر بعضنا بعض بهذه المواقف العصيبة...

ولكن للعملة وجهان كما تعرفون، فهل سنكون في المستقبل عرضةً للابتزاز العاطفي الالكتروني؟ يعني هل سنكون، نحن الفلسطينيين، هدفًا رئيسيًا، كما هو الأمر بالنّسبة لدول الخليج، لمن يحتاج تبرعًا أو مساعدة أو دعمًا أيًّا كان؟

هل سيتوجّه النّاس إلينا من الدّول العربيّة والدّول الفقيرة طلبًا للمساعدة؟ هل "فتحنا على حالنا بابًا لن نتمكن من إغلاقه"، على قولة ستي؟ لا أستبعد ذلك أبدًا...!

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا بدون طرفة كما عودناكم:

يُحكى أنّ أميرًا كان عنده طبّاخ اسمه سرور، وكان ماهرًا وذكيًّا وخفيف دم وفي أحد الأيام قدّم سرور إلى سيده طعامًا من الباذنجان المتبّل، وعندما شرع الأمير بتناوله وجده طيبًا جدًا،

فاستدعى سرورًا وقال له: "ما أطيب هذا الباذنجان وما ألذ طعمه!"

فقال سرور: "أنّ الباذنجان هو أفضل المآكل وأرفعها قدرًا، فإن أكلته متبّلًا بقي طعمه على لسانك طول النّهار وإن أكلته مقليًا أكلت أصابعك معه، وإن أكلته مكبوسًا فهو أشهى المكابيس، وإن أكلته محشوًّا كان شيخ المحاشي".

فانفتحت شهيّة الأمير وبالغ في التهام الباذنجان، إلّا أنه بعد ساعة من الزمن عاد فاستدعى سرورًا وقال له: "ما هذا الباذنجان المنحوس الذي قدّمته إليّ، فإني أشعر بانتفاخ بطني وألم في رأسي".

فقال سرور: " الباذنجان، يا سيدي، طعام رديء، فإن أكلته متبّلًا سبب لك انتفاخًا في البطن، وإن أكلته مقليًا سبب لك تضخمًا في المصران، وإن أكلته مكبوسًا سبب لك غشيانًا في نظرك، وإن أكلته محشوًّا سبب لك أحلامًا مزعجة، وإن..." فصاح به الأمير: "ويحك أيها المنافق، منذ ساعة جعلت الباذنجان أفضل المآكل، وها أنت الآن تذمّه وتجعله أساس كل العلل".... فأجاب: "العفو يا سيدي، فأنا عبد سعادتكم، لا عبد سعادة الباذنجان، لذلك فأنا أتكلم بما يلائمكم لا بما يلائم مصلحة الباذنجان".

أرجـــو ألّا يكـــون نصـــيبنا في الـــدنيا، نحـــن الفلســـطينيين، مثـــل نصيب الباذنجان مع الأمير.

"كأسك يا وطن"

يؤسفني أن أُخيّب ظنّكم، فأنا لن أتحدث عن مسرحية "كأسك يا وطن" وهي مسرحية اجتماعية سياسية كوميدية سورية، بطولة الفنان دريد لحّام (الذي كان يعرف باسم غوار الطوشة)، وتعتبر من أشهر المسرحيات الكوميدية العربية الناقدة والهادفة والتي حققت نجاحًا كبيرًا في حينه (العرض الأول عام 1979) ...

لقد تذكرت هذه المسرحية حين استوقفني قولٌ لأحد أشهر الصحفيين في العالم، وهو الصحفي "روبرت فيسك" والذي كان يسكن في بيروت، حيث كان مراسلًا لصحيفة "الاندبندنت" البريطانية.... لقد استوقفني قوله: أتعلمون لمَ بيوت العرب في غاية النظافة بينما شوارعهم على النقيض من ذلك؟!

السبب أنّ العرب يشعرون أنهم يملكون بيوتهم لكنهم لا يشعرون أنهم يملكون أوطانهم! هل بالفعل نحن لا نملك أوطاننا؟

يعدّ العرب من أكثر الشعوب تغنّيًا بالأوطان من خلال أشعارهم الحديثة وكتاباتهم وأغانيهم في جميع المحافل الاجتماعية وحتى بالأعراس والمناسبات السعيدة، اذا كان

الأمر كذلك فلماذا كعرب، يطمح شبابنا في الهجرة إلى خارج البلاد، وتكون هذه أمنية الشباب الأولى وقمة طموحهم حتى قبل أن يبلغوا سن الرشد؟! كلّنا نذكر قوافل المهاجرين وطوابيرهم الذين ركبوا البحار والفيافي هربًا إلى مدن أوروبا الباردة طقسًا وروحًا...

لماذا أصبحنا نخاف من أن نذكر كلمة وطن ونرى أنها قد حذفت من قاموس أولادنا، لماذا نكثر من التغنّي بالأوطان ونهرب منها؟ هل بالضرورة أن يمر تحقيق وبناء الأوطان بالسجون والمعتقلات؟

قد أكون انحرفت كثيرًا عن العنوان وعن المقولة، ولكن كل هذه التساؤلات خطرت ببالي عندما استذكر كلمة "الوطن"، لا أنكر أنني حاولت أن أبحث عن مصطلح "الوطن" في الدّين إلّا أنني لم أجد شيئًا يُذكر لهم إلّا موضوع هجرة الرسول "عليه الصلاة والسلام" من مكة إلى المدينة، حيث سُميّ الوطن باسم "الديار"... هل معنى هذا أنّ مصطلح "الوطن" هو مصطلح غربي استعماري دخيل؟ كل هذه التساؤلات تدور بمخيّلتي ولا أجد لها جوابًا شافيًا، أو أنني لا أرغب في الإجابة عنها ومواجهتها.

لكن تبقى الجملة التي تقول إننا لا نملك أوطاننا، أذكر أنني عندما كنت مديرًا لمدرسة بيت صفافا، قمت بشراء عددٍ من

الطـاولات والكراسـي مـن ميزانيـة المدرسـة، وذلـك لسـد الحاجـة الماسّـة الناتجـة عـن تكسـير الطـلّاب المتعمّـد للكراسـي والطـاولات ممّـا اضطـر لشـراء المئات منهـا، وقـد قمـت مـع مـربّي الصـفوف بتوزيـع هـذه الطـاولات علـى الصـفوف، مـع توصـية الطـلّاب بالمحافظـة عليهـا لأنهـا مـن ميزانيـة المدرسـة وأنهـا سـتخدمهم وتخـدم اخـوتهم في المسـتقبل، وصـدف أن مـررت في اليـوم التـالي خـلال جـولتي اليوميـة علـى أحـد الصـفوف العليـا، وإذا بي أرى أحـد الطـلّاب قـد قـام بحفـر اسمـه علـى الطاولـة الجديـدة بصـورة بشـعة جـدًا مسـتعملًا مسـطرة حديديـة لـذلك: "أعـترف أنـه قـد جُـنَّ جنـوني عنـدما رأيـت هـذا المنظـر واستشـطت غضـبًا"... وعنـدما سـألت الطالـب لمـاذا قـام بـذلك، صـدمني بجوابـه إذ قـال لي: "مـاذا بـذلك؟! الطاولـة ملـك لأولمـرت" كـان (ايهـود أولمـرت) آنـذاك رئيسًـا للبلديـة... هـذه القصـة رمزيـة لمـا نشـعر بـه تجـاه أوطاننـا وأملاكنـا العامـة، فـنحن نخلـط مـا بـين الـوطن والحكومـة أو البلديـة، فـالوطن هـو ملـك للحكومـة ، وعليـه فإننـا نتعامـل مـع أوطاننـا كمـا نريـد أن نتعامـل مـع الحكومـة الـتي قـد تكـون ظالمـة أو غـير مُنصـفة، فيقـوم الشـباب بتخريـب الممتلكـات العامـة مـن حـدائق ومقاعـد ومحطـات "باص" وغيرهـا مـن الأمـور، ويقومـون بخلـع الأشـجار والأزهـار مـن المتنزهـات انتقامًـا مـن "اليهـود"، حـتى لـو كنّـا نسـكن في قريـة نائيـة لا يـدخلها أحد ولم يرَ أهلها يهوديًا في حياتهم...

لنكن صرحاء مع أنفسنا، نحن نأخذ الحاكم والحكومة شمّاعة نعلّق عليها أخطاءنا، لأننا نحن المستهلكين لسياسات حكوماتنا، نحن عبارة عن نسخة مصغّرة من حكوماتنا التي ندعي عليها بالهلاك... نطالب بالحريّة وبداخل كل واحد منّا دكتاتور صغير، نطالب بالعدل وإعطاء الحقوق ونحرم بناتنا واخواتنا من الميراث، نخرج لنسهر مع أصدقائنا ونحبس زوجاتنا في البيوت، طالبنا بحقوقنا، ولكننا نسينا واجباتنا...هل يوجد حل لهذه المعضلة؟ كيف ومتى؟ أنا متفائل جدًا بإيجاد الحل.

لقد بدأ شبابنا بالاعتياد على الحياة الجميلة واعتادوا على السفر، كما اعتادوا على الدخول إلى النوادي والاطارات اللامنهجية وزيارة المتاحف والمعارض، كما أنني أراهم يندمجون أكثر وأكثر بأعمال التطوع والعمل الجماهيري، حتى لو اقتصر الأمر على تنظيف المقابر والمساجد فهذه بداية مباركة وإيجابية...

لذا فإن الحل هو التربية، التربية للقيم والأخلاق، التربية للمساهمة في بناء المجتمع والوطن، فكما قال القائل:

"الانسان لا يحتاج إلى شوارع نظيفة ليكون محترمًا، بل الشوارع تحتاج إلى أناس محترمين لتكون نظيفة.

"لكل أمرئٍ من اسمه نصيب"

قبل عشرين عامًا، رُزقت بتوءَم من الأبناء الذكور، الحمد لله على عطائه اللامتناهي، فقد وُلدوا بصحة وعافية، ولأني أحب وأعشق الشاعر السوري "نزار قباني" فقد قررت أن أُسمّي ابني البكر على اسمه "نزار"، وهكذا أصبحت فعليًا "أبا نزار".

ولكن في خضم الولادة والجلبة نسينا ابننا الثاني الذي بقي بدون اسم حتى اللحظة الأخيرة، وفي هذه الحالة تكثر الاقتراحات وتعلو الأصوات من كل حدبٍ وصوبٍ بين مؤيدٍ ومعارضٍ، وهنا وانطلاقًا من إيماني العميق بمبدأ المساواة بين الزوج والزوجة!!

فتحت المجال لزوجتي لتقترح اسمًا لابننا الثاني، زوجتي اقترحت أن ندعوه باسم "نديم" معللة ذلك أن الاسم ذو وقعٍ جميل وسلس، سهل اللفظ والايقاع، هنا استيقظت لدي حميتي وغيرتي على اللغة العربية وسألتها مستهجنًا: "هل تعرفين معنى الاسم نديم؟"

فأجابت بالسلب والنفي!

عندها قلت أنّ الاسم "نديم" هو اسم قديم ومعناه الصديق، وأي صديق! صديق الشرب، طبعًا ليس شرب العصير إنّما شرب الخمرة والمدام" وهذا ما لا يعرفه الكثير من المسلمين الذين سمّوا أولادهم بهذا الاسم" طبعًا زوجتي عدلت عن اقتراحها وسمي ابننا الثاني "بشّار".

من الجدير بالذكر أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قام بتغيير اسم العديد من الصحابة لأسماء تحمل معاني أفضل وأنبل.

- اعتاد العرب قديمًا أن يسمّوا أولادهم بأسماء تحمل الرعب ليدّب الخوف في قلوب أعدائهم من القبائل الأخرى التي كانت تتعارك معهم ليس في ساحة المعركة فقط، بل في ميادين الشعر والخطابة أيضًا، فسمّوا أبناءهم بأسماء مثل: كُليب – أسد – ذئب – سيف – معاوية.
- أمّا في أيامنا هذه فقد انقلبت الآية وأصبحنا نختار لأبنائنا أسماء ناعمة لطيفة غير معروفة أو مسبوقة، حتى لو كان فيها أحيانًا نوعًا من الميوعة "والمياصة".

وممّا لا ينتطح فيه عنزان أنّ من حق الولد على أبويه أن يسمياه اسمًا حسنًا، وقد جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطّاب يشكو إليه عقوق ابنه، فاستدعى عمر الابن، ولما مَثُلَ بين يديه سأله: "لماذا عققت أباك أما علمت أنّ له عليك

حقوقًــا؟!" فقــال الابــن: "قــد علمــت يا أمــير المــؤمنين، ولكــن أليســت لي حقــوق علــى أبي؟!" فقــال لــه عمــر: بلــى، حقــك عليــه أن يختــار لــك أُمًّــا لا تعــيّر بهــا، واسمًــا حســنًا، وأن يؤدّبــك ويفقّهــك! فقــال الابــن: أمّــا أبي فقــد اختــار لي أمًّــا أَمــة (يعــني جاريــة)، فــأنا أُعــيّر بهــا، وقــد سمّــاني جُعــلًا، والجُعــل حشــرة تجمــع بــراز الحيــوانات وتحملهــا إلى حجرهــا، وقــد أرســلني إلى المراعــي منــذ صــغري فــلا أحفــظ قــرآنًا ولا أفقــه حــديثًا! فقــال عمــر للأب: "لقد عققته قبل أن يعقّك!".

- " لكل امرئ من اسمه نصيب"

هــذا مــا قالــه العــرب قــديمًا، هــذه الفرضــيّة الــتي يصــعب تصــديقها، جــاءت دراســة حديثــة لتثبــت صــحّتها بنــاءً علــى برمجيــات الكترونيــة نجحــت في التنبــؤ بأسمــاء أشــخاص اعتمــادًا علــى شكلهم.

توصــل باحثــون مــن عــدة دول إلى أن النــاس يشــبهون في الغالــب الصورة المرتبطة بأسمائهم.

وأكّــد فريــق البــاحثين أنّ المشــاركين في الدراســة علــى ســبيل التطــوع، صــنّفوا الأشــخاص المجهــولين بالنســبة لهــم حســب اسمهــم الصــحيح، بمعــدل مــدهش، أي أنهــم توصــلوا لاسمهــم الصــحيح على سبيل التخمين، اعتمادًا على ما يوحي به شكلهم....

يصعُب تصديق ذلك إذ إني أرى أن مصطلح "هناك دراسة تقول" هي الطريقة الأمثل لإعطاء كذبة ما طابعًا علميًا ومصطلح دراسة علمية هو أسهل طريقة لتمرير كذبة ما عبرَ إلباسها قميصًا علميًا...

من الصعب عليّ أن أصدق أنّ كل من سُمي سعيدًا هو في الحقيقة سعيد بحياته، فكثيرًا منهم تعساء بائسون، كما أنّ كريمًا قد يكون فعليًا بخيلًا لدرجة أنه لو عاش في عصر الجاحظ كان الأخير قد ألحقه في كتاب "البخلاء"، كما أن "سامح" أبعد ما يكون عن التسامح، مثلما أنّ "باسل" هو أول الفارّين من أرض المعركة، أمّا "فراس" الذي توسم أهله بملامحه الفراسة والذكاء، لا يفقه "ثلث الثلاثة كم"! كما لا ننسى أنّ بشّار الأسد لم يأتِ إلّا ببشرى الموت لأطفال سوريا، وكان أسدًا على شعبه الأعزل فقط.

بالخلاصة الأسماء لا تهُم، فرأس النفاق كان اسمه عبد الله (عبد الله بن ابي سلول)، والذي غسلته الملائكة كان اسمه حنظلة (حنظلة بن ابي عامر).

- عن الرسول –صلى الله عليه وسلم-: "انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسنوا اسماءكم".

اختم حديثي عن الأسماء بنكتةٍ، والنكتة عمومًا وسيلة من وسائل التنفيس عن المكبوت مما يعتمل داخل النفس والذي يكون كبته لأسباب إما سياسية، أو اجتماعية، أو دينية، روى ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين قال:

"كان عجل بن لجيم من حمقى العرب المشهورين، وحدث أنه كان في قومٍ تذاكروا أسماء أحصنتهم، ثم قالوا له: ما اسم حصانك؟ فقال ليس له اسم، فلمّا ألحّوا عليه بالسؤال قام إلى حصانه وفقأ عينه وقال لهم: سميته الأعور.

"يا ساتر"

كلمة "يا ساتر" كلمة طالما قيلت، حيث إننا نقولها كلّما خفْنا و"انخضّينا" أي نعم! نقولها تلقائيًا ولا شعوريًا كأنها موجودة بفطرتنا وكياننا، وكلمة "سِتْر" لها معنى خاص عند عامة الناس، فالرجل يقول عن صهره: "هذا ساتر عرضي"، وإذا تكلّم الرجل مع المرأة قال لها: "يا مستورة" وإذا تزوّجت الفتاة قيل: "أنّها انسترت".

وإذا سألنا رجلًا عن حاله أجاب: "مستورين أو ساترها الله أو مستورة الحمد لله"، كذلك عند دخولنا إلى بيت أحدهم فإننا نقول بأعلى صوتنا "يا ساتر"، لنعلن لأهل البيت عن وجودنا ليأخذوا حذرهم او استعدادهم لدخول شخص غريب إلى البيت....

كلّ ابن آدم خطّاء، وليس من أحد إلّا وله خطأ ولا يحب أن يطّلع عليه الناس، لذلك كان الستر على الناس خُلق وهَدي نبوي، فتزداد المحبّة وتحفظ الأخوة بينهم، فالمؤمن يستر وينصح، ولا يهتك ويفضح.

ونلاحظ هذه الأيام انتشار الفضائح والإشاعات على منصّات التواصل الاجتماعي، فكثيرًا ما نرى انتشار الأفلام والصور التي يظهر فيها أحدهم بأوضاع مَشينة أو أخلاقيّة....

ونـرى الخـبر ينتشـر كانتشـار النار بالهشـيم، كـذلك نـرى الـبعض يقـوم بنشـر مقطـع لحـادث طـرق مـروّع، تظهـر فيـه الضحيّة وهـو يحتضـر بينمـا يسـتلّ المـارّة هـواتفهم الخلويّـة ويبـدؤون بالتقـاط الصـور أو تسـجيل مقـاطع "مُثـيرة" ليقومـوا بعرضـها علـى المـلأ، ضـاربين بمشـاعر النّـاس وخصوصـيتهم عُـرْض الحـائط. ومـن أغـرب مـا رأيـت مـؤخرًا "طوشـة" بـين زوجـة وحماتهـا، مسـجّلة علـى "الفيسـبوك"، تتراشـق فيهـا الاثنتـان بأقـذع وأسـوأ الألفـاظ النابيـة، والكـلّ مسـجَّل وعلـى المـلأ... السـؤال الـذي يطـرح نفسـه وبقـوّة: هـل نحن شـعب محـب "للقيـل والقـال"؟ هـل نـرى بالإشـاعة طريقـة للتفريـغ؟ هـل نسـتمتع بأخبـار الفضـائح؟ الجـواب هـو نعـم... في مجتمعاتنـا القديمـة قصـص شـعبية ذات ملامـح دينيّـة ومغـاز تربويـة، ربّمـا كـان المتقـدمون يروونهـا علـى مسـامع أبنـائهم ليغرسـوا بـذور الشـرف في نفوسـهم، ومنهـا القصـة التاليـة: عـاش في منتصـف القـرن الماضـي شـيخ بار اشـتهر بحكمتـه وصـواب مشـورته، وفي ذات يـوم دخـل "بلطجـي" مشـهور ومعـه عصـا غليظـة وقـال: "أسـألك سـؤالًا فقـل لي! أنا قـد قتلـت عشـرين قتـيلًا فهـل الجنّـة مثـواي أم النـار"، فتريّـث الشـيخ قلـيلًا، ان قـال "الجنـة" كـذب، وإن قـال "النـار" قُتِـل، وأخـيرًا قـال: "الله رحمـان رحـيم، يعـرف عبـاده ولا يعـرف أحـد مُـراده" ولكـن "مـن أراد أن يعـرف مثـواه في الآخـرة عليـه أن يغـرس عصًـا يابسـة في تربـة طريّـة، فـإذا اخضـرّت ونبتـت كـان

مثـواه الجنـة، وإلّا فـلا"، "فـأدار الرجـل ظهـره ومشـى".... وقادتـه قـدماه إلى مقـبرة حيـث رأى شـابًا يحفـر قـبرًا وينتشـل منـه جثـة فتـاة مدفونـة لسـاعتها فيمـزّق كفنهـا ويقـول: "امتنعـت علـيّ حيّـةً سـأنال منـك ميتـةً"، فاحتـدمت مـاء الشـهامة في عـروق البلطجـي وانـتفض علـى الشـاب بعصـاه فصـرعه، وسـتر جثـة الفتـاة بمـا تبقّـى مـن كفنهـا وأعادهـا إلى القـبر. ثم غـرس عصـاه في تربـة القـبر وجلـس يسـتريح... والتفـت إلى عصـاه فـإذا بهـا تَخْضرّ، وإذا بأوراق نديّة تتفتح على جنباتها.

فقـام ومشـى وأخـبر الشـيخ بمـا حـدث، فاغرورقـت عينـا الشـيخ وقـال: "مـن سـتر أعـراض النـاس سـتر الله ذنوبـه"... المجتمـع مطالـب بالتّصـدّي لمروّجـي الفاحشـة حـتى لا ينتشـر الفسـق في المجتمـع، لأن شـيوع هـذه الأمـراض وانتشـار هـذه الأوبئـة في جسـد الأمـة، وعـدم إنكارهـا ومحاربتهـا نـذير بانهيـار المجتمـع وهـذا لـيس معنـاه أن نكـون سـلبيين، وأن نقـف مكتـوفي الأيـدي أمـام مـرتكبي الأخطـاء، ولكـن يجـب أن ننصـحهم بالحكمـة والموعظـة..." فالسـتر لا ينـافي النُصـح بـل يتطلبـه"، فـإن لم تُـؤتِ النصـيحة أُكُلَهـا وكـان السـتر علـيهم سـببًا في ازديـاد جـرائمهم، وجـب رفـع أمـرهم أمـام القـانون لأن السـكوت علـيهم يزيـدهم تبجّحًا وافسادًا، هل يمكننا أن ننهي حديثنا بدون طرفةٍ؟!

من العُقوبات المعروفة ما يُسمى: الجرسة والتطويف، وكلمة "جرسة" مشتقّة من كلمة "جرس"، فيوضع المحكوم في إحدى الساحات، ويأخذ أحد الرجال بيده جرسًا يقرعه باستمرار وينادي بأعلى صوته: "فُلانة أو فُلان فعل كذا..." هكذا يتم تجريس المجرمين، أمّا التطويف، فيُحكى أنّ أعرابيًا قدم إلى المدينة لأول مرّة، وأخذ يطوف في شوارعها مشدوهًا بكثرة غرائبها .... ورأى فيما رأى مطعمًا، والناس يدخلون ويخرجون، فظنّه " مضافة " لأحد زعماء المدينة حيث تكون الضيافة لوجه الله، فدخل وأكل ما طاب له أن يأكل، ولا سيّما "المحاشي" التي قلّما يحظى بمثلها في مضارب عشيرته....

وعندما همّ بالخروج، طالبه صاحب المطعم بثمن الطعام، فاستهجن الأمر ولم يفهم كيف يكون ذلك، وإذ لم يكن معه أيّ نقود تسلّمه، وجاء الشرطة وأخذوه إلى القاضي الذي حكم بتطويفه، وجيء بحمار عارٍ أركبوه عليه بالمقلوب وأمروه أن يمسك ذنب الحمار، واستحضروا طبّالًا يطبّل أمامه وراحوا يطوّفونه في شوارع المدينة، فظنّهم يقومون بتكريمه على طريقة مدينتهم...

وحـــدث أنّ أعرابيًــا آخـــر مـــرّ فـــرأى زميلـــه علـــى ظهـــر الحمـــار وعرفـــه، فنـــاداه: "مـــا هـــذا"؟ فقـــال: "أكـــل محـــاشٍ، وركـــب جحاش، ودق يا طبّال دق!".

" أبو بعير "

سيدي رئيس الحكومة "أبو بعير" أدام الله عزّه، ووسّع مُلكه، وأبقاه ذخرًا لشعوب المنطقة، عزيزي "أبا بعير" أنت لا تعرفني...، ولم تلقني يومًا، ولم تسمع بي قبلًا، ولن تسمع عنّي مستقبلًا، فأنا مجرد موظّف صغير، وبقيت صغيرًا رغم كبر حجمي، وسأبقى كذلك إلى الأبد، أنا أنتمي إلى عرق المهرولين بالحافلات، إلى صناديق الاقتراع لتقويض أسس عرشك المتين، فأنا أنتمي إلى جماعة "الطابور الخامس" الذين يعيشون في كنفكم، ويتمتعون بنعيمكم ويتنفسون ما تحلّون لنا من هواء، وفتاتٍ من خبز ودقيق.

أنت بالتأكيد تتساءل باستغراب كيف أتجرأ على الكتابة لك، فهذا استغلال سافر للديمقراطيّة المزعومة الّتي ادّعيتها علينا، نعم يا لي من وقح! كيف أجرؤ أن أخط بقلمي باسمك حتى، أو أن أقحمك بهذا الخطاب التافه، يبدو أنني قد "انخبلت" أو قد أصبت برأسي جرّاء الضربات الّتي وجهتها لنا بالأيام الأخيرة، أنت بالتأكيد تستشيط غضبًا إذ جعلتنا نناديك باسم ابنك "بعير"، حتى ظننّا أنك أحد اخوالنا أو أبناء عمومتنا، وانتظرنا زيارتك لنا في العيد، فنحن نؤمن ايمانًا قاطعًا بصلة الأرحام، وندعو لها في كل مكانٍ وزمان....

سـيادة الـرئيس: أنهـا فضفضـة لـيس إلّا، فـنحن قـومٌ مولعـون بالكـلام، ولعلـك لا تعلـم، وأنـت لا تعلـم كثـيرًا بالمناسـبة، أننـا الأمـة الوحيـدة في التـاريخ الـتي أنشـأت سـوقًا للكـلام، فقـد كـان أجـدادنا يبيعـون الكـلام في سـوق "عكـاظ" قبـل أن تولـد مملكتـك بكثـير.... هـا انا أتوجّـه لسـيادتك بجزيـل الشـكر والامتنـان علـى مـا فعلتـه لنـا خـلال هـذه الحقبـة مـن الـزمن، حـتى كدنا ندعوها بحقبة الزمن الجميل....

شـكرًا لـكَ يا سـيادة الـرئيس أنـك قـد شـتّتّ وفرّقـت صـفوفنا وأعـدتنا شـعوبًا وقبائـل لنتعـارف مـن جديـد، فأنـتَ خبـيرٌ في هـذا المجـال ولـكَ باعٌ طويـل في هـذا المضـمار، فكـم مـن حـزبٍ دمّـرت ومـن رئـيسٍ عزلـت وجمهـورٍ حرّضـت ووعـودٍ أخلفـت، أنا لا ألومـك ولا أعاتبـك، بـل أثـني عليـك لأنـك جعلتنـا نختـبر هشاشتنا وضعف إيماننا.... شكرًا سيدي الرئيس...

لا، أنا لسـت هنـا لأقـدّم لـكَ البيعـة وفـروض الـولاء والطّاعـة، لسـت هنـا لأهنّئـك، فأنـت لسـت بحاجـة إلى هـذا أو ذاك، أنا متأكـد أنـه قـد وصـلتك رسـائل كهـذه مـن شـتى أصـقاع الأرض وبمختلـف اللغـات واللهجـات... لقـد جئتـك يا سـيدي شـاكرًا لـكَ لأنـك جعلتنـا نسـتفيق مـن سـباتنا العميـق، فـنحن معتـادون علـى النـوم منـذ كنّـا ثلاثـةً او أكثـر في الكهـف وكـان معنـا كلبنـا

الأمـين، وهـا نحـن نسـتيقظ الآن وقـد تغـيّرت الأحـوال وتبـدّلت الأزمان...

- سـيدي الـرئيس: لم أصـوّت لـك، لكنـني لا أُنكـر أنـني معجـبٌ بـك، فأنـت تلعـب علـى المكشـوف وتتصـرف بكـل شـفافيّة ووضـوح، المشـكلة هـي نحـن لا أنـت، نحـن الـذين نعـيش علـى الأوهـام "ونطـيش علـى شـبر مـي"، ونتشـبث بكـل الخيـوط مهمـا كانت واهية، فقد عشنا وتثقّفنا على خيوط العنكبوت....

- أعـترفُ يا سـيدي أنـكَ بارعٌ ومحنّـك، ومطّـلع علـى شـتى العلـوم الإنسـانيّة والعلميّـة والاجتماعيّـة، فأنـت تعـرف طبـاع الناس وأذهانهم....

نعـم فأنـت ذلـك الـرئيس المثقّـف الموسـوعيّ الـذي يحـدّثك في التّـاريخ، اللّغـات، الاجتمـاع، السّياسـة، الصّـراعات والإرهـاب، ولا ننسـى معرفتـك بالبلـدان، السـياحة، السـفر والتسـوّق، فأنـت تعشـق الفنـادق الفـاخرة والمطـاعم الغاليـة والطـائرات الخاصّـة، بالإضـافة إلى كونـكَ نصـيرًا للمـرأة، فأنـت لا تخطـو خطـوةً واحـدةً دون زوجتـك الجميلـة حيـث تصـحبها في جميـع سـفراتك وشطحاتك، صولاتك وجولاتك، دون كلل أو تعب....

شـكرًا أبا بعـير... أنـت يا سـيدي المعلّـم والمربّي الـذي طالمـا انتظـرناه، حـتى كـدنا نظـن أنـك المسـيح أو المهـدي المنتظـر،

الـذي طالمـا تضـرّعنا لقدومـه، ليحـرر العـالم مـن آثامـه وأعبائـه....
أبـدًا مـا شـككنا أنـك مسـيلمة الكـذاب أو الأعـور الـدّجال، حـتّى لم تخطـر الفكـرة علـى بالنـا، أشـكرك يا صـديقي، هـل تسـمح لي أن أدعـوك صـديقي، فـأنا إنسـان مسـالم وودود، أشكرك مـن أعمـاق قلـبي فأنـت مـن اعَـدت لنـا نخوتنـا وعروبتنـا وأصـالتنا، أنـت الـذي وصـلتنا بأقربائنـا الـذين انقطعـت عنّـا أخبـارهم منـذ "يـوم أُحُـد"، فعُـدنا إلى جزيرتنـا العربيّـة باحثـين عـن جـذورنا بأسـواق " أبـو ظـبي، ودبي، والمنامـة"، بفضـلك عُـدنا إلى "مضـارب خيلنـا"، ألم أقـل لـكَ أنـكَ مـن عمومتنـا وبيننـا وبينـك صـلة رحـم! آه كـم أنـتَ رائـع يا صـديقي... لقـد اسـتحققت يا صـديقي وبجـدارة، أن تأخـذ مقعـدك بـين حكّامنـا في مقدّمـة منصّـة الجامعـة العربيّـة، فمـن يسـتحق ذلـك أكثـر منـك! فقـد كسـبت ثقـة حكامنـا، فـنحن قـومٌ يُبـايعُ حكّامُنـا عنّـا، وأحسـب أنَّ صـكوك الطاعـة والـولاء صـارت عنـدك، والنـاس علـى ديـن ملـوكهم! فأنـت الأخ والأب الحنـون، فلْنُنْـزلْ مـن أجلـك صـور "عبـد الناصـر وصـدام حسـين" ناهيـك عـن صـورة "القـذّافي" فقـد أكـل علـيهم الـدهر وشـرب، لتحـلّ صـورتك عاليًـا فـنحن وشـعوب المنطقـة بأمـسّ الحاجـة إليـكَ، آه كـدت أنسـى يا صـديقي، أنـكَ كنـتَ ولا زلـتَ قُـدوة لنـا وقـدوة أبنائنـا مـن الجيـل الناشـئ الـذين ترعرعـوا وتربّـوا علـى إرثـك وسـاروا علـى خُطـاك... ليتـك تـراهم اليـوم يسـيرون علـى دربـك، وهـا هـم الآن يحـاولون

استعادة أمجادنا الغابرة من حروب وفتوحات، ها هم يُشاركون أبناء شعبك من فتيان وفتيات، يستعيدون من خلال تعايشهم المشترك الذي طالما ناديت به، ويستعيدون تمثيل ما تربينا عليه من أيام العرب وغزواتهم، يستعيدون المشاهد الشّهيرة لحرب "داحس والغبراء" وحرب "البسوس" بصيغتها الحديثة وبمشاركةٍ فعّالة من أبناء شعبك، في مشهد "هوليودي" وعلى مرأى من كل شعوب العالم وعلى شاشات العرض الكبيرة بجودة HD.

كل هذا بفضلك يا صديقي... أعرف أنني قد أطلت عليك يا سيدي الرئيس، لكن دعني كما اعتدت أن أختتم كلامي بطرفةٍ علّها تنال إعجابك: "أسرت قبيلة مُزَيَنَة، وهي قبيلة عربيّة معروفة في نسبها وتاريخها، أسرت ثابت بن المنذر الخزرجي ، والد الصحابي حسّان بن ثابت رضي الله عنه، وقالوا لقومه: لا نأخذ فديته إلّا تيسًا، فغضب قوم ثابت فكيف يقيّمونه بتيسٍ، وقالوا لا نفعل، فأرسل ثابت إلى قومه وقال لهم: أعطوا مُزَيَنَة ما طلبوا، فلمّا جاء قومه بالتيس قال لهم: أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم، وشاعت عند العرب حتى أصبحت عارًا على قبيلة مُزَيَنَة بترادف التيس لاسم تلك القبيلة "مُزَيَنَة التيس".

لا يا "أبا بعـــير" أنا لا أُلمــح بشـــيءٍ فشـــتّان بـــين البعـــير والتـــيس لكن عندنا العرب مثلٌ يقول: "لكل امرئ من اسمه نصيب".

- تنويـــه: أي تشـــابه بالشخصـــيات والأسمـــاء هـــو محـــض صـــدفة ولا يمُت للواقع بصلة.

"منصّات "

منصّات التواصل الاجتماعي... لا لا انتظروا، لا تذهبوا، لن أكتب عن الانترنت و"الفيسبوك" وغيرها من التطبيقات التي سمعت عنها، ولكنني لا أملكها لأن الانسان مع تقدم العمر "بطَّل يجمِّع"، وكل هذه التطبيقات الحديثة، متسارعة مع التغيير والتفعيل والتي أصبحت عبئًا علينا، لكن الذي استوقفني من بين هذه الكلمات الثلاث: منصّات التواصل الاجتماعي، كلمة واحدة هي "منصّات"، هل أنتم مستغربون؟! يعني تستغربون عزوفي وتركي لكلمات التواصل الاجتماعي وتركيزي واهتمامي بكلمة "منصّات"، تعالوا نتأمل وندقّق معًا بتداعيات ومعاني كلمة "منصّات" ونستذكر معًا الأمور التي تستعمل فيها الكلمة والسياقات الواردة فيها، كلمة منصّة تستعمل بالأساس للخطابة في الاحتفالات والأحداث الجماعيّة، المنبر في المسجد هو أيضًا منصّة، ولا ننسى الأهم: الأعراس حيث يجلس العريس والعروس جنبًا إلى جنب كي يراهم الناس و"المعازيم"، وكل من يرغب بعرض نفسه يصعد إلى المنصّة، والمغنّي يكرر أكثر من مرّة "يا جماعة انزلوا عن المنصّة"، ما الذي أقصده بكل هذه المقدّمة المتفلسفة؟! هل أرمز إلى أننا توقفنا عن الحياء ونرغب في استعراض أنفسنا؟ هل أصبحنا بحاجة إلى "نشر" غسيلنا على الملأ؟ هل نحتاج إلى تعاطف الآخرين بكل ثمن؟ أصبحنا

"بنموت" على "اللايكات"، أصبحت "اللايكات" قرض ودين....

"حطّلي لايك بحطّلك" والعكس هو الصحيح" ويا ريت لو حصل أحدنا على سبق صحفي" "سكوب" ووضعه في "بوست" على "الفيسبوك" أو على "الستاتوس في الواتساب"، حتى ولو كان ذلك عن حادث سير ونتج عنه جرحى أو موتى، وتقوم بنشره حتى قبل معرفة أهل المصاب، ماذا لو مات أحد أقربائنا؟! أحسن وأحسن..... لا اعتراض على أن يقوم أحدهم بوضع خبر حول وفاة والده أو والدته على الحالة أو "الواتساب" أو " الفيسبوك" ليعلم الناس ويقوموا بواجب العزاء.... لكن أن نصحو كل يوم على عنوان "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، توفي خال أمي أو توفت خالتي إم كذا وكذا، لا اعتراض على قضاء الله، ولكن ارحمونا! يعني كلنا نعرف أن نفسيات الناس منهكة ومتعبة والموت يحدّق بنا من كل حدب وصوب، حتى أننا أصبحنا لا ننفعل ولا نتأثر، ونقول "الله يرحمه" ونستمر بأشغالنا....

لماذا لا نكتفي بإعلان أهل الفقيد عن الوفاة؟ أصبحنا نبحث بالقوّة عن علاقة لنا بالميت لكي نزجّ بأنفسنا ونكتب الخبر أو السبق الصحفي على منصّاتنا المتعددة، وننتظر كما ينتظر الصيّاد فريسته حتى نحصل على "اللايكات" والكلمات

المشـــجّعة، غـــير آبهـــين بمشـــاعر العائلـــة أو مشـــاعر النـــاس الآخرين....

اعــترف أنــني أصــبحت أتــردد عنــدما أرى العنــوان "إنا لله وإنا إليــه راجعــون"، هــل نحــن بحاجــة إلى التعــاطف إلى هــذه الدرجــة؟ هــل بــدأنا نفقــد أصــدقاءنا الحقيقيــين ونلجــأ إلى مواســاة أصــدقائنا الافتراضــيين؟ هــل وصــلنا مــرض العصــر الــذي وصــل أوروبا قبــل عشــرات الســنين وهــو مــرض "الوحــدة" هــل أصــبحنا نخــاف البقاء وحدنا؟

اختم كلامي كالعادة بطرفة:

روى ابن الجوزي:

بينمــا الحجــاج يطوفــون بالكعبــة ويغرفــون المــاء مــن بئــر زمــزم، إذ قــام أعــرابي فحســر عــن ثوبــه، ثم بالَ في البئــر والنــاس ينظــرون! فمــا كــان مــنهم إلّا أن انهــالوا عليــه بالضــرب حــتى كــاد أن يمــوت، فخلّصــه حــرّاس الحــرم مــنهم وجــاؤوا بــه إلى أمــير مكّــة فقــال لــه: قبحــك الله لم فعلــت هــذا؟، فقــال: حــتى يعــرفني النــاس فيقولــون هــذا الــذي بالَ في بئــر زمــزم! يبــدو أنّ بعــض الأشــياء لا تتغــير في هذا العالم، ما زال الناس يستميتون في سبيل الشهرة.

"للنساء فقط"

استحلف رجلٌ زوجته قائلًا: سألتك بالله أتحبينني؟! فقالت: أما وقد استحلفتني فإني لا أحبك، فجاء الرجل إلى عمر بن الخطّاب شاكيًا، فأرسل في طلب زوجته، فجاءت، فقال لها: انت التي تحدّثين زوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، انه قد استحلفني، أأكذب؟ فقال لها: نعم اكذبي، فإن كانت إحداكنّ لا تحب زوجها فلا تحدّثه بذلك، فإنّ أقل البيوت التي تُبنى على الحُب، ولكن النّاس يتعاشرون بالإسلام والإحسان. لقد ترددت كثيرًا في طرق هذا الموضوع الذي نحن بصدده، لكنني لم أستطع أن أتجاهل موضوع العلاقات الزوجيّة، وهو موضوع يطفو على السّطح كل يوم من جديد وبأشكال مختلفة ومتنوعة.... إننا نتفاجأ كل يوم من جديد من احصائيات الطّلاق في مجتمعنا الفلسطيني في القدس والضّفة والدّاخل.....

صحيح أنّ نسبة الطّلاق في البلاد أقل منها في الدّول العربية، ولكن هذا الأمر ليس مدعاة للتفاخر، فالأعداد تتزايد يومًا بعد يوم.... وفي هذه المدوّنة سأتوجه في كلامي للمرأة والنّساء في مجتمعنا، سيقول البعض لماذا بدأت بالنّساء بالذّات، حيث كان أحق وأولى، وأنت رجلً، أن تبدأ بالرّجال، فأنت منهم وتعرفهم جيدًا....

لقد اخترت أن أبدأ بالنّساء لأنني أعرف أنّ المرأة هي عماد المجتمع، وهي نصف المجتمع وهي التي تربّي النّصف الثاني، ليس صدفةً أنني بدأت مدوّنتي بقصّة من تراثنا الإسلامي، وفي زمن الخليفة عمر بن الخطّاب، ويُقال كثيرًا: أنّ الإسلام أنصف المرأة وعزّزها، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أنصفت المرأة نفسها؟ وهل أنصفت زوجها؟ تحدثت القصة عن الحب، صحيح أنّ الحب مهم جدًا، ولكن ليس بالحب فقط تقوم البيوت وتستمر الزيجات، ولو أنّ كل زوج أراد طلاق زوجته لأنه لم يجد في قلبه تجاه زوجته حُبًا، لم يبقَ في المجتمع بيوت قائمة أكثر ممّا يوجد من أصابع اليد الواحدة، لكن البيوت قائمة والحياة مستمرّة، لأن ثمة أشياء كثيرة غير القلوب يجب أن تبقى البيوت قائمة لأجلها! كثيرًا ما تقول النساء إنّ الزوج يغضب ويثور.... إليك بعض النصائح التي قد تساعدك على الحفاظ على بيتك وزوجك وعائلتك:

1. أنصحك بالتزام الصّمت التّام إذا غضب زوجك وثار، وحاولي ألّا تتكلّمي، بل استمرّي بصمتك، ليس ضعفًا وخُضوعًا إنّما من منطلق اختصار المشاكل، إيّاكِ وأن تنظري إلى زوجك نظرة السّخرية، فالرّجال يُدركون ويعون معنى هذه النظرات المستخفّة التي قد تؤدي إلى زيادة الطين بلّة.

2. اصمتي ووافقي إلى أن يهدأ، اتركيه بعض الوقت حتى يستريح، فهو بحاجة إلى الرّاحة بعد هذا الصّراخ والإهدار للطّاقة.
3. تختار بعض النّساء أن تقوم بمقاطعة زوجها، فتختار ألّا تكلّمه بتاتًا، حتى تحيّة الصّباح أو المساء، وهناك من لا تتكلم معه، ولا تسأله عن حاله وعن عمله...
4. لا تقاطعي زوجك لأنه من الممكن أن يعتاد على بُعدك، ويصبح عنيدًا، ومنهم من يجد بالأمر ذريعة لتجاهلك وتجاهل طلباتك المنزليّة من منطلق: " أجت منها مش منّي".
5. حاولي التّقرّب من زوجك عن طريق كوبٍ من العصير أو فنجان من القهوة، بالتأكيد فإنّه بعدها سيبدأ بالتّراجع ويحاول "النزول عن الشّجرة الّتي صعد إليها"، ساعديه بذلك، مدّي له يدك لينزل وهو معزّز مكرّم...
6. اتركي المشاكل تبرد وتهدأ ليسهل حلّها، اختاري الوقت المناسب لذلك، فإنّ التوقيت مهم جدًا وهو جزء من الحل، لا تتجادلي معه وهو غاضب ولا تحاولي إقناعه أنّه مُخطئ، اتركيه يهدأ" عندها سيدرك وحده أنّه مُخطئ ويحاول إصلاح الوضع إلى ما هو أحسن".
7. لا تتركّزي في النظر إلى سيئات زوجك، ركّزي على حسناته واذكريها أمامه، فإنّ الأمر يزيده فخرًا واعتزازًا ومن هنا الطريق إلى الحل والتنازل قصير جدًا.

8. هناك من يقول إنّ الرّجل هو طفل كبير، وأنتِ كزوجة وكأُم تعرفين جيدًا أنّه لا فائدة من العناد مع الأطفال، بل يجب أن نستميلهم وأن نكسب محبّتهم ومودّتهم لكي نحصل على ما نريد منهم.

9. حاولي استمالة زوجك بالتّدريج وبدون خجل، حاولي الّا تكوني عنيدة، فالرّجال يكرهون المرأة العنيدة، ويحبّون المرأة الرّقيقة والّتي لا تفقد أنوثتها، فقد يكرهك لأنك فقدتها فالرّجال لا يحبّون المرأة "الزّلّاميّة"، فهم يحتملون أن تفقد النّساء كل شيء عدا أنوثتهن، تمسّكي بأنوثتك دومًا وعلى طول، وإذا جاءك زوجك طالبًا مساعدتك فكوني له ملجأ، إياك أن يحتاجك ولا يجدك، كوني ماله وثروته كوني صديقته وأهله، كوني جميلة ومتعلّمة ومثقّفة، ولا تنسي أن تكوني امرأة وأنثى فالأنوثة سلوك لا شكل، أيضًا حافظي على أموال زوجك، لا تبذّري أمواله الّتي تعب كثيرًا لتحصيلها، ليس وحده الله الذي لا يحب المبذّرين، الأزواج أيضًا لا يحبّون المبذّرات ، وإذا كنتِ تعملين فشاركي زوجك بمصاريف البيت، لا تقولي كما تقول بعضهنّ: "راتبي لي فقط، فليصرف من راتبه، هو مجبور بي"، لا تنسي أنّ الحياة شراكة وتعاون، أنت وأولادك المستفيدون في حالة الرّخاء والبحبوحة في العيش، وأنتم المتضررون في حالة الفقر والعوز، لا تنظري حولك، قد يكون زوج أختك مُقتدرًا، وقد يكون سلفك

مُقتدرًا. لا تقارني نفسك بهم، ولا تطلبي منه ما لا يطيق، اكتفي بسيارة متواضعة من مال زوجك على سيارة فاخرة من مال البنك.

وهل يمكننا ان ننهي حديثنا بدون طرفة؟

تزوّجت إحدى الفتيات، فزوّدتها والدتها، قُبيل انتقالها إلى بيت زوجها بنصيحة:

" يا ابنتي، لا تكوني غشيمة، حاولي دومًا أن تعرفي أسرار زوجك حتى تطول أيامك عنده".....

لم يلبث الرّجل أن انتبه إلى اهتمام زوجته بمعرفة أسراره، فأضمر شيئًا في نفسه، وبحث عن خلية دبابير، واستحضر جرّة فخّار دهنها من الدّاخل بالدِّبس وحملها ووضعها بالقرب من المِدبرة، فدخلت إليها شرذمة من الدّبابير، عندئذٍ سَدَّ الرّجل باب الجرّة وربطها ربطًا مُحكمًا وجاء بالجرّة إلى بيته.

- فسألته زوجته عمّا في الجرّة.
- قال: "فيها آآخ وآآه ويا إمي الحقيني".
- فهزّت رأسها وقالت في نفسها: "بعده مفكرني غشيمة" وانتظرت المرأة حتّى خروج زوجها، وتقدّمت وفتحت الجرّة، وانحنت لترى ما في داخلها، فثارت الدبابير في وجهها،

ولطشـــها دبـــور في أنفهـــا، ونهشـــها آخـــر في خـــدها، ونتشـــها ثالـــث في جفنهـــا، وعفشـــها رابـــع في حنكهـــا، وكدشـــها خـــامس في شفتها، وقرشها سادس في قرقوشة أذنها.

- وبعـــد حـــين رجـــع الرّجـــل، وسمـــع زوجتـــه تصـــيح: "آآخ يا عيـــني.. آآه يا منخاري..".
- فصاح بها: "ووين الحقيني يا إمي؟".
- قالت: ألف "آآخ" و "آآه" ولا قولة غشيمة!".
- ملاحظـــة: انتظـــرونا الأســـبوع القـــادم مـــع مدوّنـــة بعنـــوان: "للرّجـــال فقط".

للرجال فقط

"يُحكى أنّ رجلًا جاء إلى عمر بن الخطّاب يشكو إليه خُلقَ زوجته، فوقف ببابه ينتظره فسمع امرأته تتطاول عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرّجل قائلًا: إذا كان هذا حال الخليفة فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه مولّيًا فناداه: ما حاجتك يا أخي؟ فقال: يا أمير المؤمنين جئت إليك أشكو زوجتي فسمعت زوجتك تتطاول عليك فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فقال له عمر: إنّما تحمّلتها لحقوق لها عليّ: إنها طبّاخة لطعامي، خبّازة لخبزي، غسّالة لثيابي، رضّاعة لأولادي، وليس ذلك بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا أتحملها لذلك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين وكذلك زوجتي، قال: فتحمّلها يا أخي مدّةٌ يسيرةٌ"

قد تكون هذه القصة لا أصل لها حيث نستبعد أن تصرخ زوجة عمر بن الخطّاب في وجهه، ولكنها مع ذلك لها رمزيّة ومدلولات عميقة بكل ما يخصّ تعامل الرّجل مع زوجته...

لقد لاقت مدوّنتي الأخيرة بعنوان: "للنّساء فقط" إقبالًا كبيرًا خاصّة بين أوساط النّساء....

وافقت بعض النّساء على ما قلته، البعض اقتناعًا، والبعض الآخر مجاملةً لي. ولكن معظم المعلّقات بالرّسائل الخاصّة كانت: "دعنا نرى ماذا ستقول الأسبوع القادم للرّجال"، أحسست أنني في موقع الامتحان، وأنّ الكل ينتظر بترقّب شديد ما سأكتبه في توجّهي للرّجال، ترددت كثيرًا فيما سأكتبه، كيف سأرضي هذا الكم من النساء المترقّبات المتحفّزات لإطلاق ألسنتهن بالتعليقات والتّعقيبات اللاذعة "وخاصّة عندي في البيت"، وكانت القشّة التي قصمت ظهر البعير قول ابنتي، بعد أن قرأت المدوّنة، إذ قالت لي: "ماذا تفكّرون أنتم الرّجال؟ أنتم تعيشون في الماضي؟ سارعوا بالتغيير والتأقلم للوضع الرّاهن، للواقع وإلّا فأنكم ستجدون أنفسكم تسيرون على هامش الطّريق، سيفوتكم قطار الحياة، هل بالفعل أننا ما زلنا نعيش على ما نشأنا عليه أيام آبائنا وأجدادنا؟، هل بالإمكان أن نتغيّر مع تقدّمنا بالعمر؟ أوافق ابنتي أنه علينا أن نتغيّر، فالأحوال ليست كما كانت عليه.

نساء اليوم لسنَ كنساء الأمس، قوانين اليوم وعاداتنا ليست كما كانت سابقًا، من الصّعب علينا، نحن الرّجال، أن نتغيّر في هذا الجيل، ولكن بإمكان شباب اليوم أن يتغيّروا إذا رأوا محاولاتنا نحن الآباء أن نتغير.

تعالوا،" نحن الرجال نحاول أن نضبط أنفسنا" دعونا نتذكر ما يلي:

1. دعونا نتذكر أنّ الغضب يعمي العقل، وانه عندما نغضب لا نفكّر إلّا بالانتقام، وكل قرار يضرمه الحقد هو قرار خاطئ، لنتذكر أنّ المعاملة دينٌ، والأيام سدادٌ.

2. اضبط نفسك! تذكّر أنّ النّفس عند الغضب كالفرس الجامحة تلبط كل من يقترب منها وتذكّر دومًا أنّ أغلب المشاكل حلّها عن طريق العقل والتفاهم لا عن طريق العضلات.

تخاصمت الريح مرّة مع النّوم، فقالت الرّيح للنّوم: أنا أقوى منك فقال لها النّوم: بل أنا أقوى!، واتفقا أن يتباريا... وصادفا طفلًا جائعًا يحمل رغيفًا، وكانت المباراة أنّ من يأخذ الرّغيف من الطّفل فهو الأقوى، بدأت الرّيح تعصف بالصّبي وهو متشبث بالرّغيف. حملته الرّيح وطرحته أرضًا دون جدوى، وعندما يئست منه كان الطّفل قد تعب وأُنهكت قواه، فألقى النّوم شباكه على الصّبي وأخذ الرغيف منه بدون جُهد.

فلا تكُن لك عضلات الرّيح... الكثير من المشاكل تحتاج إلى رقّة النّوم!

3. "عَلَيّ الطّلاق إلّا تتفضل، عَلَيّ الطّلاق ما بتدفع! ما حدا بدفع غيري، عَلَيّ الطّلاق، عَلَيّ الطّلاق" بكل كبيرة وصغيرة، هذا هو استخفاف بالعلاقة الزوجيّة وحط من قيمة الزّوجة، أنا متأكد أنّ الكثير من النّساء قد تم تطليقهن أكثر من مرّة نتيجة لتهور الأزواج وإسراعهم بإطلاق التّصريحات المماثلة دون أن يَعوا ما يقولونه لمجرد استمرارهم بهذه العادة البذيئة...

4. إذا اتفق الزّوجان على الطّلاق لعدم مقدرتهم على الاستمرار في العيش معًا فيجب أن يتم ذلك بالمعروف "فأمسكوهُنَّ بمعروفٍ أو سرّحوهنّ بمعروف" فهذا آمن وأصح للعائلة والأولاد... وإياك ثم إياك أن تحارب أمًّا بأولادها، فإنّ الأُبوّة بالتجربة أمّا الأمومة بالغريزة.

5. يربط الكثير من الآباء علاقاتهم بزوجاتهم، بعلاقة الزّوجة مع أهل زوجها، وخاصة مع أم الزّوج.

اعلم أنّ الزّوجة لا تعق أهل زوجها إلّا إذا هان أهله عنده أولًا...

لا تسترجل المرأة إلا إذا فرّط الرّجل برجولته، ولا تكون المرأة سيدة رجل إلا إذا فشل أن يجعلها امرأته، وإذا لم تعد المرأة امرأة كما يجب فلأن الرّجل لم يعد رجلًا كما يجب، لا

تصدّقوا أنّ المرأة التي تحكم بيتًا امرأة سعيدة، إنها في أعماقها تحن إلى رجل يحكم بيته.

6. ما زالت المرأة تسعدها هدية ولو ملكت مال قارون.

المرأة تحب أن تشعر بالدّلال، كل امرأة تسعد بكلمة حلوة وتطير بغزل تسمعه، وتفرح بهديّة تتلقّاها من زوجها فإذا كانت امرأتك غنية، فليست في غنى عن هداياك، ما زالت زوجتك تريد كتفًا حنونًا، حتى لو كانت أقوى امرأة بالعالم.

7. إذا حزنْتَ اذهب إليها بحزنك وإذا تعبْتَ اذهب إليها بتعبك، ليس في الأمر انتقاصًا للرّجولة أن تشكو إليها، وليس انتقاصًا أن تشركها في أمرك.

المرأة تكمل نفسها بعقل الرّجل فتشتد، والرّجل يكمل نفسه بقلب المرأة فيلين، هذا العالم يحتاج قلب امرأة كحاجته لعقل الرّجل، بل أشد. علينا ان ندعم ونعزّز، علينا أن نعطي أكثر وأن نطلب اقل، أن نبذل أكثر ونأخذ أقل، ولا ننسى انّ الحياة أخذ وعطاء. دعونا نحن الرجال، أن نتنازل قليلاً عن كبريائنا، دعونا نساير ونهتم، دعونا نساعد ونتحمل مسؤوليات أكثر في البيت ومع الاولاد، فالحياة تعاون ودعم، اهتمام ومحبة.

وهل يصح أن نختم حديثنا بدون طرفة:

"يُحكى أنّ رجلًا نزل إلى السّوق واشترى حمارًا جرّه برسنه وراءه ورجع إلى بيته. فتبعهُ لصّان اقترب أحدهما وفكّ الرسن من رقبة الحمار ووضعه في رقبته (رقبة اللص)، واستولى رفيقه على الحمار....

وبقي الرّجل ماشيًا والحمار المزعوم وراءه، حتى مدخل القرية حيث التفت الى الوراء، وإذا الحمار قد صار رجلًا، فقال له: "حسب علمي أنك حمار، فكيف أصبحت رجلًا؟"

قال اللص: "ولكني، يا سيدي، رجلٌ مثل كل الرجال، وعندي زوجة وأولاد، إلا أنني كنت أشاكس زوجتي ولا أسمع كلامها ولا أراعي مقامها، فغضبت عليّ وطلبت من الله أن يمسخني حمارًا....

ويبدو الآن، أنّها راجعت أفكارها وطلبت من الله أن يعيدني رجلًا فأرجوك أن تتركني، لأعود إلى زوجتي.. وأن تستر على ما ظهر منّي".

فقال له الرّجل: "ارجع إلى زوجتك.. لكنني أوصيك ألا تخالف رأيها بعد الآن!".

دخل الرّجل إلى بيته ورمى رسن الحمار قدّام زوجته وقال لها: "شيء عجيب غريب، جبت حمار... طلع زلمة".

فقالت له زوجته: "يوجد ما هو أعجب وأغرب، انتَ جبت حمار طلع زلمة، وأنا جبت زلمة... طلع حمار!".

وبات الرّجل ليلته مكسور الخاطر.. وفي اليوم التالي نزل إلى السّوق في محاولة لشراء حمار لا غشّ فيه وإذا بحماره المعهود معروضًا للبيع، فقبض على أذنه وقال له: "أوصيتك أمس ألّا تخالف رأي زوجتك، لعلّك لم تقبل نصيحتي، شوف يا ابني شوف! اللي بطاوع مرتو بضمن آخرتو".

"نبتدي منين الحكاية"

كلّما أنهيت مدوّنة أسبوعيّة، أو حتى قبل انهائها، تأخذني أفكاري نحو المدوّنة القادمة، اعترف أنّ المدوّنة الأسبوعيّة قد أصبحت جُزءًا لا يتجزأ من برنامجي الأسبوعي، وأصبحت التزامًا لا حِلَّ منه، وقد تفاجأت كثيرًا من ردود فعل الناس حيث الذين التقيهم في عملي أو في الشارع أو في مناسبات اجتماعيّة مختلفة ويسألونني عن المدونة القادمة وماذا سيكون موضوعها، كما يقوم البعض بطرح أفكارٍ لمدوّنات مستقبليّة قائلين: "تحدث عن كذا وكذا"، "هذا الموضوع جدير بالتحدث عنه"، طبعًا هذا الأمر يُسعدني كثيرًا من جهة ومن جهة أُخرى يُحمّلني مسؤولية كبيرة عندما أرى تعطش الناس للقراءة، بعكس الادعاءات أنّ الناس لا يقرؤون.

والعكس هو الصحيح، فالناس يقرؤون ما هو مناسب لمزاجهم وأفكارهم، ولكنهم في أيامنا هذه، ومع كثرة المشاغل والهموم، يملّون سريعًا: فالبعض يقول لي لماذا لا تتوسع في مناقشة موضوعٍ مهمٍ فأُجيبهم بقول أبي الحسن الماوردي في كتاب "أدب الدنيا والدين" ان "الخضر" قال لموسى عليهما السلام: "يا موسى متى كلّمتَ الناس لا تُطِل كلامك لئلا يملّ الناس مقامك، لأن المستمع أسرع إلى الملل من المتكلم!".

فها أنا استعير حكمة "الخضر" عليه السلام، وجعلتها حكمة كتابتي للمدونات حتى لا يملّ الناس من كثرة "اللت والعجن".

نبتدي منين الحكاية...

1. هل نبدأ الحكاية من الطلبات الزائدة والمتزايدة للأسرة والأولاد؟! الطلبات التي أصبحت تثقل كثيرًا على ميزانية العائلة "دون مراعاة مقدرتنا على تحمّل تبعات هذه المصاريف"، فالطلبات تتزايد يومًا بعد يومٍ لتضاف إليها أمورٌ لم نعهدها سابقًا، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية.

فالسيارة الجديدة لم تَعُد من الكماليات، والإجازة السنويّة هي ضرورةٌ لا بدَّ منها للحفاظ على الصحّة النفسيّة للأولاد ولأفراد العائلة، أصبح التسوّق هو الوسيلة المثلى للتفريغ لدى الزوجة وأفراد العائلة...

2. هل تبدأ الحكاية بالعنف المستشري في مجتمعنا بكافة أطيافه والذي أصبح يهدد مجتمعًا بأكمله، العنف لا يقتصر على المجتمع العربي، بل هو آفة عالميّة تقض مضاجع كل المهتمين بالأمر بالمجتمع الدولي، لكننا في مجتمعنا الصغير لم نعتد عليه، فقد كبرت قُرانا ومُدننا، وزاد أفراد الحَمولة لبضعة

آلاف ففقدنا السيطرة على أبنائنا وبناتنا، هل مُجتمعنا هو مجتمع عنيف؟! الجواب، بدون أدنى شك، نعم....

3. هل تبدأ الحكاية بانتشار التدخين الالكتروني بين شبابنا وشاباتنا صغار السن؟! لقد استغرب البعض انتشار هذه الظاهرة بين الشباب صغار السن، وانتقل استعمالها إلى المدارس بين هؤلاء الشباب، بادّعاء أنّها غير مُضرّة ولا رائحة لها... لماذا تستغربون ذلك ونحن نرى الأراجيل مُنتشرة في بيوتنا وبين زوجاتنا وبناتنا وأبنائنا.... فلا يخلو مطعم أو مقهى من هذه الأراجيل التي ينهال عليها شبابنا بشغف ونهم شديدين...

4. هل تبدأ الحكاية بأزمة السّير التي أصبحت كابوسًا يوميًا يُسيطر على حياتنا ويشّوش برامجنا وتحد من حرية تحركاتنا لقضاء احتياجاتنا وأشغالنا، ولا ننسى ظاهرة الشاحنات والباصات التي أصبحت تحتل أرصفتنا وساحاتنا، ضاربة عرض الحائط مشاعرنا وراحتنا في بيوتنا، وسط عدم اهتمام ولا مبالاة السلطات وصمتهم المطبق...

5. وقد ازدادت هذه الظاهرة لدرجة أننا أصبحنا نفضّل القبوع في بيوتنا حتى لا نفقد مكان وقوف سيارتنا... هل تبدأ الحكاية في اعتزالنا الناس حتى لا نصطدم بأحد "الزعران" واختصارًا منّا للمشاكل...فما أن تخرج من بيتك حتى

تُصادف أحدهم يسوق بطريقة هوجاء، غير مراعٍ قوانين السير، ومتحديًا كل العرف والتقاليد الاجتماعيّة والأخلاقيّة.... فلا أدب ولا أخلاق، أو تصطدم بأحدهم يستمع إلى الموسيقى الهابطة تصدح من سماعات سيارته الضخمة "عمي يا أبو البار"، هل اعتزلنا الناس والأصدقاء حتى لا نسمع مشاكلهم وشكواهم لأنه كل واحد "بكفيه همّه"، ولا رغبة لنا في سماع مشاكل غيرنا حتى لا تزيد همومنا، هل تقلّص عدد أصدقائنا مع تقدمنا في العمر ففقدنا الصبر على المجاملات والاستماع إلى الأحاديث التافهة وتبذير الأموال والوقت على هذه الأمور.

6. هل تبدأ الحكاية بأننا فقدنا الصبر والشغف للقيام بالكثير من الأشياء؟ فلا صبر لدينا للانتظار في الدور في الدكّان أو الصيدلية أو صندوق المرضى، وأصبحنا نرغب بالوصول إلى غايتنا بأسرع وقت ودون أي عناء، لا صبر لدينا للاستماع لأبنائنا وزوجاتنا، لا صبر لدينا للاستماع إلى طلابنا في المدارس، جوابنا دائمًا: "بعدين". وهذه ال "بعدين" لا تأتي أبدًا، هناك الكثير من الحكايات التي تبدأ وما زالت تبدأ ولا تنتهي أبدًا إلّا بطُرفة لا بدّ منها:

يُحكى أنّ رجلًا مدنيًا التقى رجلًا قرويًا يجرّ حمارًا، فأراد أن يختبر ركوب الحمار، كتذكار، لمناسبة زيارته إلى تلك الديار وعرض على القروي استئجار الحمار، لقاء أجرة معيّنة.

فوافق القروي وساعد المدني على اعتلاء ظهر الحمار، وأشار عليه ان يركّز نظره بين أذني الحمار، حفظًا لتوازنه وخوفًا عليه من السقوط، وبما أن المدني كان من أساتذة الرياضيات وله خبرة في معرفة المسافات وتقدير القياسات لذلك استطاع أن يقدّر المسافة بين عينيه وأُذنيّ الحمار بمتر واحد تقريبًا....

وحدث أن انقطع الحبل الذي يشدّ البرذعة (سرج الحمار) إلى ظهر الحمار وكانت الطريق تنحدر نزولًا، فبدأت البرذعة تنحدر صوب رقبة الحمار، فتتقلص المسافة تدريجيًا، بين عيني الرجل المدني وأذني الحمار.

وراح الرجل يعيد تقدير المسافة، قال إنها صارت تسعين سنتيمترًا، ثم ثمانين، ثم ستين... وهلم جرا حتى أوشكت البردعة أن تصل إلى أُذني الحمار، وكان القروي يمشي أمام الحمار، فلم يلتفت ولم يُلاحظ ما كان يحدث وراءه.

وعندما بلغت البردعة أُذني الحمار تضايق ونكس رأسه فَسَحَلَ الرجل أمام الحمار، فالتفت القرويّ وسأله: "ليش نزلت؟ بعدو المشوار ما خِلِص"...قال الرجل: لكن الحمار خِلِص!"...خلص الحمار، ولكن الحكاية ما زالت مستمرة...

الله يجيرنا من الجاي.

وداعًا 2021

يوم واحد يفصلنا عن نهاية سنة من السنوات الأصعب إطلاقًا، قرارات مصيريّة تم اتخاذها هذا العام، وانجازات تم تحقيقها، اعلم جيدًا كم كانت هذه السّنة عصيبة على الجميع... دخلناها على أمل أن تكون سنة خير وتفاؤل لقد اختلفت موازين هذا العالم الكبير.. لوجود فيروس صغير!

لعلّ ما نكرهه من الأمور هو خير لنا، ولكننا لا نعلم... صحيح أنّها كانت سنة متعبة على الكل بدون استثناء لكنّها علمتنا الكثير الكثير وتخلّصنا من الكثير من المظاهر الكاذبة...

1. وداعًا 2021 فمنك تعلّمت أن أعرف قيمة المنزل، وأنّ العائلة هي السند الذي لا يخذلك مهما كلّف الأمر...
2. وداعًا 2021 فمنك تعلّمت ألّا أرفع سقف توقّعاتي بالنّاس لأنهم يتغيّرون، فمن صنعت له معروفًا أدار ظهره واختفى، وأنّ البعض لو أضأت لهم أصابعي العشرة شمعًا فلن يرضوا عني.
3. منكِ تعلمت أنه ليس هناك أقل أدبًا ولا أكثر فظاظة من بعض الناس، فالذين ساعدتهم هم الذين سنتقي شرّهم، وأنّ الطعنة تأتي ممّن مددنا لهم يدنا للمساعدة.

4. منك تعلّمت أنّ بعض النّاس يكرهوننا لمزايانا وليس لعيوبنا، وأنّ الناس إمّا مُحب وإمّا مُبغض، والمحب سيحزن لأجلي والمبغض سيشمت بي، فلا أشكو بثي وحزني إلّا إلى الله.
5. منك تعلّمت ألّا أقصّ على الجميع كل خير وهبني الله إياه، لأنّ البعض عيونهم ضيّقة وقلوبهم أضيق، وألّا أبوح مخاوفي كي لا يحاربني الناس بها.
6. منك تعلّمت أنّ السّعي لاحترام النّاس أمر محمود ومحبّذ، ولكن يجب ألّا يتعارض مع احترام الإنسان لنفسه وذاته أولاً، تعلّمت أن أحترم نفسي لأجعل النّاس يحترمونني.
7. تعلّمت أنّ البعض لا تحلو بدونهم الطريق، وأنّ الطّيور على أشكالها تقع، وتعلّمت: "رافق المسعد تسعد"، وأنّ الطّيبين للطّيبات وأنّ الحنان لا يُنقص من الرجولة إنّما يزيّنها، وأنّ خير الأزواج ألينهم قلبًا وأحسنهم عِشرة، وأرقّهم غزلّا.
8. تعلّمت من هذه السّنة أنّ أقسى ما نواجهه اليوم ليس البطالة في الأعمال إنّما البطالة في الأحاسيس والمشاعر.
9. تعلّمت أنّ العائق لا يكمُن في ارتفاع أسعار الطّعام في المطاعم وازدياد أنواعها وأصنافها، وإنّما العيب في انخفاض سعر الحب على موائدنا وأنّه ليس الافتقار إلى الأسرّة في المستشفيات، بل برودة أسِرّة غرف نومنا! وليس ندرة الورد، بل اختفاء الذين يقدمونه إلى أحبّتهم.

10. من هذه السّنة تعلّمت أنّ الاهتمام أهم من الحب، وأنه لو خيّروني بين شخص يحبّني وشخص يهتم بي لاخترت الشّخص الذي يأسرني باهتمامه، فلا فائدة من حب بلا اهتمام. وانّ الاهتمام يصنع من الحب شيئًا عظيمًا، وأنّ النّاس يجفّون من قلة الاهتمام كما يجفّ الزرع من قلة الماء.

11. من هذه السّنة تعلّمت أيضًا أنّ البيوت الكبيرة والقصور ليست إلّا قبورًا دُفن فيها النّاس أحياء، وأنّ كثيرًا من الأساور والقلائد الذهبيّة ليست إلّا أغلالًا وقيودًا في أيدي النّساء ورقابهنّ ممّن يملكن كل شيء إلّا طعم الحب والحنان والاهتمام.

12. منها تعلّمت أنّ المال أفضل خادم وأسوأ سيد، وأنه إذا وُضع فوق الرأس خَفَضَ، وإذا وُضِع تحت القدم رَفَعَ.

13. ومنها تعلّمت أنّ المال يشتري الدواء ولا يشتري الصّحة، يشتري السّرير ولا يشتري النّوم، يشتري النُكتة والطُرفة ولا يشتري الضحكة وهداة البال.

14. منها تعلّمت أيضًا أنّ المرأة هي عماد المجتمع، فهي الزوجة والأم والخالة والعمّة والبنت، وأنّ المرأة في بعض المواقف تساوي ألف رجل! وأنّ المرأة أنثى مع زوجها ورجلٌ مع غيره! فهي نصف المجتمع وهي التي تلد وتربّي النّصف الآخر.

15. من هذه السّنة العصيبة تعلّمت أنّ العدل بين الأبناء مطلب ضروري، وأنّ الآباء يوغرون صدور أبنائهم على بعض

دون أن يشعروا، وأنّ بعضهم يُفضّل بعضهم على غيره دون سبب أو بسبب، ومنها تعلّمت أنّ تربية الأبناء أهم من تكوين المال وبناء القصور وشراء السّيارات الفاخرة.

16. من هذه السّنة تعلّمت أنّ القوّة دون أمانة تعتبر استبدادًا، وأنّ الأمانة دون قوة لا تقوم لها على الأرض دولة.

17. وتعلّمت منها أنّ الوطنيّة الحقيقيّة ليست في الخطب الرنّانة، والادعاءات الفارغة، لكنها في تلك الممارسات الصّغيرة التي تعترضنا كل يوم وتضع حبّنا للوطن على المحك.

18. كما تعلّمت منها أنّ الخير والشرّ ليس في الأشياء، وإنّما طريقة استخدامنا لها.

19. وأنّ من طبائع الانسان أن يدافع عن اخطائه بشراسة أكثر ممّا يدافع عن صوابه.

20. ومن هذه السّنة تعلّمت أنّ في السّجن مظاليم كثرًا، وأنّ النّاس قد يدخلون السّجن عقابًا على عدم ارتكابهم الذنب، وأنّ الحرية مطلب لكل حي يسعى على الأرض، وأنّ الظلم قديم في النّاس.

21. ومنها تعلّمت أيضًا أنّ المناصب تكليف لا تشريف، وأنّ الفساد يكون غالبًا من سوء الإدارة لا من قلّة الموارد، فنحن بحاجة إلى عقليّة جديدة من الإدارة والسّلطة ليرتقي المجتمع مثل باقي شعوب العالم المتنوّر.

22. في هذه السّنة تعلّمت أنّ القائد الفذ لا يضع نفسه في موضع أن يكسر من معه أو يكسروه، فإنّه إن كسرهم تبعوه بعد ذلك على بُغض، وإن كسروه ضاعت هيبته، لذلك علينا ألّا نوصل الأمور إلى مفترق طرق لئلّا نكسِر أو نُكسَر.

23. منها تعلّمت درسًا أنّ العالم مليء بمنافقي السّلطة والمنصب، وأنّ أصحاب المناصب سيعرفون عندما تزول مناصبهم أنّ هذا التوقير والتبجيل لم يكن لهم إنّما كان للكراسي التّي يجلسون عليها، لا مجد للنّاس المجد للكراسي!

24. من هذه السّنة تعلّمت درسًا أنه ليس من العيب أن نخطئ، وإنّما أن نستمر بالخطأ.

25. تعلّمت أنّ علينا أن نسعى إلى المناصب، وأن نجمع المال، وأن نحقق مركزًا مرموقًا، وأن نكون ناجحين مميّزين، لكن ألّا ننسى الصعود بالأخلاق، وأن نرفق بالذين سنقابلهم في طريق صعودنا وأن نتذكر أن لا أحد يبقى في القمّة.

لا يصح أن ننهي حديثنا بدون طرفة:

يُحكى أنّ رجلًا أصابه فالج فأقعده، والمثل يقول: "فالج لا تعالج"، وكان الرّجل ملحاحًا كثير التذمر لا يستقر على حال ولا يهدأ له بال، فابتكر أولاده طريقة لتسليته، وهي أنّهم استأجروا أحد رُواة القصص ليجلس إليه باستمرار ويسلّيه بما

عنده من قصص وأخبار، لقاء نصف ليرة في النّهار، إلى أن أخذ الله منه أمانته فأراح واستراح....

حدث بعدئذٍ أنّ رجلًا آخر في القرية شاخ وأقعده عجزه عن الذهاب والإياب، وكان كثير الكلام يسعده أن يجد من يصغي إلى أحاديثه باهتمام، ففطنت زوجته إلى الراوي نفسه ودعته وقالت له: "دفع لك الجماعة نصف ليرة في النّهار لقاء أحاديث متواصلة كان عليك أن تجتهد لتدبيرها وأن تتعب في سردها، أما أنا فكل ما أطلبه منك أن تجلس فقط إلى زوجي وتصغي إلى أحاديثه، بدون عناء، وأدفع لك الأجرة نفسها.

فقبل الراوي، وباشر عمله بالجلوس والإصغاء إلى الرّجل الذي صدف أنّ لسانه كان لا يزال سليمًا مُعافى، دون سائر أعضاء جسمه... وهكذا بدأ الرّجل يتكلم بدون انقطاع، فيأخذ الراوي ويردّه، ثم يعيده بالحديث إلى حيث بدأ به ثم يسأله: "أين صرنا بالكلام"؟ فيبدأ القصة أحيانًا من طرفها ثم يعود إلى أولها... "وفُتناك بالكلام"..."ونرجع لموضوعنا"..."وبلا مؤاخذة من حضرتك "... "ونعود إلى السّابق"... "ويرحم بيّك"...

ولم تكد تمر ساعة من الزمن حتى ضاق صدر الراوي وفرغ صبره، فنادى زوجة الرّجل وقال لها: "بدي أعرف مين

حَـدّدلك سـعر السّـكوت مثـل سـعر الحكـي؟! اسـتلمي زوجـك! أنا رزقي على الله"...

أرجـو أنـني لم أسـبب لكـم الضّـيق بكلامـي كمـا حـدث مـع الراوي.

"من غشّنا فهو منّا"

انتشرت مؤخّرًا ظاهرة الغش في امتحانات البجروت والتوجيهي. ظاهرة غش علنيّة، والأدهى من ذلك أنها لاقت تفهّمًا واستحسانًا في بعض الأوساط وخاصة الشّباب الذين يرون بذلك شجبًا واستنكارًا لمنهاج التوجيهي العقيم.

أما الآخرون، وهم الأغلبية، فقد استنكروا هذه الظاهرة وادّعوا أنها تزعزع أركان مجتمعنا العربي وتنشر ظاهرة الفساد بين الشباب والجيل الصّاعد.

تحدثت سابقًا في إحدى مقالاتي عن الشّخصيّة "الفهلويّة"، وذكرت أنّ هذا النمط من الشّخصيات سائد في مجتمعنا العربي وهو في الغالب يؤدي إلى التّخلّف الاجتماعي والابتعاد عن التّفكير العلمي وهو السّبب في الهزائم التي مُنِيَ بها العرب على جميع الأصعدة.

من سمات هذه الشّخصيّة: البحث عن أقصر طرق النّجاح، لا بل التّحايل من أجل الوصول لهدف ما، هكذا يتصرف الطّالب العربي في المدرسة وفي الجامعة فهو لا يجدّ ولا يجتهد ويتّكئ على جهود الغير.

وهذه الظّاهرة منتشرة وبكثرة اليوم خاصّة عن طريق استخدام الانترنت في المجتمعات الأكاديميّة العربيّة مثل: تجارة الأبحاث والوظائف التي أصبحت تجارة رائجة بين الطّلاب الجامعيين، فاليوم لست بحاجة إلى أن تجلس في المكتبة وتتعب عينيك وتوجع ظهرك، فهناك من يقوم بذلك بدلًا منك مقابل أجرٍ تتفقّان عليه، أمّا إذا كنت فقيرًا فإنك تكتفي ببحث تجده في الانترنت أو من زميل لك أو قريب سبق ودرس هذا المساق، آملاً أن تكون ذاكرة المحاضر ضعيفة فلا يتذكر البحث، أو أن يكون من المحاضرين الكسالى الذين لا يفحصون أبحاث طلّابهم ويضعون العلامات بصورة عشوائيّة، تخيّلوا أي معلّم أو مهندس هذا سيكون في المستقبل، وأيّ مدير سينشأ وأي جيل سيتربى ويترعرع عند هذا الطّاقم المُدمج بالشّهادات، الخالي من القدرات، والمواهب، والمسؤوليّة، والقيم...

ما علينا! لكن السؤال الذي يطرح نفسه هُنا، هل مجتمعنا هو مجتمع مبني على الغش والخداع؟ هل نحن مجتمع شعارات فقط بدون تطبيق؟ هل قيمنا هي عبارة عن "توصيّة" فقط؟

لا أخفي عليكم أنني ولأول مرة أكتب وأنا متخوّف ممّا سأقوله، لست أعني بذلك خوفي من شخص أو أشخاص، إنّما الخوف ممّا آلت إليه حالنا. يُقال أنّ المعرفة قوّة، ولكنني أشعر في هذا الموقف، أنّ المعرفة ضعف وتخاذل وخيبة أمل...

أشعر أننا نربّي أبناءنا على الغش والخداع بدون أن نشعر بذلك، قد يكون ذلك بدون قصد، أو من منطلق محبّتنا لأبنائنا وبناتنا.... لا يمرّ يوم بدون أن أتلقّى مُهاتفة من شخص يطلب منّي مساعدته في إيجاد عمل في مجال التّعليم، قد يرى البعض في ذلك مجرّد طلب مساعدة أو معروف، ولكن إذا تمعّنا في ذلك فإنّ الأمر يعني ترجيح الكفة لصالح شخص دون شخص آخر أو على حساب شخص آخر ينتظر دوره منذ زمن بعيد لكي يتوظّف...

انظروا إلى حياتنا اليوميّة: أصحاب المهن يغشّون، معظم مواعيدهم أشبه بمواعيد "عرقوب" العلاقات بين النّاس مبنيّة على المصالح، عمق صداقاتنا تُقاس بعمق مصلحتنا، حتى الحب والزّواج أصبح مبنيًّا على المصلحة والاستفادة...

نحن ننظر إلى الواسطة أو المساعدة على أنّها شيء جيّد، ولكنّها بالأساس عبارة عن فساد لكننا لا نستطيع القضاء عليها، لأنّ القضاء عليها يعني القضاء على الكثير من العلاقات الاجتماعيّة في مجتمعنا المبني على المصلحة المشتركة أو كما يقول المثل الشّعبي: "حُكِّلي تأحُكّلك"...لنعد إلى غش الطّلاّب في الامتحانات، ماذا نتوقّع من طالب تعوّد طوال حياته على الغش في الامتحان؟ ألم نعوّدهم على ذلك عندما كان المعلّمون يساعدون الطّلاب في الامتحانات

الوزاريّـة؟ ألم نشـعر حينهـا أننـا الممتَحَنـون ولـيس الطّـلاب؟! مـاذا نريـد مـن طلّابنـا إذا كـان المعلّمـون هـم مـن يـدخل إلى قاعـات الامتحـانات ويقومـون بحـل الأسـئلة للطّـلاب كـي تحصل المدرسـة علـى أعلـى النّتـائج؟ ألم نفعـل ذلـك لكـي تبقـى المدرسـة في الصّـدارة بـين المـدارس الأخـرى ضـاربين القـيم والأخـلاق والنّزاهـة عـرض الحـائط؟ ألم يـرَ الـبعض منّـا أنّ مسـاعدة طلّابنـا في الامتحـانات هـي عبـارة عـن "مهمّـة وطنيّـة" هـدفها إدخـال أكـبر عـدد مـن طلابنـا إلى الجامعـات، وبـذلك نسـاعدهم علـى العمـل والعـيش "بشـرف" في مجتمـع نحـن فيـه أقليّـة؟ ألم نكـن، كطـلاب، نتبـاهى بالغـش دون ان يـتم القـبض علينـا؟ ألم نكـن نُـدَرّج المـراقبين مـن معلمينـا كـلٌ حسـب درجـة صـعوبة مراقبتـه ونتمـنى ألا يكـون مـن نصـيبنا؟ ألم نخـبر طلابنـا أنّ النجـاح هـو الهـدف بغـض النظـر عـن الوسـيلة؟ ألم نعـدهم بالهـدايا والجـوائز إذا نجحوا، وهددناهم بالخزي والعار إذا فشلوا؟

هنـاك الكثـير الكثـير مـن الأمثلـة الـتي لا تُحصـى والـتي تـدعونا إلى إعـادة فحـص قيمنـا وأخلاقنـا مـن جديـد، تعـالوا لا نسـتغرب حـدوث هـذه الظـواهر الـتي بـدأت تطفـو علـى السّـطح لأنهـا كانـت مخفيّـة نتيجـة خوفنـا، نحـن في الجيـل القـديم، والـتي بـدأت تظهـر جَليًّـا علـى يـد جيـل لا يعـرف معـاني الخـوف والمجـاملات ولا حتى الاحترام...

وهل يمكن أن تخلو مدونتنا من الطرفة؟

حدثني أحد المراقبين في الامتحانات قال: كنت أراقب في لجنة مادة التربية الإسلامية، وتصادف وجود أحد الممتحنين وهو أخٌ لصديق عزيز لي، وقام صديقي بالتوصية عليه طالبًا مني مساعدته عند الحاجة....

أنهى جميع الطلاب الامتحان وخرجوا من القاعة إلّا هذا الطالب، حيث استعصت عليه الاجابة عن سؤال نصّه: أُذكرْ ثلاثة أنبياء من أولي العزم؟ فاقتربت منه وحاولت مساعدته، رغم الإحراج ووجود باقي المراقبين، ووضعت إصبعي على مكان الإجابة وقلت له اكتب أسماء أخوالك.

وكان عنده من الأخوال: إبراهيم وموسى وعيسى.... وعندها كتب الطالب: خالي إبراهيم وخالي موسى وخالي عيسى....

يقال إنَّ الأستاذ قد ترك التدريس وقام بفتح بسطة جرابات وملابس على الدوّار..

ملح الأرض

لم أكتب مدوّنتي منذ فترة "فترة بدت لي للوهلة الأولى طويلة"، قد يعود السّبب إلى الملل أو إلى قلة المواضيع التي لم نتطرق إليها....

لقد فكّرت طويلًا في موضوع مدوّنتي، وترددت أكثر، فهناك مواضيع لا أكتب فيها لحساسيّتها عند الكثير من النّاس، من هذه المواضيع هو موضوع الدّين، موضوع شائك بحدّ ذاته بين أفراد الدّين الواحد، فما بالك بما يخصّ الأديان الأُخرى...نعم صحيح! ... شيرين أبو عاقلة، لقد كُتب الكثير عن الموضوع كما سيُكتب الكثير في المستقبل، فما زال التحقيق قائمًا ولن ينتهي قريبًا.

عرفت شيرين منذ ما يقارب الثلاثين عامًا عندما كنت مدرّسًا للّغة العبريّة في الجامعة العبريّة في القدس، وكانت شيرين إحدى طالباتي، لا لا أنا لا أعرفها جيّدًا، فقد كانت فتاة في بداية العشرينات ولقاءاتنا كانت تنحصر على درسين في الأسبوع، لكن يمكنني أن أقول إنها حسب ما أذكر، كانت فتاة هادئة، تتحدث فقط إذا سألتها، لكن من بين هذا لم أعرف أنّ شيرين كانت مسيحيّة، لقد عرفت هذا عندما سمعت أنها قُتلت وأنّ الصّلاة ستكون في

الكنيسة...مسـيحيّة؟! ، يا للهـول؟! ، قبـل أن أخـوض في هـذا الموضـوع أودّ أن أذكـر حـادثتين سمعـت إحـداهما مـن صديق والأُخـرى مـن خـلال وسـائل الإعـلام، الأولى حـدّثنا بهـا صديقٌ لنـا كـان قـد سـكن في إحـدى الـدول العربيـة، ذكـر هـذا الصّـديق أنّ أحـد اصـدقائه المقـربين قـد تـوفّي وتفاجـأ هـذا الصّـديق بأنّ المتـوفّى كـان مسـيحيًّا وانـه عـرف ذلـك عنـدما اعلنـوا عـن مكـان الصـلاة، (هـذه الحادثـة كانـت في سـنوات السـبعينات مـن القـرن الماضـي)"، أمـا الحادثـة الثّانيـة فقـد سمعتهـا مـن أحـد رجـالات الدّولـة في إحـدى الّـدول، قـد تكـون العـراق أو سـوريا، حيـث ذُكـر أنّ أحـد الـوزراء الجـدد كـان قـد تقـدّم لأداء يمـين الـولاء في وزارة جديـدة، فمـدّ لـه سـكرتير الدّولـة القـرآن الكـريم ليقسـم عليـه، فـرفض الـوزير ذلـك أمـام اسـتغراب الحاضـرين، فعنـدما سـألوه عـن الموضـوع قـال إنـه مسـيحي ويجـب أن أحلـف علـى الإنجيـل، قـد تكـون هـذه القصـة غـير واقعيّـة لأنـه لـيس مـن المعقـول ألّا تعـرف مخـابرات هـذه الدّولـة أنّ أحـد الـوزراء مسـيحي، لكنّهـا تحمـل في طيّاتهـا رمزيّـة حـول مـا كانـت عليـه أوضـاع الشّـعوب العربيّـة في الماضـي وخاصّـة أيام القوميّـة العربيّـة والنّاصريّة....

لنعـد إلى موضـوعنا، كلّنـا نعـرف قنـاة الجزيـرة والجـدل الـذي يـدور حولهـا منـذ إقامتهـا وحـتى يومنـا هـذا، لكنـني أعـرف أنّ شـيرين أبـو عاقلـة لم تكُـن صـحفيّة بالمعـنى التقليـدي للكلمـة، فشـيرين

كانت مختصّة في الشّأن الفلسطيني، ونحن نعرف أنّ الاختصاص بالشؤون الفلسطينيّة يحتّم عليك كصحفي أن تأخذ جانبًا، فأنت لا تستطيع أن تبقى محايدًا.... شيرين لم تكُن صحفيّة محايدة، وقد يكون هذا الأمر أحد أسباب اغتيالها، كانت شيرين صحفيّة حاملةً لهموم شعبها بصورة أُحاديّة الجانب، فهي ابنة هذا البلد ولا يمكنها أن تكون حياديّة بأي شكل من الأشكال، لكن ما يمكنني قوله إنّها كانت مهنيّة من الدرجة الأولى، الأمر الذي أنسى عند البعض كونها مسيحيّة.

لا تفهموني بصورة خاطئة فأنا أحترم كل شخص بغض النظر عن هويته الدينيّة... لكنني بصراحة لم أستغرب من الحملة الهوجاء التي شنّتها فئة قليلة من النّاس، فئة رغم قلّتها إلّا أنّها وجدت أرضًا خصبة لطرحها، هل نحن عنصريون؟! نعم نحن كذلك....

فهذا مسلم وهذا مسيحي وذلك دُرزي وبدوي وتلك فلّاحة ومدنيّة وخليليّة وغيرها الكثير من الصّفات الإقليميّة والعرقيّة والجغرافيّة... الخ.

وأهم ما في الأمر هو أنّنا نبذل كل جهد لنجد الفوارق بيننا...

لقد سكنت خلال دراستي الجامعيّة مع طلّاب مسيحيين، وعملت مع معلّمين ورجال تربية مسيحيين، أعترف أنني قد أحببتهم واحترمتهم وفي كثير من الأحيان فضّلتهم على أبناء ديني لأنهم كانوا أهلاً لذلك واستحقوا كل تقدير ومحبة، سينتقدني البعض بقوله " إنّ المسيحيين عنصريون"، قد يكون الأمر كذلك، لكن علينا ألّا ننسى أنّ هذه صفة كل أقليّة عرقيّة أو دينيّة في كل مكان، فالمسيحيّون في بلادنا أقلّيّة، " أقلّيّة صغيرة،" تحاول أن تُحافظ على خصوصيّتها وعلى وجودها في بلادٍ تكثُر فيها الدّيانات والأصول والطوائف، لذلك أنا أحترم جهودهم في المحافظة على خصوصيّتهم وتقوية العلاقات الاجتماعيّة والاقتصادية فيما بينهم، سيثور البعض منكم على كلامي هذا وسيقولون أنني أبالغ، وأنني منحاز للمسيحيين لأسباب خفيّة، لكنني أرفض هذا التّوجه رفضًا تامًا...

دعوني أسألكم: من منّا لا يُريد جارًا مسيحيًّا له؟! من منّا لا يُريد مستأجرًا مسيحيًّا لبيته أو شقته؟! مستأجرًا يدفع أُجرة البيت ويُحافظ على علاقته معنا بأدب واحترام، من منّا لا يُريد أن يُرسل أولاده إلى مدارس مسيحيّة؟! من منّا لا يتباهى أنّ أولاده يدرسون بمدرسة الفرير أو الورديّة أو المطران؟! لنكُن صرحاء مع أنفسنا، سبعون بالمئة من طلّاب المدارس المسيحيّة هم من المسلمين... كم واحد منّا يبحث له عن "واسطة"

ليضُم أولاده في صفوف هذه المدارس ذات المستوى العالي والتّربية الرّاقية، هل تأتمنونهم على تربية وتعليم أولادكم، أغلى ما عندكم، وتستكثرون عليهم رحمة الله؟!

اتركوا المدارس جانبًا، ابتعدوا عن البيوت والسكن، واسألوا أنفسكم السؤال التّالي: من هم أكثر النّاس حماسًا لإشعال شجرة عيد الميلاد؟ من هم غالبيّة المحتفلين برأس السّنة الميلاديّة؟ وغيرها من العادات من شجرة عيد الميلاد وحتى بابا نويل....

دعوني أقولها بصوتٍ عالٍ: إننا بحاجة إلى وجود إخواننا المسيحيين بيننا فهم ملح هذه الأرض، نحن بحاجة إليهم أكثر من حاجتهم إلينا، فنحن الأغلبيّة وهم الأقليّة، بتعاملنا معهم تظهر قوّة مجتمعنا وصلابته أمام الهجمات الداخليّة والخارجيّة... بهم نعزّز وحدتنا ونحترم اختلافاتنا...

" فلاتر"

حدّثني صديقٍ قديم قال: لديّ ابن وحيد، وصل سنَّ الزواج، ولد ناجح في عمله ولديه مكتب كبير في مركز المدينة... أردنا أنا وأمه أن نجد له شريكة حياة، زوجة من عائلة محترمة من مستوانا الاجتماعيّ والفكريّ... قامت زوجتي بزيارة بعض البيوت سعيًا وراء الزوجة المنشودة، رغم استياء ابننا الذي أراد اختيار عروسه بنفسه دون تدخّل العائلة. صادف أن تعرّف ابني على فتاة جميلة من خلال "الانستغرام" حيث قامت هذه الفتاة بنشر صورها عليه....

أجرى ابني بعض المحادثات مع البنت وقرّر لقاءها على أمل أن يتفقا على الارتباط بعلاقة زوجيّة مقدّسة.... قرّر ابني، قبل لقائه مع الفتاة، أن يفاتحنا بالموضوع.

قام ابني بعرض صورة العروس عليّ وعلى أمه، رأينا فتاة جميلة جدًا، بيضاء البشرة زرقاء العينين، طويلة الشّعر.... باختصار الفتاة المثاليّة من ناحية الشكل، ذهب ابني ذات مساء للقاء هذه الفتاة في أحد المقاهي في المدينة وبقينا أنا ووالدته ننتظر عودته على أحرّ من الجمر.... بعد ساعة وربع عاد ابننا ودخل إلى غرفته فورًا... دخلنا أنا وأمه وراءه لنعرف ماذا

حدث ولماذا عاد بهذه السّرعة، وعندما سألناه ما السّبب نطق ابننا كلمة واحدة لا غير: "فلاتر"...

لا حاجة للتّوضيح، فقد كانت الصّور كلها مزيّفة بتأثير التكنولوجيا، وهذا ما قصد به ابننا عندما قال "فلاتر"، فالفتاة كانت بعيدة كل البعد عن الصّور التي ظهرت بها في الانستغرام...

في الحقيقة أنا لا استغرب ذلك فكثيرًا ما أرى فتيات يعملن معي يظهرن بصور على "الفيسبوك والانستغرام"، وكأنّهن ملكات جمال العالم، لدرجة أنني لا أتعرف عليهنّ وأفرك عينيَّ كي أتأكد من الأسماء وأتساءل هل المعقول أنها بهذا الجمال؟

هل أصبحت حياة الكثيرين منّا عبارة عن كذبة كبيرة؟! صورنا "المفلترة" على منصّات التواصل الاجتماعي، العدسات اللاصقة على العيون التي تتقلب فيها الألوان الشّرقيّة إلى الغربيّة، والشّعر الأشقر الطّويل حتى تظن أنّها من سلالة ملوك السّويد والكثير من الأمور التي لا أعيها ولا أفهمها... الكذب يكون إمّا بتزييف الحقائق كليًّا، أو جزئيًّا، أو خلق روايات وأحداث جديدة لتحقيق هدف معيّن قد يكون ماديًّا ونفسيًّا واجتماعيًا.... عندما سُئِل الزّعيم الهندي "غاندي" عن أخطر انسان في الحياة قال: "الكذاب"، وقال كذلك: "أنا أتقبّلك ناقصًا لكن لا أتقبّلك كذابًا".... هل أصبحنا

كذابين؟ ماذا بالنّسبة لعلاقاتنا الاجتماعيّة وضحكاتنا المزيّفة؟ أقوالنا التي نجامل النّاس بها، المدائح التي نكيلها على رؤسائنا في العمل؟ صورة المرأة مع زوجها الذي تكرهه ولا تطيقه ورغم ذلك تمسك بيده وتبتسم في الصّورة المعنونة "حبيب العمر"، الأزواج والزّوجات الذين يسجّلون أسماء أزواجهم في التلفونات: "حياتي"، "تاج الراس"، "عمري"، "روحي".... ماذا بالنّسبة لأقوالنا التي لا تترجم أفكارنا؟ نعيش كذبة وراء كذبة لنرضي الآخرين.... هل أصبحنا كذّابين لنكون مقبولين في مجتمع شرطٌ فيه أن نكون كذّابين، كم منّا ومنكم نخاف أن نقول ما نفكّر فيه؟! سيقول البعض أنّ الكذب في هذه الحالات مقبول وهو عبارة عن استراتيجيّة مشروعة كي نستمر في الحياة، إذ إنّه لو اكتشف الآخرون الحقيقة لكان الأمر خطيرًا لأنّ الحقيقة مخيفة ولا يستطيع الكثيرون التعامل معها...

سأل رجل زوجته: "هل تحبينني"؟ فلم تجبه، فألحّ في السؤال وأقسم عليها أن تجيب، فقالت له: "لا أحبك"، فذهب الرّجل إلى الخليفة "عمر بن الخطّاب" شاكيًا باكيًا، استدعى "عمر بن الخطّاب" الزّوجة وسألها عن الموضوع فقالت: "إنه أقسم عليّ أن أجيب، فهل تريدني أن أكذب"؟! قال لها عمر: "نعم، اكذبي في سبيل الإبقاء على الزّواج والعائلة"....

حياتنــا كذبــة كبــيرة نمارســها بكــل صــدق وأمانــة ونعــيش تفاصــيلها ونطبّقهــا، كقــول المثــل الشّــعبي "كــذّب الكذبــة وصــدّقها"، وعنــدما يضــيّق الخنــاق نــدّعي أنّهــا بيضــاء ونقيّــة ونبتســم، لكــن الجميــل أنّ الكــذب لــيس لــه أرجــل وســرعان مــا ينهــار ويفضــح صاحبه لأنّ الذاكرة تخون الكاذب غالبًا...

دمتم بلا "فلاتر"

رمضان ممنوع من الصرف

ها نحن على أبواب شهر رمضان الكريم، شهر العبادة والصّلاة شهر التّوبة، الشهر الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للنّاس، الشّهر الفضيل، تعالوا ندخل إلى الموضوع مباشرة بدون لف أو دوران...

لا شكّ لدى الجميع أننا نعيش أيامًا عصيبة، صعبة سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا .... أوضاع تزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ، بل ساعة بعد ساعة، وأنظار الجميع تتجه نحو شهر رمضان كامتحان لنا جميعًا في هذا البلد....

لدي إحساس، كما لدى غيري من النّاس، أنّ رمضان هذه السّنة سيكون مختلفًا عمّا سبقه من سنين.... لا شكّ لدينا أنّ رمضان قد فقدَ في سنوات الكورونا اللعينة، شيئًا من قيمته اجتماعيًّا... حيث قلّت زيارات النّاس لبعضهم بعض والتزمنا جميعنا بيوتنا، وهجرنا الجلسات والجمعات الكبيرة والعزائم وغيرها من المظاهر التي تميّز بها هذا الشهر الفضيل.... وممّا لا شكّ لدي أنّ للعوامل السياسيّة والاقتصاديّة التأثير الأكبر على هذه المظاهر الاحتفاليّة التي طالما انتظرناها طويلًا....

هناك جملة تتردد في ذهني منذ أيام ولا تُغادرني، بل تترسخ أكثر وأكثر يومًا بعد يوم... هذه الجملة مفادها: "ارفعوا

أيـديكم عــن شــهر رمضــان". عنـدما أقـول: ارفعـوا أيـدكم عــن هـذا الشّـهر الفضـيل فـإنّ واو الجماعــة تعـود إلى كــل مــن تسـوّل لــه نفســه بالمسّ بهــذا الشّــهر المبــارك، الشّــهر الــذي يرمــز إلى الكثـير الكثير مــن الــذكريات والأُمنيــات لــدى الكبــير والصّــغير... ارفعـــوا أيـــديكم تعــود إلى الجهـــات منهـــا المســلمة وغـــير المسـلمة.... ارفعـوا أيـديكم ودعـوا الخلـق للخـالق، فــنحن بأمــس الحاجــة إلى هــذا الشّــهر... إننــا نريــد رمضــانَ مختلفًــا آخــر، نريــده لنا ولعائلتنا....

إنّ النّــاس يعيشــون في أزمــة معيشــيّة صــعبة، يــئنّ النّــاس مــن قســوة المصــاعب الاقتصــاديّة، مـــن غـــلاء في الأســـعار، والأكــــل، والشّـــرب، والوقـــود..... يبكـــي النّـــاس بصـــمت دون دمـــوع حيــث تنظــر إلــيهم يجلســون أمامــك واجمــين ســارحين مقهــورين، بالهــم مشــغول في كيفيــة تأمــين لقمــة العــيش، أو علبــة الحليــب لأطفـــالهم، أو تســـديد مصـــاريف الدّراســـة لأبنـــائهم أو دفـــع الفــواتير المتراكمــة يومًــا بعــد يــوم أو ديــون متــأخرة تنتظــر مــن يقــوم بدفعها وتسديدها....

السّـــؤال الـــذي يـــراودني منـــذ أيام، كمـــا يـــراود الكثـــيرين غـــيري مـــن النّـــاس، وهـــو: أي رمضـــان نريـــد؟ أي رمضـــان نرغـــب؟ وإلى أيّ رمضان نسعى؟

نريد رمضان آخر، نريد رمضان لا نتحدث به عن الأكل والشّرب أو الفضائل.... نريد رمضان يخفف عن النّاس متاعبهم، لا رمضان يثقل على كاهلنا.... نريد رمضان خاليًا من احتكار للسّلع التجارية على يد من لا ضمير لهم ولا هدف لديهم غير الرّبح السّريع... نريد رمضان نشعر فيه ببعضنا البعض... نريد شهرًا من التراحم بين النّاس... رمضان نرى فيه التّكافل الاجتماعي على أرض الواقع، وليس على منصّات التّواصل الاجتماعي فقط... نريد تكافلًا ينتشل الفقراء والمحتاجين من هذه الأزمات والمصاعب. نريد أن يأكل الآخرون كما نأكل، أن يشتروا كما نشتري، أن يسدّوا احتياجاتهم كما نفعل نحن أيضًا....

نريد شهرًا فضيلًا بدون المحتكرين والفاسدين، بدون المفسدين في الأرض الذين يزيدون همّنا همًا جديدًا.....

نريد رمضان نتحدث فيه أنّ المعاملة من الدين، وإنّ الدّين ليس صلاة وصيامًا وعبادة فقط. الدّين معاملة وأخلاق، محبّة ووئام....

نريد رمضان نتحدث به عن فضل من يسامح في حقه، إن كان ميسورًا. أن نذكر به فضل من يُدخل السّرور إلى قلب إنسان يُعاني الحرمان... نريد رمضان يُعبّر عن فضل من يُطعم الجائع ويكفي حاجة المحتاج....

نريد رمضان تتعزّز به أواصر الصّداقة والمحبة بين النّاس عامة، وبين أفراد الأسرة خاصة، نريد رمضان يعيد لنا قيمة وقدسيّة العائلة، رمضان للأخوة والأخوات، رمضان صلة الرّحم. نريد رمضان للأخوات وأبنائهن المتعطّشين لأحضان اخوتهنّ وأخوالهم، أخوات باحثات عن السّند والدّعم، منّا نحن الإخوة....

نريد رمضان معتدلًا بالأكل والولائم المفرطة... السّاعية لإظهار عمق جيوبنا، اللاهثة وراء "الجخّة" والغرور وإرضاء الذّات والغير.... الولائم التي تذهب معظمها إلى حاويات القمامة... دعونا نكف عن هذا التبذير والإسراف وأن نضع لأنفسنا الحدود والقيود وألّا نهدر مواردنا وأن نضعها في المكان والزّمان الصحيحين.... دعونا نتجاهل "إنجازاتنا" الكبيرة بكل ما يخص "أكبر صحن مجدرة"، "وأكبر طبق كنافة"... لنبق هذه "الإنجازات" بعيدًا عن شهر رمضان....

نريد رمضان بعيدًا عن المشاكل والمشاجرات والمشاحنات بين النّاس وبين أفراد العائلة.... نريد رمضان عنوانًا للتسامح وضبط النّفس، رمضان زمان الذي كانت تقلّ فيه المشاكل، حتى تختفي.

نريد رمضان يعود فيه أبناؤنا إلى البيت سالمين.... نريد رمضان خاليًا من الاعتداءات بعيدًا عن السّياسة ومتاعبها.

رمضـــان بـــدون عنـــف.... رمضـــان يأتي فيـــه الزائـــر إلى القـــدس ليصلّي ويتعبّد ويعود إلى أهله سالمًا غانمًا...

نريـــد رمضـــان منعشًـــا لاقتصـــادنا المحلّـــي، رمضـــان يعطـــي الفرصـــة لكـــل فـــرد وفـــرد لـــيربح مـــن عـــرق جبينـــه... رمضـــان يعـــود بالفائـــدة علـــى المصـــالح الصّـــغيرة، علـــى بائـــع الحمـــص والفلافـــل، علـــى صـــاحب البســـطة المتواضـــعة في زاويـــة الطّريـــق، علـــى بائـــع الحلويات وبائع العصائر....

نريـــد رمضـــان خاليًـــا مـــن ازعـــاج "الفُتّـــيش والمفرقعـــات" الخطـــرة، والسّيارات المزعجة في الليل وساعات الفجر.....

نريـــد رمضـــان آمنًـــا يعيـــد لنـــا ذكـــريات الماضـــي والطّفولـــة، ذكـــريات المســـحّراتي الملتـــزم المـــؤدب الـــذي يـــؤدي واجبـــه بكـــل حـــب واحـــترام، لا نريـــد مســـحّراتي "يتولـــدن" في ســـاعات الفجـــر ليـــزعج النّاس من شيوخ وأطفال وعمّال يرقدون بأمن وسلام.....

نريـــد رمضـــان يُراعـــي الجـــار القريـــب والبعيـــد، رمضـــان المحبّـــة والعطف والحنان. أعيدوا لنا رمضاننا الذي عهدناه.....

أعيـــدوا لنـــا رمضـــان الفرحـــة والسّـــرور، أعيـــدوا لنـــا رمضـــان الـــذّكريات الجميلـــة، أعطـــوا لأبنائنـــا فرصـــة ليعيشـــوا أجـــواء رمضـــان الـــتي عشـــناها نحـــن في الماضـــي، دعـــونا نســـتقبل عيـــدنا بـــدون أن نفقـــد أحـــد أبنائنـــا أو بناتنـــا.... أعيـــدوا لنـــا رمضـــان السّـــلام

والمحبّة، وهل يصح أن نختتم كلامنا بدون طرفة لرسم الابتسامة على وجوهنا؟! ضاع حمار أحد الرّجال، فخرج إلى الجبال والوديان باحثًا عنه... فلمّا فقد الأمل في العثور عليه، رفع يده إلى السّماء ونذر إلى الله قائلًا: إذا وجدته فإنني سأصوم ثلاثة أيامٍ شكرًا لله، وبعد أيام قليلة وجد الرّجل حماره فأوفى بنذره وصام ثلاثة أيام متتالية.... وما إن أكمل الرّجل صيامه فإذا بالحمار يموت فجأة وبدون أي مقدمات، فغضب الرّجل غضبًا شديدًا وقال: والله لأخصمنها من شهر رمضان.

- ملاحظة: كلمة رمضان هي كلمة ممنوعة من الصرف نحويًا.

أن تكونَ سمينًا!

- "هـــاي هـــاي انـــت يا ناصـــح! " بادرني بهـــذه الكلمـــات... نظـــرت حولي، لم يكُن أحد غيري بالجوار"....
- "هل تتحدث معي؟!".
- "نعم معك، هل ترى أحدًا غيرك".

لـــن أصـــف لكـــم نهايـــة الحـــدث، لكـــن أقـــول لكـــم انّ نهايتـــه لم تكـــن سـعيدة، بأقـــل تقـــدير للشّـــخص الـــذي تحـــدّث معـــي، أنـــتم تتسـاءلون مـــا الغريـــب في هـــذا الأمـــر؟ لقـــد شـعرت بالإهانـــة، لقـــد جرحني كلامه، مسّني بأن نعتني بهذا الوصف.

لقـــد بـــدأت منـــذ أســـبوعين باتّبـــاع نظـــام حميـــة "ريجـــيم" للمـــرّة الخمســـين أو أكثـــر في حيـــاتي، حميـــة بعـــد حميـــة حـــتى أصـــبحت حيـــاتي كلّهـــا عبـــارة عـــن حميـــة تلـــو الأخـــرى.... أنا لســـت الوحيـــد الـــذي يفعـــل هـــذا الأمـــر بهـــدف الحصـــول علـــى جســـم لائـــق ومتناســـق، مـــا الـــذي يـــدفعنا إلى القيـــام بـــذلك؟ مـــا الـــذي يقلقنـــا ويحفّـــزنا؟ لمـــاذا لا نرضـــى عـــن أنفســـنا؟ عـــن أجســـامنا؟ لمـــاذا نســـعى دومًا لتحسين مظهرنا؟ ماذا يشعر الشّخص البدين، السّمين؟

لـــيس مـــن السّـــهل أن تكـــون شخصًـــا سمينًـــا.... أنا لا أتحـــدّث هنـــا عـــن الأمـــراض الـــتي تصـــيب الشّـــخص السّـــمين مـــن ضـــغط دم وأمراض القلب والأوعية الدّمويّة وغيرها من الأمراض الخطيرة.

تَصرف الدّول الكبرى المتقدمة ميزانيات هائلة من أجل محاربة مرض السّمنة، نعم "مرض" فقد أصبحت السّمنة كذلك، مرضًا، أنا لن أتعرّض هُنا للتقارير الطّبيّة لمنظّمة الصّحة العالميّة التّابعة للأمم المتحدّة، لكنني سأتحدث معكم عن معنى أن تكون شخصًا سمينًا، وما هي المشاعر التي يعيشها هؤلاء الأشخاص الرّجال منهم والنّساء

أن تكون طفلًا سمينًا: معناه أن تتعرّض للكثير من التّنمر والاستهزاء والسّخرية، ناهيك عن النكات والضّحك من طلّاب صفّك أو مدرستك أو حتى من أصدقائك.... كذلك الألقاب التي قد يكنوك بها والصّفات التي قد يلصقونها بشخصيّتك وأقلها: "أبو كرش"، "أبو نياع" وغيرها.

أن تكون طفلًا سمينًا معناه أن تكون مدمنًا على الأكل، جائعًا في معظم ساعات النّهار، باحثًا عن الأطعمة في ساعات اللّيل... أن يمنعك أهلك من الوصول إلى المطبخ أو الثّلاجة، أن تكون عرضًة لصراخ أمّك وأبيك، أن يتّهموك بأنّك قد أنهكت ميزانيّة البيت بطلباتك.

أن تكون شخصًا سمينًا معناه أن تعيش شعورًا دائمًا بالنّقص وشعورًا بعدم الثّقة، فانت لا تتجرأ على الحديث مع فتاة جميلة، فأنت تخاف دومًا من الصّد والرّفض، تقول لنفسك "من ستنظر إليّ ومن ستعجب بي"... هذا الشّعور يرافقك

طوال سنوات حياتك ويزداد سوءًا في فترة المراهقة والشّباب....

أن تكون سمينًا معناه أن تجد صعوبة كبيرة في اختيار ملابسك صيفًا وشتاءً... فأنت بحاجة إلى ملابس واسعة إلى ضخمة، فمقاسك غير متوفر في المحلات العاديّة، وإذا توفّر فإنّه لن يكون جميلًا على الأغلب....

تشعر بالحسرة وأنت ترى أصدقاءك يشترون الملابس الجميلة، ذات المقاسات الضّيّقة وأنت لا تستطيع ذلك رغم أنّه من الممكن أن تملك اضعاف ما لديهم من الأموال التي تسمح لك بشراء أغلى البدلات الرّسميّة وغيرها من الأمور....

أن تكون سمينًا معناه أن تحتاج إلى مقعدين في الحافلة، أو على الأقل أن يمتنع الرّكاب من الجلوس جنبك، وأنت ترى نظراتهم ولسان حالهم يقول: "ماسك مقعدين".... أن تكون سمينًا معناه أن تركب الطّائرة وأنت مكتوف اليدين، ان تجلس متسمراً في مقعدك الضّيق، رابطًا نفسك بحزام لا يحيط خصرك أو يحيطه بصعوبة، وعندها تسألك المضيفة أمام باقي الرّكاب، "هل تحتاج إلى وصلة"؟ ناهيك عن عدم مقدرتك على فتح طاولة الأكل لأن كرشك يقف عائقًا على فتحها... أن تكون سمينًا معناه أن تلهث كثيرًا وأن تعرق

كثيرًا، معناه أن تجد صعوبة في ربط حذائك دون أن تنقطع أنفاسك....

أن تكون سمينًا معناه أن تتعوّد على نظرات الشّفقة من أصدقائك الذين يحاولون بكل جهد عدم اشعارك بكونك ناقصًا، فتراهم يقولون أنّ كل السّمان قلبهم طيب أو كل "النّاصحين" دمهم خفيف وأصحاب نكتة، وأنت تجلس مبتسمًا توافقهم على أقوالهم مُجبرًا لا خيار لديك إلّا الموافقة....

أن تكون سمينًا معناه أن تُحرم من الكثير من الوظائف التي يعرضها السّوق في هذه الأوقات العصيبة.... فأنت لا تستطيع أن تعمل بالكثير من الوظائف التي تتطلب شخصًا خفيفًا، سريع الحركة، أو تتطلب شخصًا ذا قوام ممشوق لكي يكون واجهة للتّسويق أو الدّعاية... ممّا لا شكّ فيه أنّ أصحاب العمل يرغبون بشخص جميل، نحيف، رياضي، شخص من المريح النّظر إليه والتواجد بمعيته، هذه هي طبيعة حياتنا فنحن جميعًا نحب الجمال ونحب التّواجد مع الجميلين، أن تكون سمينًا معناه أن تعيش حياتك بين حمية وحمية، حتى تضّطر إلى اللجوء إلى عمليات قص المعدة، وعندها تفقد أكبر لذّة في حياة الإنسان وهي الأكل والاستمتاع بالأطعمة اللذيذة... أن تكون سمينًا معناه أن تتحاشى التّواجد في

بعض الأماكن مثل شاطئ البحر، وحتى إذا كنت فأنت تختبئ وراء ملابسك بعيدًا عن أنظار النّاس، أن تكون سمينًا معناه أن يواسيك البعض بقولهم: "وجاهة"، "هيبة" لا هيبة ولا وجاهة، اعطونا جسماً متناسقاً وخذوا الوجاهة والهيبة لكم... خذوا طيبة القلب واعطونا قوامًا ممشوقًا، خذوا إليكم روح الدعابة والفكاهة واعطونا جسداً جميلًا معافى....

وهل نستطيع أن ننهي حديثنا دون طرفة تخفف وطء حديثنا؟

قرّر شخص سمين أنه قد اكتفى من كونه كذلك، فذهب إلى زيارة طبيب لاستشارته في إنقاص وزنه، فأشار عليه الطبيب أن يأكل ساندويشًا واحدًا في الصّباح وواحدًا عند الظهيرة وواحدًا في اللّيل فقط.... خرج الرّجل السّمين من عند الطبيب وبينما هو ينزل الدرج تذكّر شيئًا وعاد الى العيادة ليسأل الطبيب:

- "دكتور ما قلت لي متى آكل السّاندويش قبل الأكل أو بعد الأكل؟!"

دمتم بصحّة وعافيّة

"تجربتي في التربية"

عزيـــزي القـــارئ: في الســـطور القادمـــة... دَع كُـــل هـــذا الكـــون جانبًـــا وتأمـــل نصوصـــي التربويـــة، ومـــا هـــي إلّا نتـــاج مـــن خـــبرتي المتواضعة في الميدان التربوي....

تـــنفس.. تأمـــل.. عِـــش واقعـــي وأحلامـــي... عِـــش شـــيئًا مـــني... سطوري.. مطبّاتي.. تقلّباتي....

رُبمـــا ســـيكونُ هنـــاك مـــن التـــأثير لترتقـــي ونرتقـــي.. لتصـــعد ونصـــعَد سويًا..

واثقُ الخطوةِ يمشي ملكًا...

أيمن جبارة

القدس، 2022

"المُعلّم والنَّظريّة الفهلويّة"

كثيرًا ما نسمع أنّ فلانًا فلهويٌّ أو "النظريّة الفهلوية"...

إذًا مَن هو هذا الشخص؟ وما هي هذه النظرية؟ وكيف أثرت على حياتنا وعلى التعليم في مجتمعنا؟

إذا نظرنا إلى المعنى اللغوي ورجعنا إلى معجم المعاني الجامع نجد أنّ: فهلوي: محتال، ماهر وبارع، شاطر، قادر على التكيّف السريع مع متغيرات المجتمع....

لكن ماذا بالنسبة للنظرية الفهلوية التي نحن بصددها، وما علاقتها بالمعلم والتعليم؟

لقد كان الناقد السوري صادق جلال العظم (وُلد في دمشق 1934)، من أوائل الأشخاص الذين سلّطوا الضوء على هذه الشخصيّة، إذ استطاع من خلال كتابه الشهير "النقد الذاتي بعد الهزيمة" الذي صدر بعد هزيمة 1967 والتي زلزلت الوجدان العربي وتركت بصماتها على كل المثقفين العرب في المشرق والمغرب، استطاع أن يوجّه نقدًا عنيفًا لسلبيات الشخصيّة العربيّة التي أدت إلى الهزيمة.... ويرى المعظم أنّ نمط الشخصيّة الفهلويّة سائد في المجتمع العربي، وهو في الغالب يؤدي إلى التخلف الاجتماعي والابتعاد عن التفكير العلمي

وهو السبب في الهزائم التي مُني بها العرب على جميع الأصعدة.....

ويؤكد صادق جلال العظم أنّ الخلل يكمن في الشخصيّة القوميّة للإنسان العربي، حيث ربط المنطق التبريري العربي بنمط من السلوك الاجتماعي أطلق عليه اسم الشخصيّة الفهلويّة.....

وهذا النمط هو أنموذج له خصائص وأنماط سلوك وردود فعل ومشاعر وتصرفات معيّنة تميّز الأفراد في بيئات اجتماعيّة معيّنة، قد تزيد وقد تنقص من فرد لآخر وفقًا للظروف والأوضاع الاجتماعيّة.....

لسنا هنا بصدد تحليل أسباب الهزيمة، إنّما رغبت الاستئناس بتحليلات العظم حول خصائص الشخصيّة الفهلويّة، ومحاولة التذكير بأنّ هذا الأنموذج ما زال حيًا يرزق بيننا في المجتمع العربي.....

ولإلقاء الضوء على الموضوع سأورد خصائص النمط الاجتماعي للشخصيّة الفهلويّة، محاولًا ربطها بالشخصيات المسؤولة عن التعليم في مجتمعنا العربي وإعطاء بعض الأمثلة لذلك...

من هذه الخصائص:

1. إزاحة المسؤولية وعدم تحمل تبعات اتخاذ المواقف في الأوقات المناسبة والتهرّب من اتخاذ القرارات والتملّص من المسؤوليّة، وهذا الأمر كثيرًا ما نراه في مدارسنا، حيث نرى المسؤولين أو مديري المدارس يتهرّبون من حل المشاكل أو مواجهتها ، خوفًا من تبعاتها أو ينتظرون أن تحل لوحدها دون جهد منهم، كذلك المعلم الذي يحاول إلقاء المسؤولية على زملائه، فإذا كان في المرحلة الثانوية فإنه يُلقي المسؤولية على المرحلة الاعدادية، واذا كان في المرحلة الإعدادية فانه يُلقي المسؤولية على المرحلة الابتدائية، والابتدائية يُلقي المسؤولية على الأهل وسوء التربية أو ترد الكرة إلى المرحلة الإعدادية وهكذا... " يعني بما معناه كله برمي على بعضه ولا أحد يتحمل المسؤولية"... ولا ننسى الأهل في هذه المرحلة حيث ينسبون الفشل وقلة التربية إلى المدرسة، التي لا تقوم بواجباتها تجاه الطلّاب الذين سرعان ما يتركون المدرسة ويصبحون عبئًا على المجتمع الذي يعجز عن التعامل معهم بالطرق التربويّة ويلجأ إلى الطرق التقليدية التي سرعان ما تنتهي بهم إلى السجون....
2. البحث عن أقصر طرق النجاح، لا بل التحايل من أجل الوصول لهدف.

هكذا يتصرف الطالب الجامعي العربي مثلًا، فلا يجدّ ولا يجتهد ويتكئ على جهود الغير، وهذه الظاهرة منتشرة وبكثرة اليوم خاصة عن طريق استعمال الأكاديميين في المجتمعات الأكاديميّة العربيّة للشبكة العنكبوتيّة....

ناهيك عن تجارة الأبحاث والوظائف، التي أصبحت تجارة رائجة بين أوساط الطلّاب الجامعيين، فاليوم لست بحاجة أن تجلس في المكتبة وتتعب عينيك وتوجع ظهرك، فهناك من يقوم بذلك بدلًا منك مقابل أجر وتسعيرة تعادل معاش شهر متوسط لموظف بدائرة حكوميّة أو تكون التسعيرة حسب نوع البحث ودرجته، فبحث البكالوريوس يختلف عن بحث الماجستير ناهيك عن بحث الدكتوراة، نعم الدكتوراة.....

وإذا كنت طالبًا فقيرًا فإنك تكتفي ببحث تأخذه من الانترنت، أو من زميل لك أو قريب سبق ودرس هذا المساق، متأملًا أن تكون ذاكرة المحاضر ضعيفة فلا يتذكر البحث لأنك قمت بتغيير بعض التفاصيل والأسماء، وبدّلت المذكّر والمؤنث أو العكس (كثيرًا ما ينسى الطلّاب ذلك فيقعون في الفخ) ....

طبعًا هذه الظاهرة لا تتجاوز المعلّمين الذين هم من أكبر المستهلكين لهذه التجارة، فهم لا وقت لديهم للقيام بذلك ولا أعصاب ولا صبر، كما أنّ المال متوفر لديهم، فلا مشكلة

إذ قام أحدهم بكتابة بحث هنا وهناك وأراحهم من هذه المهمّة، حيث يريحون ضميرهم أنّ موضوع البحث لا علاقة له بموضوع التدريس الذي يعمل به المعلم في المدرسة، فهو يعلّم الرياضيات بينما البحث بموضوع التّربية لذا فإن ضميره مرتاح من هذه الناحية....

طبعًا لا ننسى تجارة الألقاب العالية بهدف تحسين الدّرجة والرّاتب الشهري، وهنا تتعاون بعض الجامعات والكليات التي تتاجر بهذه الألقاب بطريقة " إدفَع وارفع " فكثر حاملو ألقاب الماجستير من بين المعلمين دون أي تقدمٍ في مستواهم التعليمي الأكاديمي....

كما انحصر التقدم ببعض مئات الشواقل المضافة إلى رواتبهم الشهريّة واعطائهم المقدرة على التقدم لعطاءات الإدارة التي تشترط وجود الماجستير عند المرشّح.....

تخيّلوا أيّ معلّم هذا سيكون في المستقبل، وأيّ مدير سينشأ، وأيّ جيل سيتربى ويترعرع عند هذا الطاقم المدجّج بالشهادات الخالي من القدرات، والمواهب، والمسؤولية، والقيم.

3. الاهتمام الزائد بالتقاليد التي تثقل كاهل المجتمع وتحول دون إدخال إصلاحات جذرية فيه، وتفضيل الروابط القَبَليّة والعائليّة على روابط أُخرى....

حيث نرى في هذه العلاقات خضوعًا تامًا للأب أو زعيم العائلة إلى درجة فقدان الأبناء (الأجيال الشابة والأكاديميين) لشخصياتهم واستقلالهم وانسياقهم شبه الأعمى لهذه التقاليد العقيمة.

كم من مدرسة تُدار بالأساليب العشائرية القَبَليّة الهوجاء ضاربة بعرض الحائط كل النظريات التربويّة العلميّة، وكم من مدير ومعلّم بقي في منصبه لأنه "ابن بلد" أو من العائلة الفلانيّة أو العشيرة الفلانيّة..... كم من مشكلة ظُلِمَ بها المعلّم أو الطالب لأن ندّه كان من عائلة قويّة، كم من مدير تم تعيينه لأنه من أكبر عائلات البلد حيث سيوفّر الهدوء والاستقرار للمدرسة ويضبط أمورها، ضاربين بعرض الحائط جهله وعدم معرفته بالأمور التربويّة والإداريّة، والمهم أنه "ماسك المدرسة".....

4. الشخص الفهلوي يعرف كل شيء.. فعندما يُسأل عن أي موضوع حتى وإن لم تكن له به علاقة لا من بعيد ولا من قريب، تراه يصول ويجول ويُسهب، ويشرح وينظّر حول موضوع لا يفقه فيه شيئًا.

كم من معلّم في مدارسنا من هذه النوعيّة! هذه النوعيّة ليست جديدة على مجتمعاتنا، يُحكى قديمًا أنّ رجلًا يُدعى بِـ "دِحْيَة" كان إذا جلس بين الرجال فكأنه العلم إذ يأخذ

شـــكلًا بشـــريًا! لا تســـأله عـــن شـــيء إلّا أجابـــك، عَـــرَفَ أم لم يعـــرِف! فضـــاق بـــه جلّاســـه ذَرعًـــا، واتفقـــوا يومًـــأ أن يُـــاغتوه بســـؤال ليكشـــفوا جهلـــه، فتركـــوه مـــرةً مسترســـلًا في كلامـــه وســـأله أحدهم: ما اسم الذئب الذي أكل سيدنا يوسف؟!

فإجاب مسرعًا: " اسمه جمجائيل"!

فقالوا له: لكن الذئب لم يأكل يوسف!

فقال: إذًا هذا هو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!

الرجـــال علـــى هيئـــة "دِحْيَـــة" لم يخـــلُ مـــنهم زمـــان قـــط! وإن كـــانوا في الأزمـــان الغـــابرة يُعـــدّون علـــى الأصـــابع فهـــذا زمـــن "الـــدِّحيات!"، فلكـــل عائلـــة " دِحيَتهـــا "ولكـــل حـــارة وشـــركة ومؤسســـة ومدرســـة "دِحيَتها".

إذا كـــان الحـــديث عـــن الشـــعر تحســـب أن الفراهيـــدي قـــد أخـــذ عنـــه، وإذا كـــان الحـــديث عـــن الطّـــب تخـــال أنّ جـــالينوس تلميـــذه وابـــن ســـينا صـــبيّه الـــذي يحمـــل قـــوارير عقـــاقيره، إذا كـــان الحـــديث عـــن النحـــو تحســـبه ســـيبويه قـــد بُعـــث مـــن قـــبره، إذا كـــان الحـــديث في التـــاريخ فكأنـــه أملـــى علـــى الطـــبري كتابـــه، تحســـبه "غوغـــل" يمشـــي علـــى الأرض، إذا تحـــدثنا عـــن إنتـــاج روســـيا مـــن الـــنفط أشعر أنه من يعبئ البراميل هناك!

وإذا تحدثنا عن إنتاج البرازيل من القهوة أشعر أنهم لا يقطفون حبّة بنّ إلّا بعد الرجوع إليه، وإذا تحدّثنا عن مشاكل الزواج فهوَ الأكثر براعة في حلّها رغم أنّ زوجته "حردانة" عند أهلها من أسبوعين....

إذا ابتليتم ب " دِحْيَة " في مدرستكم فلا تحاولوا مناقشته في معلومة خاطئة أدلى بها! لأنه سيأتي بعشر معلومات خاطئة أُخرى ليثبت لك أن معلومته الأولى الخاطئة كانت صحيحة! فخُذ عنه واحترم نفسك. ولا تنسَ أنّ آخر استكمال اشترك به كان قبل عشر سنوات إذ أنه قد أنهى واجبات الاستكمال ووصل إلى الحد الأقصى فيها وهذه هي الطامة الكُبرى....

5. من صفات الشخصيّة الفهلويّة الحماس الشديد والاندفاع العنيف والاستهانة بالصعاب في بداية الطريق ثم الهبوط المفاجئ في المهمة والتراخي وانطفاء الحماس والتراجع عندما يتبيّن للفهلوي أنّ الأمر يحتاج إلى الجدّ والمثابرة والعمل المنتظم والنفس الطويل.

وهذا ما نراه في مدارسنا ومع معلّمينا وحتى مع قسم من مديري المدارس؛ فالمعلّم يبدأ حياته بجدّ وحماس ونشاط ثم تبدأ رحلة الإنطفاء والخفوت، فيكثر غيابه وتذمره من الأوضاع بدءًا بتغير الجيل وانعدام التربية من الآباء والأبناء وانتهاءً بعدم القدرة على التأقلم والتعوّد على متطلبات عمله فيقل تحضيره

وتجدد معلوماته ويبدأ بالأفول حتى يصبح عبئًا على المدرسة وطلّابه، ولكنه ما زال صغير السن، لم يبلغ سن التقاعد، فتراه جالسًا يشرب الشاي والقهوة ويندب حظه لكل من يصادفه في غرفة المعلّمين، ناهيك عن بعض مديري المدارس الذين نادرًا ما يغادرون مكاتبهم حتى لو "قامت القيامة" بالخارج فإنه يبقى قابعًا على كرسيه ، خوفًا من أن يأتي أحدهم ويجلس مكانه، وأسوأ الأنواع هم الذين يحرمون طلّابهم من البرامج والمشاريع والتحديثات لأنه لا يرغب أن يبذل أدنى جهدٍ أو أن يتأخر عن وقت مغادرته المدرسة كيلا يفوّت وقت مغادرة أبنائه المدرسة أو أن يخسر قيلولته في ساعات الظهيرة...

كم من محاضر يفرض الوظائف والأبحاث والواجبات ولا يقوم بتصحيحها لأنه لا يملك الوقت لذلك، ويقوم بإرجاع الأبحاث وعليها العلامة دون إبداء أي ملاحظة عليها، فيعرف الطلّاب أنه لا يقرأ بل يضع العلامة حسب عدد الصفحات فيشرع الطلّاب بكتابة الأغاني والموشّحات حتى الشتائم يعرفون أنه لن يقرأها، ويقومون بفضحه أمام الطلّاب الآخرين وينتقل اسمه من سنة إلى سنة وهو لا يعلم أنه قد كُشف، وكم من معلّم ذاع صيته أنه يضع نفس الأسئلة كل سنة وأنه يصحّح ويضع العلامة حسب اسم العائلة أو اسم الأب... وكم من مدير يُطالب المعلّمين بالخطط ولا يقرأها بل

تتكدّس لديه في خزانة مكتبه، ويقوم المعلّمون بكتابة نفس الخطة كل سنة بتغيير التواريخ وهم واثقون أنه لم ولن يقرأها، كذلك يفعل المعلّمون بدفاتر التحضير المفروضة عليهم كنوع من العقاب والسيطرة، فيقومون بالتحضير اوتوماتيكيًا دون وعي أو إدراك لما هو مكتوب فيها فهم ،يعلمون أنّ المدير لن يقرأها وأنها عقيمة لا فائدة منها....

6. الاستخفاف بالآخرين، والتحقير من شأنهم، وتأكيد الذّات، والتركيز عليها وانعدام روح الفريق في العمل.....
إنّ العمل التربوي في المدارس يحتاج إلى العمل الجماعي المتكاتف، لكي نصل إلى النتائج المرجوّة من أجل تنشئة جيل أفضل، جيل المستقبل....

علينا أن نترك الآخرين بحالهم وأن نعزّز زملاءنا وندعمهم، فعندما يركّز الناس على شؤونهم الخاصة ويدعون الناس وشأنهم يُدعون! وعندما نتوقف عن النظر لما في أيدي الآخرين يصبح لدينا وقت للتفكير بما في أيدينا!

أحيانًا لا نريد من الآخرين سوى أن يدعونا وشأننا، ولكنهم لا يسمحون لنا بمثل هذا الترف! هناك أشخاص لا يأتيهم النوم إلّا إذا تفقدوا صور الآخرين الشخصية وحالاتهم في الواتساب، كأن أحدهم عمر بن الخطاب لا يقرّ له جفن حتى يطمئن على رعيته....

يقول باولو كويلو (اخترته لأنه محبب على جمهور المعلّمين) في روايته الشهيرة الخيميائي:

عندما تريد شيئًا بشّدة فإنّ العالم كله يتآمر معك لتحقيقه! وددت لو أن باولو كويلو قال: عندما تريد شيئًا بشدّة وتسعى إليه فإنّ العالم كله يتآمر معك لتحقيقه (بزيادة الفعل تسعى للجملة الأصلية)، فالرغبة في شيء ما لا تكفي للحصول عليه...! لا بد أن يشمر المرء ويجدّ، لهذا أجد أفضل وأحكم من قول كويلو هذا قول أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

" الرؤية المدرسيّة ضرورة أم موضة؟"

كثيرًا ما يتباهى مديرو المدارس بما يسمى الرؤية المدرسيّة، وكثيرًا ما نرى جُدران المدارس تزدان بالرؤية المدرسيّة لهذه المدارس....

وغالبًا ما نرى ونسمع المصطلحات والكلمات الرنّانة ذات الحجم الكبير من ناحية الشكل والمعنى، ولا يكتفي مديرو المدارس بذلك فإن الرؤية المدرسيّة تتصدر منشوراتهم وشرائحهم التّي تتحدث عن المدرسة، كما وبها يستهلّون عروضهم أمام الضيوف والمسؤولين من شتّى المكاتب والوزارات.... والسؤال الذي يطرح نفسه وبقوّة: كيف يتم بناء هذه الرؤية المدرسيّة؟ من الذي صاغها وبلورها؟ ما هو دور المعلّمين والعاملين في المؤسسة في تكوين وبلورة الرؤية المدرسيّة؟ هل بالفعل للمعلّمين دور في تحديد وكتابة الرؤية المدرسيّة؟ ما دور المجتمع المحلّي الذي تتواجد به المدرسة في تحديد الرؤية المدرسية؟

سوف أغامر وأقول أنّ دور هؤلاء هو دور هامشي، وعلى مسؤوليّتي أقول إنّ معظم الرؤى المدرسيّة مُستقاة من الانترنت وكتب التربيّة دون التعمّق بها أو حتى بحثها وتداولها في غرف المعلّمين....

ما هي الّا استعراض لمصطلحات رنّانة هدفها أن تبقى حبرًا على ورق ويتم عرضها عند الحاجة إليها وعندما تُطلب من المدرسة في المناسبات المختلفة...

في الحقيقة هذا الأمر مؤسف جدًا، ولكنّي لا ألوم المدارس لأننا ولسنوات طويلة لم نُطالَب بكتابة أو صياغة رؤية مدرسيّة، بل كانت المدارس تسير وكما يُقال "تسير والرب راعيها"...

أما الآن فالجميع يُطالب برؤية مدرسيّة لذا نجد الجميع يسلكون أقرب طريق وهو طريق الانترنت، وما عليك إلّا أن تبحث تحت بند "رؤية مدرسيّة" في جوجل لتجد كمًا هائلًا من الرؤى البرّاقة الرنّانة....

ولكن في حالة تم اختيار الرؤية المدرسيّة، فمن الذي يقوم بملاءمتها لاحتياجات المدرسة؟

هل يتم تغيير الرؤية المدرسيّة أم تبقى "نبراسًا" يُضيء الدرب سنة تلو الأُخرى؟

سأترك هذه التساؤلات تتردد في اذهانكم وفي فضاءات مدارسكم وسأتوجه إلى الجوهر وهو:

- ما هي الرؤية المدرسيّة؟
- ما الهدف منها؟
- كيف يتم صياغتها وملاءَمتها للمدرسة؟
- هم الشركاء في تحديد الرؤية المدرسيّة؟

والعديد من الأسئلة الأُخرى.....

لماذا نحن بحاجة إلى رؤية بصورة عامة؟

الرؤيــة تعــني المســتقبل الواضــح أو بكلمــات أُخــرى لمــاذا نحتــاج إلى بناء مستقبل لنا ولأبنائنا؟

الرؤية الناجعة تصيب ثلاثة أهداف مهمّة:

أولًا: تحديد المسار العام للتغيير:

بكلمــات أخــرى "نحــن هنــا اليــوم وعلينــا أن نصــل هنــاك وألّا فإننــا نقــف مكانننــا دون تحــرك يُــذكر"، عنــدما نقــوم بتحديــد الوجهــة الــتي نقصــدها، فــإن الكثــير مــن القــرارات الــتي نتخــذها ستكون أكثر سهولة.

ثانيًــا: الرؤيــة تحــثّ الأشــخاص علــى القيــام بعملهــم بالشــكل والاتجــاه الصــحيحين، حــتى لــو كانــت هــذه الخطــوات مؤلمــة جــدًا من ناحية شخصيّة....

ثالثًــا: تســاعد الرؤيــة علــى تنســيق الأعمــال بــين الأشــخاص المختلفــين، حــتى لــو كنّــا نتحــدث عــن آلاف الأشــخاص، وذلــك بصورة سريعة وناجعة جدًا...

إنّ تحديــد مســار التغيــير هــي مرحلــة مهمّــة لأنــه وبصــورة عامــة، هنــاك خلافــات بــين النــاس بمــا يخــصّ الغايــة الــتي نسعى إليهــا، وهــل هنــاك حاجــة أصــلًا للتغيــير؟ الرؤيــة الأساســيّة

والاستراتيجيّات المرافقة لها ستساعد على إبعاد الشكوك وعدم الوضوح بما يخصّ الغاية التي نسعى إليها، وهل هناك حاجة أصلًا للتغيير...

بإمكان الرؤية الجيّدة أن تساعد على التخلص من الأمور الزائدة الفاسدة وأن تزيل كل ما هو زائد وتقوم بتوظيف الموارد لأمور أُخرى أكثر أهميّة...

هناك هدف آخر للرؤية أنها تمكننا من إجراء تغييرات كبيرة بأن تحث على الإسراع بتوفير الأهداف قصيرة الأمد وبشكل أسرع....

للرؤية عدة مميّزات وهي:

1. تصف الرؤية نشاط المؤسسة وكيف ستبدو بالمستقبل، خاصة المستقبل البعيد...
2. تقوم الرؤية بتفصيل وتوضيح الإمكانيات السّانحة أمام الأشخاص الذين تخدمهم الرؤية، في حالتنا: الطلاب، المعلّمين، الأهل، المسؤولين..
3. الرؤية الحقيقيّة هي الرؤية القابلة للتطبيق والواقعيّة وليست مجرد كلمات ومصطلحات رنّانة لا أمل في تطبيقها...
4. الرؤية الناجعة يجب أن تكون واضحة ومفهومة لكي تكون سانحة ومريحة لاتخاذ القرارات...

5. الرؤية الحكيمة يجب أن تكون مرنة، حتى نتمكن من القيام بمبادرات وخطط بديلة عند تغير الظروف...
6. على الرؤية أن تكون قابلة للنشر، ومهيأة للتفسير والتوضيح خلال خمس دقائق.

للأسف الشديد فإننا إذا قُمنا بسؤال كل المدارس، فإننا سنجد أنّ 100% من المدارس لديها رؤية تربويّة (حتى ولو أنها في الحقيقة لا تملك هذه الرؤية بالفعل)، ولكن إذا قُمنا بسؤال المعلّمين في المدرسة حول الرؤية التربويّة لمدرستهم لوجدنا أنّ أكثر من 90% من المعلّمين لا يعرفون هذه الرؤية ولا يعرفون كيف تم تحديدها ومن الذي اختارها؟ وبناءً على أيّ معايير تم وضعها؟ هذا بحد ذاته ما هو الا وضع مؤسف...

كما ذكرت سابقًا فإنّ الرؤية التربويّة الناجعة تتطرق إلى جميع الشركاء المتواجدين في البيئة التربويّة.... لكن هل رأيتم مرةً من المرّات أن الرؤية تتطرق مثلًا للمعلمين أو للأهل والمجتمع، الجواب هو: قطعًا لا...

" إننا نرى دائمًا أن الرؤية تتحدث فقط عن الطالب لا غير"...

- السؤال الذي يطرح نفسه بقوّة: لماذا على المعلّمين، الأهل، المجتمع، أن يتبعوا الرؤية التي تتجاهلهم وتتجاهل احتياجاتهم؟ من هنا نرى أنّ الكثير من المعلّمين والأهل يرون أنّ لا علاقة لهم بالرؤية ولا التزام لديهم تجاهها، وتبقى الرؤية حصة القلّة القليلة من الإدارة والمقرّبين منها.

إذا أردنا أن نعرف ما إذا كانت الرؤية ضروريّة للتغيير علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة الأساسيّة:

1. إذا تحققت الرؤية، كيف ستؤثر على الأشخاص المعنيين؟ (كتبت المعنيين على افتراض أنّ الرؤية تضم اشخاصًا أكثر من الطلّاب)، هل الأشخاص الذين كانوا غير راضين، بقوا كذلك؟ هل الأشخاص غير الراضين اليوم سيكونون كذلك لاحقًا؟ هل الطلّاب الذين ليسوا بمدرستنا سيأتون إلينا؟ هل سنعطي الطلّاب والأهل أمورًا مختلفة عن المدارس الأُخرى؟
2. كيف ستؤثر الرؤية على الأهل؟ هل يبقى الاهل راضين؟ إذا كانوا غير راضين جدًا اليوم، هل سيتحسن الوضع؟ إذا استطعنا أن نطبّق التغيير هل سنحقق نتائج أفضل من وضع انعدام الرؤية؟
3. كيف ستؤثر الرؤية على المعلّمين؟ هل هم راضون اليوم، هل سيبقون راضين؟ إذا كانوا متذمرين، هل الرؤية الجديدة

ستحظى برضاهم؟ إذا نجحنا، هل سنوفّر للمعلّمين ظروف عمل أفضل وفرص أحسن من المدارس الأُخرى؟

على الرؤية أن تستجيب لمتطلبات كل الشركاء، بأن نقوم بتحسين الظروف لكل الشركاء وبذلك نحصل على المنتوج المثالي الذي نصبو إليه.

بناء الرؤية المدرسيّة:

من أجل بناء الرؤية المدرسيّة يجب مراعاة ما يلي:

- بناء الرؤية الجيّدة يتم بشراكة بين العقل والقلب في آنٍ واحد.
- بناء الرؤية المدرسيّة يتطلب وقتًا، وهو نتاج عمل جماعي لا فردي.
- المسودّة الأوليّة للرؤية تبدأ بصورة عامة عند شخص واحد... هذا الشخص يعتمد على تجربته وقيمه، هذا الشخص يقوم بتجميع عددٍ من الأفكار المنطقيّة التي تثير حماسه من الناحيّة الشخصيّة.

- يتم عرض هذه الأفكار على مجموعة مصغّرة من الأشخاص المعنيين وتتم مناقشتها مطوّلًا.
- يؤدي هذا النقاش لحذف بعض الأفكار وزيادة البعض الأُخرى، وتوضيح النقاط والأفكار الأُخرى، من الجدير

بالذكر أنّ عملية بناء الرؤية لطالما كانت عملًا مضنيًا وشاقًا وفي بعض الأحيان مزعجًا للمشاركين في عمليّة البناء...

- لا يتم تكوين وبناء الرؤية المدرسيّة خلال جلسة واحدة، وقد تستمر هذه العمليّة لمدة أشهر وأحيانًا لمدة سنوات.
- ذكرنا سابقًا أنّ الرؤية هي شراكة بين العقل أي التحليل وبين القلب أي الأحلام، الكثير من الأحلام.
- يجب ألّا ننسى أنّ الرؤية تعبّر عن أحلامنا وعن قيمنا، وهي عبارة عن التواصل مع أنفسنا.
- من المهم أن يكون عمل طاقم وتعاون كامل بين الأشخاص العاملين على بناء الرؤية وألّا يتحوّل الأمر إلى نقاش عقيم ومفاوضات لا نهاية لها، ممّا يؤدي بالتالي إلى الإحباط والفشل، وإلى بناء رؤية بعيدة كلّ البعد عمّا نريد أو نصبو إليه.
- المنتوج النهائي: تتولد من هذه السيرورة رؤية مستقبليّة، واضحة، مرنة، والأهم من ذلك أنه بالإمكان شرحها وتعميمها خلال خمس دقائق أو أقل.

تذكّروا:

الرؤية غير الناجعة قد تكون أسوأ من عدم وجود رؤية بتاتًا، إنّ تحقيق رؤية تم صياغتها بشكل سيء قد تؤدي إلى الوقوع في الهاوية.

- نشر وتعميم الرؤية المدرسيّة

إنّ مرحلة نشر وتعميم الرؤية المدرسيّة هي أهم مرحلة من مراحل بناء وتكوين الرؤية المدرسيّة.

هذه هي مرحلة تذويت الرؤية المدرسيّة عند الجهات المعنيّة، مثل: المعلمين، الأهل، الطلّاب، المسؤولين، بدون هذه المرحلة فإن كل جهودنا ستذهب سدى.

كيف سنقوم بذلك؟ ما هي الخطوات التي علينا اتخاذها لتحقيق هذا الهدف؟

بإمكان الرؤية المدرسيّة الناجعة أن تخدم فكرة، حتى لو أنّها كانت مفهومة لعدد قليل من الأشخاص، لكن القوّة والتأثير الحقيقي للرؤية يكمن في فهمها وتعميمها على جميع الشركاء في العمليّة التربويّة، هذا الشعور بالشراكة في بناء المستقبل للأجيال القادمة، من شأنه أن يبثّ الدافعيّة والنشاط في سعينا نحو التغيير.

- لكي نعمّم وننشر الرؤية المدرسيّة، ولكي نضمن وصولها لأكبر عدد من الأشخاص يجب أن نُراعي العناصر الأساسيّة في عمليّة النشر:

1. البساطة:

اهتمّوا أن تكون الرؤية واضحة وبسيطة، أن تكون المعلومات مركّزة وبدون "حذلقات" لغويّة معقّدة او استعمال مصطلحات غير مفهومة تؤدي الى الشعور بالغربة وعدم الفهم.

2. اختيار التعابير، التشبيهات والأمثلة:

إنّ اختيار الكلمات بحرص شديد وهي كفيلة بترسيخ الفكرة بأذهاننا بين الكم الهائل من الأفكار التي نتعرض إليها يوميًا.

لذلك علينا استعمال التشبيهات والمجازات اللازمة، كي ننجح بإيصال الفكرة خلال فترة قصيرة وبلغة بسيطة.

استغلوا كلّ منبر ومنصّة لنشر الرؤية المدرسيّة، اذكروا ذلك بالجلسات العامّة مع العاملين مع الأهل، انشروا ذلك بالمجلات التي تطبعها المدرسة، اطبعوا الرؤية المدرسيّة على لافتات، انشروها بالمواقع الالكترونيّة، تحدّثوا عنها بمحادثاتكم الشخصيّة... انشروا الفكرة في كلّ مجلس ومنتدى.

اجعلوا الناس "يتذكّرون" الرسالة والفكرة التّي تدعون إليها.

3. التكــرار: يــتم اســتيعاب الأفكـــار بصــورة قصـــوى إذا قُمنـــا بتكرارها مرات كثيرة.

إنّ تــذويت الأفكـــار بصــورة ناجعـــة يـــتم دائمًـــا بواســـطة التكـــرار، لا تنســـوا أننـــا معروضـــون كـــلّ يـــوم لكميّـــة هائلـــة مـــن الأفكـــار والرسائل، منها المهمّة ومنها غير المهمّة...

4. القـــدوة الحســـنة: لكـــيّ تـــنجح الرؤيـــة المدرســـيّة يجـــب علـــى طاقم الإدارة أن يعطي قدوة حسنة لباقي العاملين...

إذا قـــام المـــديرون بتطبيـــق الرؤيـــة المدرســـيّة والأفكـــار المنبثقـــة منهـــا فـــإنّ الأمـــر ســـيتذوّت عنـــد كـــل العـــاملين في المؤسســـة، ولكـــن إذا كـــان الأمـــر عكـــس ذلـــك، فـــإنّ الفكـــرة ســـتنتهي قبـــل أن تبـــدأ، وعليـــه فـــإنّ تصـــرفات طـــاقم الإدارة هـــي أكـــبر دليـــل علـــى نجـــاح الفكرة أو فشلها...

5. الثقـــة: علـــى مـــديري المؤسســـات أن يكونـــوا مصـــدر ثقـــة للعـــاملين وأن يقومـــوا بمتابعـــة الأمـــور الـــتّي يتحـــدثون عنهـــا.... مـــثلًا مـــدير مدرســـة يـــدعو المعلّمـــين إلى الاقتصـــاد بمصـــروفاتهم مـــن دفـــاتر وأقـــلام وأدوات وقرطاســـيّة، لأن المدرســـة بحالـــة اقتصـــاديّة صـــعبة ومـــن جهـــة أخـــرى عنـــد حضـــور ضـــيوف مـــن الـــوزارة فـــإنّ المـــدير لا يـــوفّر شـــيئًا مـــن المـــأكولات والطيّبـــات بـــدون أي حســـاب، أو أنـــه يطلـــب مـــن المعلّمـــين البقـــاء لســـاعات مـــا

بعد الظهر لمساعدة الطلّاب، بينما هو يغادر المدرسة بوقت مبكر...

6. تفاوضوا، تناقشوا "خذوا وأعطوا": بما أنّ قضيّة تعميم الرؤية هي عمليّة صعبة جدًا، فإنها ستكون عرضة للكثير من التساؤلات والتحقيقات.

" سيكون هناك الكثير من العاملين الذين لا يفهمون القصد من الرؤية أو الأفكار الواردة"، لذا علينا ان نوفّر لهم هذه المعلومات الناقصة أو نشرحها وأن نجيب عن اسئلتهم في طريقنا إلى التغيير...

لا تنسوا أنّ الرسائل الواضحة، البسيطة، والمتتابعة تنخرط بأذهاننا إذا قُمنا بتكرارها بأوقات متقاربة، ولا تنسوا أنّ مواجهة الأسئلة والاجابة عليها مهم جدًا في هذه المرحلة.

- خلاصة القول:

ممّا لا شك فيه أنه توجد أهميّة كبيرة جدًا لوجود الرؤية المدرسيّة... لكنني أفضل عدم وجود رؤية نهائيًا على وجود رؤية سيئة تأتي بالضرر أكثر من الفائدة... وعليه أوصيكم بتكريس الوقت الكافي لبناء الرؤية، ولا تكتفوا بذلك، بل عمموها على كل الجهات المعنيّة...

أجيبوا عن الأسئلة المطروحة غيّروا فيها، أضيفوا إليها، افحصوا نجاعتها بين الفينة والأُخرى، راعوا تغيّر الظروف والأزمنة والأشخاص، عليكم أن تبنوا جيلًا واعيًا ذا قيم وأخلاق...

"الكم اللحم وإلنا العظم"

" بديش أروح على المدرسة، بدي إمّي تعلّمني ".

جملة سمعتها صدفةً من أحد الطّلاب صغار السن، هذه الجملة جعلتني أتساءل: لماذا يكره طلابنا المدرسة من جيل صغير؟ ما دور الأهل بذلك؟ ما دورنا نحن المعلّمين؟ كيف نستطيع تجنيد الأهل لصالحنا لكي نغيّر هذه الصورة البشعة؟

لا شك أنّ أولادنا يكرهون المدرسة، وقد يختلف معي البعض منكم، ولكن أنا أتحدث بصورة عامة، لماذا يكره الطلّاب مدارسنا؟ هناك الكثير من الأسباب التي تجعل طلّابنا يكرهون المدرسة! سأحاول هنا أن أذكر بعض الأسباب لذلك:

1. التحصيل:

كل مدارسنا بدون استثناء، هي مدارس تحصيليّة، بمعنى أنها تضع التحصيل العلمي في المرتبة الأولى، هذا الأمر ليس ذنب مديري المدارس أو المعلّمين، هذا الأمر له عدة أسباب وعوامل، أولها الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي نعيشها في البلاد كأقليّة ، تحتّم علينا أن نمتاز وأن نتميّز في تعليمنا لكي نحصل على مناصب عُليا، تنقذنا من الفقر أولًا، وترفع مستوانا الاجتماعي ثانيًا، وتعزّز مكانتنا في

المجتمع، وما يعزّز هذا الأمر الأهل في المرتبة الأولى، الذين يدفعون أولادهم إلى التميّز وإلى التحصيل العلمي ويشكّلون ضغطًا على أولادهم وعلى معلّميهم ومدارسهم.

من أكبر الاشارات لهذا الضغط "الحفلات" التي تُقام للأبناء الناجحين في الامتحانات أو حتى غير الناجحين، منعًا من الاحراج والشماتة من الجيران والأقارب.

ضغط آخر على المدارس يتم من قبل المسؤولين في الوزارة أو في البلديّة، حيث تتم عمليّة تقييم المدارس ومديري المدارس حسب انجازات طلّابهم في التوجيهي أو البجروت، ضاربين بكل المعايير عرض الحائط، من بناء الشخصيّة والقيّم والمواطنة الصالحة وبناء الانسان، فالمدارس هي مصنع للعلامات لا غير.

هذه الأمور تضغط المعلّمين، وبالتالي يضغطون الطلّاب حيث يجدون أنفسهم بين مطرقة الأهل وسندان المعلّمين، ممّا يجعلهم يكرهون المدرسة ويحاولون التخلص منها بشتى الطرق والوسائل ويظهر ذلك في مظاهر العنف تجاه الطلّاب الآخرين وتجاه المعلّمين وفي كثير من الأحيان يعبّرون عن ذلك بعمليّات التخريب، والتكسير بالممتلكات، والكراسي، والطاولات.

2. المواضيع التعليميّة المملّة:

معظم مواضيع التعليم هي المواضيع الاعتياديّة الكلاسيكيّة من لغة عربيّة وانجليزيّة ورياضيّات وغيرها من المواضيع التي لا علاقة لها بصورة مباشرة مع شخصيّة وأهواء الطالب، هذه المواضيع غالبًا ما تُصيب الطالب بالملل والضجر خلال الحصص ممّا يدفعه إلى الانشغال بالأمور الجانبيّة، وبالتالي بدراسة هذه المواد للامتحان فقط، يجب أن أشير هنا أنه من الملاحظ مؤخرًا أنه قد طرأ تغيير طفيف بواسطة ادخال مواضيع جديدة، ولكنها للأسف بمنهاج البجروت فقط.

3. التربيّة اللامنهجيّة:

لقد حدث مؤخرًا تغيير جذري بكل ما يخصّ التربيّة اللامنهجيّة والفعاليّات الاجتماعيّة في المدارس.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الأبحاث تولي أهميّة كبيرة للفعاليّات والنشاطات اللامنهجيّة والتي تساهم بشكل كبير في تطوير شخصيّة الطالب وبنائها وتزيل الملل والضجر المتسبب من الدروس والمواضيع العاديّة.

4.البنية التحتيّة:

أن البنيّــة التحتيّــة لهــا أهميّــة كبــيرة جــدًا في الشــعور بالانتمــاء للمؤسسات التعليميّة.

مــن منّــا لا يحــب التواجــد في الأمــاكن المحاطــة بالحــدائق والساحات والملاعب الخضراء!

إنّ جــو المدرســة العــام لــه أهميّــة مصيريّة في تطــوير شخصــيّة الطالــب، وهــذا للأســف مــا ينقصــنا في مدارســنا إلا مــا قــلّ منهــا، فــالكثير مــن المــدارس توجــد ببنــايات مُســتأجرة، كانــت مخصصــة بالأساس للسكن وليس للتدريس والتعليم.

هــذه المبــاني لا تُناســب الطــلّاب حيــث إنهــم يُعــانون مــن الاكتظــاظ والازدحــام، ناهيــك عــن عــدم وجــود الســاحات والملاعــب حيــث يشــعر الطالــب أنــه في ســجن وينتظــر بفــارغ الصبر انتهاء فترة الدوام ليغادر المدرسة.

5. المعلّمون وطرق التعليم:

رغــم الاســتكمالات الكثــيرة في طــرق التعلــيم الحديثــة ووســائل المســاعدة وغيرهــا مــن التحــديثات التكنولوجيّــة، إلا أنّ المعلّمــين مــا زالــوا يتمســكون بطــرق التعلــيم القديمــة الوجاهيّــة وخاصــة بالمراحــل العُليــا مــن التعلــيم، حيــث يقــف المعلّــم ويُملــي علــى

الطلّاب المادة بدون أي سؤال أو نقاش، ممّا يسبب ويزيد من الملل وعدم الاهتمام لدى الطلّاب.

لطالما ادّعيت أنّ المشكلة الأساسيّة في التعليم تعود على طواقم المعلّمين، أنا لست هنا بصدد لوم المعلّمين أو اتهامهم، ولكن لا نُنكر أنّ الكثير من المعلّمين لا يحبون مهنة التعليم وأنهم توجهوا إليها لأنها المهنة الوحيدة تقريبًا المتوفرة أمام الخريجين ومن الجامعات، ها نحن نرى معلمًا جديدًا لم يمضِ على تعيينه 3 سنوات نرى أنه قد تآكل وأصبح غير مبالٍ لما يدور حوله من أمور، هذه الأمور تظهر بصورة جليّة بغياب المعلّمين حيث قلّ ما تجد مدرسة بدون 5–8 معلمين غائبين يوميًا وبدون سبب يُذكر.

أنا لن أخوض كثيرًا بالحلول، التي برأيي تتواجد بلبّ المشكلة والمسببات، ففي كل سبب نجد الحل الملائم لذلك مثلًا بالنسبة للبنية التحتيّة والمرافق فإن الحل هو تحسين البنية التحتيّة وهكذا الأمر بالنسبة لباقي المواضيع.

لكنني سأقوم هنا بالتركيز على قضيّة مهمّة وهي موضوع الأهل، والثقة بين الأهل والمعلّمين.

إنّ قضـيّة الثقـة بـين الأهـل والمعلّمـين هـي قضـية مهمّـة جدًا لإنجـاح العمليّـة التربويّـة التعليميّـة والأهـم بـذلك هـي مسـألة التواصل مع الأبناء أي الطلّاب.

لـدي نظريّـة راسـخة بهـذا الموضـوع وهـي: "إذا أحبـك الطالـب كمعلـم فـإنّ هـذه المحبّـة تنتقـل للأهـل، وإذا كرهـك الطالـب فإنـه ينقُل كراهيته وعدم احترامه للمعلم إلى أهله".

لـذلك فإننـا نـرى أنّ الطالـب قـد يكـره المدرسـة، ولكنـه قـد يحب المعلـم الفـلاني والعكـس هـو الصـحيح فقـد يكـره معلمًـا ويحب المدرسة.

وكثـيرًا مـا نـرى أنّ الأهـل يسـمحون لمعلـم معـيّن بمعاقبـة ابـنهم بينما يرفضون أن يفعل ذلك معلم آخر.

مـاذا يفكّـر الأهـل عـن المعلّمـين؟ كيـف ينظـرون إلـيهم؟ مـاهي صورة المعلّمين بنظر الأهل؟

الكثير من الأهل يعتقدون أو يفكّرون عن المعلّمين ما يلي:

1. المعلّمون لا يستحقون الراتب الذي يتلقونه لأنهم لا يشتغلون.
2. المعلّمون لا يقومون بواجباتهم تجاه المدرسة وتجاه طلّابهم.
3. المعلّمون يتقاضون رواتب عالية بدون مبرر.
4. المعلّمون يتغيّبون كثيرًا، وبدون سبب، وليس لديهم ضمير.

5. المعلّمون يقضون وقتهم بالعطل والاجازات والأعياد معظم أيام السنة. وإذا لم تكُن هناك عطلة فهناك اضراب.
6. المعلّمون عبارة عن مصاصي دماء وما يهمهم هو زيادة الرواتب وإن مصلحة الطالب هي آخر اهتماماتهم.
7. المعلّمون لا يلتزمون بعملهم وإنما يهتمون بمصالحهم الخاصة فهم لا يشكّلون قدوة للطلّاب ولا يقوموا بدورهم في تربية الأبناء.
8. معظم المعلّمين قد تم تعيينهم بالواسطة لأنهم مقرّبون من المسؤولين لذلك فلا أحد يحاسبهم أو يقوم بفصلهم.

طبعًا هناك الكثير من الادعاءات الأخرى، ولكن هذه هي أهم النقاط.

كيف يمكننا أن نبني الثقة مع الأهل؟

إنّ مصطلح " الثقة " هو مصطلح مراوغ لا نشعر به الا في حالة فقدانه: " إنّ الثقة هي استعداد الأهل على وضع ابنائهم بيد المعلّمين، من أجل تطوير مهاراتهم، رفاهيتهم وأمنهم، اقتناعًا منهم أنّ المعلم شخص مهيأ وموثوق به ولديه الاستعداد للقيام بذلك.

كل شخص منّا بحاجة لثقة الناس الذين حوله، لكن المعلّمين بحاجة لهذه الثقة بصورة خاصة وذلك لكي يؤدوا واجبهم بإخلاص وأمانة.

مثلًا المدير الذي لا يثق به طاقمه يجد صعوبة كبيرة في تطوير وتنفيذ سياسة المدرسة، وعليه فإن المعلّمين الذين لا يحظون بثقة الأهل عليهم تحمل المعاناة جرّاء مراقبة وانتقاد الأهل الدائم لهم.

لماذا الثقة مهمّة بين الأهل والمعلّمين؟

إنّ الثقة والعلاقة الجيدة بين الأهل والمعلّمين تساهم مساهمة كبيرة في تطوير الطالب في كل المجالات: التعليميّة، التربويّة، الاجتماعيّة والعاطفيّة، تأثير الثقة بين الأهل والمعلّمين على تطوّر ونمو الطلّاب نابع من المسؤوليّة المشتركة على الأبناء والطلّاب" ولكي ننجح في تحمل هذه المسؤوليّة فإننا نحتاج إلى الثقة".

كيف يمكن للثقة بين المعلّم والأهل أن تساعد على تطور ونمو الطلّاب؟

1. إنّ الثقة تُساعد على تطوير المعرفة حول الطالب وتُساعدنا بأن نتلاءم معه، إنّ الأهل والمعلّمين يعرفون الطالب بصورة مختلفة.

2. إنّ الثقة المتبادلة تمكّن الأهل من معرفة ابنهم عن طريق المعلّم وأن يتعاملوا معه بصورة ملائمة، كما وتسمح للمعلّم أن يتعرف على الطالب عن طريق الأهل وأن يتواصل معه بطريقة أكثر نجاعة.

الثقة تزيد من التعاون:

إنّ الثقة المتبادلة تقلّل من ظاهرة المراقبة والمتابعة للآخر وهكذا تساعد الطرفين على التعاون والعمل المشترك من أجل أهداف مشتركة، الأب الذي "يثق بمعلّم ابنه" سيوافق بسهولة على التعاون معه كما أنّ المعلّم الذي يثق بالأب فإنه سيسمع نصيحته حول الطالب.

هل تذكرون جملة "الكم اللحم وإلنا العظم"؟

ما هذه الجملة الا كلمة واحدة: " الثقة ".

كما أن معظمكم يتذكر ويراعي الطالب، لأنه يعرف والده أو والدته، وكم منّا يتغاضى عن الطالب بسبب والده المتعاون مع المدرسة بينما يُهمل أو يعاقب الطالب الذي والده يصرخ ويشتم ولا يتعاون نهائيًا.

3. الثقة تؤدي إلى تقبّل الأهل للأمور الحديثة أو المتطورة، كما تؤدي إلى تشجيع المبادرات وابتكار طرق تعليميّة حديثة التي تهدف بنظر الأهل إلى أنها جزء من عمليّة التطوير والتحسين في العمليّة التربويّة.

كيف نبني الثقة بين الأهل والمعلّمين:

هناك أهل يعطون الثقة للمعلّمين، لأنهم تربّوا على ذلك من صغرهم وهذا ما اعتادوا عليه من آبائهم في الماضي، فبالنسبة لهم المعلّم دائمًا على حق، هذه النوعيّة من الأهل آخذة "بالانقراض".

بينما هناك أهل كما يبدو، مرّوا بتجارب صعبة بالماضي، هذه التجارب أدت بهم إلى عدم الثقة بالمعلّم أو حتى بالنظام التعليمي ككل.

علينا أن نتذكر أنّ كل معلّم أو أب يأتي مع ميول شخصيّة للثقة أو أنه يرتدع من منح الثقة، بالرغم من ذلك إلّا أننا نستطيع أن نقوم بعدة خطوات لبناء الثقة حتى لدى الأشخاص الذين يرتدعون من ذلك.

إنّ الثقة تزداد عندما يرى الأهل ويشعر أنّ معلّم ابنه لديه القدرة المهنيّة والدافعيّة لأن ينجح في وظيفته.

كيف يمكن أن يحدث هذا في العلاقة بين المعلّم والأهل؟

- التجنّد من أجل هدف مشترك:

من المهم أنه في حالة الالتقاء مع الأهل، أن نوضّح لهم أنّ الهدف هو تحسين حالة وظروف الطالب، وهذا هو هدف مشترك بين المعلّم والأهل"، عندما يفهم الأهل أنّ هذا هو الهدف"، من هنا نستطيع أن ننطلق إلى مواجهة الاختلافات، آخذين بالاعتبار اظهار الاحترام للأهل، لآرائهم ومواقفهم.

- ملائمة توقعات:

لكي ننمّي الثقة بين الأهل والمعلّمين ولكي نزيد التعاون بينهم، من المهم ان نتحدث مع الأهل وأن ننسّق وأن نوضّح مجالات المسؤوليّة الخاصة بالأهل والمعلّم تجاه الطالب مثلًا مسؤوليّة الأهل أن يأتي الطالب إلى المدرسة وأن يلتزم بالدوام، ومسؤوليّة المعلّم أن يقوم بتعليمه وزرع القيم عنده.

كذلك من المهم أن يتفق الجانبان على المعلومات التي سيتبادلها الطرفان لمصلحة الطالب.

من المهم أن تكون هذه المهمّات معروفة لدى الطرفين _المعلّم والأهل_ وأن تكون محدّدة وواضحة للطرفين وأن تتم الموافقة عليها من الطرفين.

من المهم أن يتفق الجانبان حول المواضيع المسموح للأهل التدخل بها بكل ما يخص الطالب، والأمور التي تكون حصرية للمعلم ولا مجال للتدخل بها.

- اظهار القدرة:

إنّ أساس ثقة الأهل بالمعلّمين هو اعطاء الأهل الشعور أنّ المعلّمين ماهرون من ناحية مهنيّة، ليس فقط أن يعلموا بذلك، بل عليهم أن يروا ذلك على أرض الواقع.

كيف يفعل المعلّم ذلك؟

يستطيع المعلّم أن يخصص وقتًا للأهل وأن يوضّح لهم الاعتبارات التي تكمن وراء القرارات، وأن يُظهر معرفة بالطالب، مزاياه واحتياجاته الخاصة، هنا تحضرني حادثة حقيقيّة حين أتى أحد الآباء للسؤال عن ابنه فكان جواب المعلّم "هو منيح بس لازم يشد حاله أكثر" فكان جواب الأب: "يا استاذ ابني مُتغيب عن المدرسة منذ شهرين ولم يسأل عنه أحد".

- المتابعة والاحترام الشخصي:

قد يبدو أنّ هذا الأمر بديهي لكن المتابعة واحترام الوعود، التصريحات، والأقوال من قبلكم هي من الأمور المهمّة لتوثيق

وترسيخ الثقة، من المهم أن يعرف الأهل أنّ كلامك موثوق به وأنك تفي بوعودك بصورة دائمة رغم المصادمات والمعارضات، يصعب علينا أن نعطي ثقتنا وأن نعتمد على شخص لا نتوقع تصرفاته أو لا يفي بوعوده بأوقات متقاربة.

- اعتبروا كل لقاء بمثابة فرصة:

علينا أن نتذكر أنّ بناء الثقة يتم من خلال التخالط بين الناس، والاختلاط والالتقاء مع الأهل هي فرصة لبناء الثقة أو كسر الثقة لذلك إذا اردتم أن تعملوا على بناء الثقة، فمن المهم لأن تعوا هذه الحقيقة.

"العلاقة مع الأهل: نعمة أم نقمة؟"

أود أن ابـدأ حـديثي هنـا باعـتراف صـغير مـنّي، لقـد عملـت في سـلك التعليـم في المـدارس لمـدة 29 عامًـا، منهـا 20 عامًـا كنـت مـديرًا لمدرسـة شـاملة مـن أكـبر مـدارس الـبلاد وأكثرهـا تعقيـدًا مـن ناحيـة اجتماعيّـة ودراسـيّة، خـلال فـترة عملـي بالإدارة امتـازت علاقـتي بالأهـل بالمـد والجـزر ولكـن كانـت جـزرًا معظـم الوقت...لقـد رأيـت بالأهـل عائقًـا كبـيرًا يـؤثر سـلبًا علـى العمليّـة التعليميّـة وعلـى الطـاقم التعليمـي بالخصـوص....لذلك عملـت جاهـدًا علـى ابعـاد الأهـل وعلـى وضـع العقبـات والحـدود أمـام محـاولاتهم للتـدخل في سياسـة المدرسـة أو تعيـين المعلمـين وفصـلهم وبالأسـاس التـدخل بطـرق التعلـيم والتـدريس والمنـاهج حيـث كـان كـلّ وليّ أمـر يحـاول أن يـدلي بـدلوه بالتعلـيم وأن يتـدخل كأنـه صـاحب نظـريات عالميّـة بالتعلـيم، وكثـيرًا مـا كـان يصـل الأمـر الى صـدام ومناوشـات قـد تصـل في بعـض الأحيـان الى اعـلان الاضـراب مـن الأهـل أو مـن الطـاقم التدريسـي في حالـة اعتـداء أحـدهم علـى أحـد المعلمـين أو العـاملين.... مـا زلـتُ أعتقـد حـتى هـذا اليـوم أنـه يجـب تحديـد وتعيـين طـرق ومجـالات تـدخل الأهـل بالعمليّـة التعليميّـة، رغـم مـا ذكرتـه أعـلاه إلّا أنـني لم أغلـق بابي يومًـا أمـام أحـدٍ، بـل بالعكـس، كـان بابي مفتوحًا على مصراعيه للأهل كأفراد وليس كمجموعة.

- تغييرات جذريّة في التربية والتعليم:

لقد تغيّر التعليم مؤخرًا تغيرًا كبيرًا، فقد أصبح الطلّاب بعيدين عنا ويدرسون في بيئة تحول فيها الأهل الى جزء أساسي من طاقم المدرسين، حيث إنهم أي الأهل الذين يرون أولادهم طوال الوقت، يقومون بمساعدتهم ويستطلعون حول مواضيع دراستهم، ماذا يدرسون اليوم وبأيّ ساعة وما هو المطلوب من أولادهم، لقد أصبحت العلاقة بين المعلم والأهل مهمة في كل الأوقات، وخاصة في هذه الأيام العصيبة.

في هذا العرض سأقوم بعرض طرق عمليّة لتحسين العلاقة بين المربين والأهل وذلك من أجل مصلحة طلابنا وأبنائنا:

كلمّا كانت العلاقة بين الأهل والمربين علاقة تواصل واتصال جيدة ومبنية على التعاون، كلما تكلل عمل المربين بالنجاح مع الطلاب، كلنّا نريد أن ينجح طلابنا وأن يتقدموا في الحياة، لكي نحصل على هذا الهدف ونُحققه يجب أن تتواجد هذه المعادلة المهمة: "قواعد مهمة للمربين للتعامل مع الأهل":

- الوقت:

تخصيص الوقت لا يُعتبر تبذيرًا، إذا قمتم ببذل جهد الآن فإنكم ستحصدون النتائج لاحقًا خلال فترة عملكم مع

الأهل ومع الطلّاب، إذا لم تستغلّوا هذا الوقت، فإنكم ستخسرون كثيرًا في المستقبل.

- الإصغاء والتعاطف:

أساس العلاقة مع الأهل هو الإصغاء، لذا لا ترفضوا ما يقوله الأهل والأهم من ذلك لا تقاطعوهم، "يؤسفني أن اقاطعك لكن..." هذه الجملة تغضب الناس كثيرًا، اصغوا للأهل حتى ينهوا حديثهم وتعاملوا مع مشاعرهم أيضًا وليس مع أقوالهم فقط.

- التأني بالإجابة: لا تعطوا جوابًا للأهل إذا لم تكونوا متأكدين من إجابتكم، بدل ذلك قولوا: "أشكرك أنك تشاركني، سأفكّر بذلك، سأفحص الأمر وأعود إليك حتى... خلال... ونفكر معًا ماذا سنفعل؟

- بناء العلاقة والثقة:

إذا وعدتم الأهل أنكم ستعودون إليهم، افعلوا ذلك! حتى لو كنتم لا تملكون الجواب لتساؤلاتهم.

بإمكانكم أن تقولوا: "عدت إليك لأننا اتفقنا على ذلك، لكن أعطيني مهلة أكبر،" الأساس لنجاح العلاقة هو الثقة، لا تعدوا الأهل شيئًا ولا تفوا به، إذا وعدتم ولم توفوا ستهدمون

الثقــة أو لــن تســتطيعوا بناءهــا أبــدًا، لا تعــد شــيئًا لا تســتطيع القيــام بــه، لا تعــدوا شــيئًا مُنافيًــا لقــوانين المدرســة أو ضــد رغبــة الإدارة....

- الشّراكة:

لا تفكــروا أو لا تقولــوا "نحــن" و "أنــتم"، قولــوا "نحــن" فقــط، لا احتكــار لأحــدٍ علــى الــذكاء والفطنــة، لا يوجــد "نحــن نعــرف وأنــتم لا" يوجــد تعلــم مشــترك وايجــاد حلــول مشــتركة، لا تحــاول أن تقلّــل مــن قيمــة الأهــل، حــتى لــو كــانوا بســطاء جــدًا، أعــطِ الأهل الاهتمام وابنِ معهم علاقة شراكة حقيقيّة...

- المبادرة:

حــاولوا أن تكونــوا أنــتم المبــادرون في علاقــتكم مــع الأهــل. لا تتصــلوا بالأهــل فقــط لتقــديم الشّــكاوي أو التــذمر مــن اولادهــم أو لتبلــيغهم بأمــور ســيئة قــد حــدثت، في حالــة حــدوث أمــر معــيّن شــاركوا الأهــل بمبــادرة مــنكم قبــل وصــول الأولاد إلى البيــت، أخــبروهم عــن علامــة تلقاهــا الطالــب، أو تصــرّف جميــل أو مبادرة قاموا بها بالمدرسة.

- تبادل الأدوار:

كلّنا بنهاية الأمر أهل، وكلنا لدينا أولاد بالمدارس وكلنا سنقف يومًا أمام مربي صف ابننا، ضعوا أنفسكم مكان الأهل، عاملوهم كما تحبوا أن يعاملوكم، اقبلوا لهم ما تقبلونه لأنفسكم وارفضوا ما ترفضونه لأنفسكم ولأولادكم....

إليكم ثلاثة ردود فعل ممكنة لتوجه أحد الأهل إليكم:

1. الامتناع عن الإجابة.
2. " اجابة سيئة ": اجابة رافضة وجافة، تصدّ فيها توجه الأهل.
3. " اجابة وديّة ": اجابة وديّة تقرب الأهل وتفتح المجال لحوار مفيد وناجح.

يعتبر عدم الرد اسوأ من الرد السيئ. حتى لو كانت الإجابة ضد رغبة الأهل، إلّا أنه سيعرف وضعه وأين يقف من المشكلة.

إنّ التجاهل هو عدم اعطاء الحل، أي حل وإبقاء الأهل في وضع غير واضح ممّا يؤدي الى عدم المعرفة والشّك والإحباط. هذا الأمر كثيرًا ما يدفع الأهل الى تصرف عدواني من خلال فهمه الخاطئ للوضع.

مثال: توجه الأهل للمعلم في فترة الكورونا.

توجه أحد الآباء إلى معلم الرياضيات: " ابني لا يستطيع التعلم عن بعد، شرحك بالرياضيات غير مفهوم والوظائف التي تعطيها صعبة جدًا ".

إجابة جافّة: هذا غير صحيح! أنا أعلّم جيّدًا! هو لا يريد أن يتعلم ويجد الذرائع لذلك.

إجابة وديّة: "شكرًا لتوجهك إليّ وابلاغي بذلك، مهم جدًا لي أن أعرف بالموضوع، لكي أستطيع أن أجد الحل للمشكلة، أخبرني بكل ما تعرفه عن الموضوع لو سمحت، كيف يشعر ابنك، ماذا يقول بالضبط؟ هذا بالتأكيد شعور سيء وعلينا أن نجد الحل بكل جديّة وبسرعة" هيّا نفكر سوية كيف يمكننا أن نساعد ابنك تحصيليًا وعاطفيًا."

كيف يمكن أن نجري محادثة ناجعة مع الأهل؟

- من المهم تحضير المحادثة مسبقًا، معرفة أهداف المحادثة، التفكير بسيناريوهات وعلى ردود مناسبة.
- يجب أن تكون لديكم معرفة تامة بأسماء الأهل، مكان سكنهم.... الخ.
- يجب تحديد المحادثة مسبقًا، تخصيص الوقت لذلك، استقبال الأهل بابتسامة والسؤال عن حالهم.

- يفضّل بدء المحادثة بحدث ودّي ومجاملات عامة، والتّحدث عن مواضيع خفيفة أو الأحداث اليومية التي لا علاقة لها بموضوع الحديث، يفضل أن تبدأوا بشيء إيجابي عن الأهل أو عن الطالب.
- من المهم عدم الانشغال بأمور أخرى خلال المحادثة، عدم السماح لعوامل خارجيّة (ضجّة، أشخاص) بأن يشوّشوا على المحادثة، اعطوا الأهل الشعور بأنهم أهم شيء لديكم الآن، لا تنشغلوا بالهاتف النقّال، لا تردّوا على المكالمات أو تتصلّوا، لا تخرجوا من الغرفة لأي سبب.
- سجلّوا نقاطًا مهمة خلال المحادثة، عند انتهاء المحادثة لخصّوا القرارات وودّعوا الأهل بابتسامة.
- انهوا دومًا بشيء ايجابي ومتفائل، يفضل أن تكتبوا بروتوكولًا وتعطوا الأهل نسخة منه كإشارة لجديّة نواياكم ومهنيتكم.
- استشيروا زملاءكم بالقرارت التي اتخذتموها.
- نفذوا القرارات ولا تبقوها حبرًا على ورق.

- نموذج للعمل: الإصغاء للكلام وما بين السطور، هذا النموذج يمنح المربين أداة لإجراء محادثات مفيدة مع الأهل.

هناك ثلاث مراحل لهذا النموذج:

- المرحلة الأولى: ما الذي يقوله ولي الأمر بالكلمات؟ فهم الأمور الواضحة التي ذكرها ولي الأمر.

- المرحلـة الثانيـة: مـا قالـه ولي الأمـر بـين السـطور؟ فهـم المغـزى الخفي.

- المرحلة الثالثة: ماذا عليّ أن أفعل؟ الفعل النابع عن الفهم.

مـن المهـم أن نوضّـح أننـا بحاجـة إلى جلسـتين منفصـلتين مـن الناحيـة الزمنيّـة، المحادثـة الأولى الـتي يتوجـه فيهـا وليّ الأمـر إلينـا أو العكـس حيـث نحصـل علـى المعلومـات الأوليّـة، المحادثـة الثانيـة تُعقـد بعـد أن انتهـى المـربي مـن التحضـير والاسـتعداد وقـام بدراسة الموضوع وتحضر له.

- تنبيه وتحذير:

كثـيرًا مـا نسـمع في غـرف المعلمـين جمـلًا مثـل: "فـش أهـل"، "مـش مـربيين"، "بخلفـوا وبرمـوا"، "المـدراس صـارت مضـبة"، "جيل تعبان" وما الى ذلك من أقوال نسمعها يوميًا.

وكثـيرًا مـا نسـمع أيضًـا "احنـا مـا النـا دخـل"، "خلّـي اهلهـم يربـوهم"، نتيجـة لـردود الفعـل هـذه، يقـف الأهـل عـاجزين لأن المدرسـة لم تجـد لهـم الحلـول لمشـكلتهم "خاصـة السـلوكيّة منهـا" ، ممّـا يـدفع الأهـل إلى التوجّـه إلى الحـل العشـائري والـذي يكـون أحيـانًا بإيعـاز مـن مـدير المدرسـة أو المعلـم، وعنـدها تحـل المشـكلة مؤقتًـا حـلًا عشـائريًا أو مثلمـا نقـول "علـى فنجـان قهـوة".... في هـذا الحـل تكمـن خطـورة كبـيرة مـن تهمـيش دور المدرسـة وحـتى

الغائـه، **ممّـا** يحجـب الثقـة عـن دور المدرسـة في حيـاة الطالـب وفي المجتمـع وعنـد حـدوث مشـكلة بـين طالـب ومعلـم يختفـي دور المدرسة وتُحل عشائريًا أيضًا وعلى "فنجان قهوة".

المعلم: رسالة بدون عنوان

يعتقد الكثير من المعلّمين أنّ الكورونا قد أظهرت وأبرزت أهميّة المعلّم بالنسبة للعمليّة التعليميّة والتربويّة، حيث إنهم يعتمدون بذلك على أقوال الأهل وتصريحاتهم مثل: "وين أيام المدرسة "، " والمدرسة أرحم "، لدرجة أن الكثير من المعلّمين أصابهم الغرور والنشوة الآنية وأطلقوا من على كل منبر، تصريحات وتفوهات تقول: "خليهم يعرفوا قديش المعلّم مهم"، وفي بعض الأوقات شعروا بشيءٍ من التشفّي والفرح حين شاهدوا معاناة الأهل وعجزهم عن التعامل مع أولادهم في فترة الكورونا وتواجدهم بالبيت. السؤال الذي أطرحه هنا هل بالفعل ساعدت الكورونا لدى المعلّم؟ هل عزّزت من مركزه بالمجتمع؟ هل غيّرت صورته لدى الأهل؟ ما هي تداعيات هذه الظروف على مستقبل المعلّم؟ أنا لن أتكلم هنا عن مصاعب المعلّم في مواجهة التعليم عن بُعد بواسطة الأدوات التكنولوجيّة، بل سأتطرق إلى مستقبل المعلّم بصورة خاصة وعلى الأمد البعيد...

ممّا لا شك فيه أنّ جائحة الكورونا، على الأمد القصير، قد أظهرت أهميّة المعلّم، وحاجة المجتمع المتمثّلة بالأهل، له ولخدماته التي يقدّمها للطلّاب من ناحيّة تعليميّة، والخدمة

التي يقدّمها للأهل بأنه " يَضُب " أولادهم كي يتمكنوا من الخروج إلى العمل بحريّة وأمان.

على الأمد البعيد، برأيي، إنّ جائحة الكورونا قد أضرّت بمركز المعلّم وقد أُبالغ حين أقول إنّها أضرّت بمستقبله، ولا أريد أن أقول إنّها " قضت " على مستقبله.... كما ذكرت سابقًا أنّ الكورونا أظهرت حاجة الأهل له، ولكن من جهة أُخرى أظهرت الأمور التالية:

- عجز المعلّم عن التعامل مع متطلبات العصر الحديث من تكنولوجيا واتصالات وتحديثات كثيرة، يتفوق بها الطالب درجات على المعلّم، ممّا يجعل المعلّم يفقد دور الصدارة والقيادة بالعمليّة التعليميّة.
- أظهرت فترة الكورونا فشل وسائل التعليم وطرق إدارة الصفوف، التي أصبحت قديمة وغير ملائمة لمتطلبات التعليم عن بُعد.
- أظهرت فترة الكورونا وجود فجوات بين جمهور المعلّمين القدماء والمعلّمين الجدد، حيث وقف المعلّمون القدماء عاجزين عن تلبية احتياجات الطالب من النواحي التعليميّة، العاطفيّة والتربويّة.
- همشّت فترة الكورونا المواد التعليميّة وأفرغتها من مضامينها وركزّت على الجانب التكنولوجي منها، ولعب المعلّم دورًا كبيرًا

في ذلـك حيـث إنـه ركّـز علـى الجانـب التكنولـوجي متناسـيًا المـادة الأساسيّة التي من أجلها يستعمل الأداة والوسيلة الالكترونيّة.

- لقـد أفرغـت جائحـة الكـورونا الاسـتكمالات والـدورات الـتي مـرّ بهـا المعلـم علـى مـدار سـنوات حيـث إنهـا أصـبحت أمـرًا قـديمًا باليًـا" أكـل الـدهر عليهـا وشـرب "، وأصـبحنا بحاجـة إلى نمـط جديـد مـن الاسـتكمالات، والـذي كـان يعـدُّ غريبًـا دخـيلًا علـى المعلّم والطالب.
- أظهـرت الكـورونا عجـز مـديري المـدارس عـن إدارة مدارسـهم وبالأسـاس إدارة شـؤون معلّمـيهم، كمـا وأظهـرت عـدم قـدرتهم علـى إيجـاد البـدائل للمتغـيّرات المتسـارعة في مجتمعنـا بكـل مـايخص إدارة الأزمـات والمصـاعب ضـمن حـدوده المسـموحة لـه في ظل هذه الأزمة.

هذه بعض الأمور التي استجدّت نتيجة للوضع الراهن:

السـؤال الـذي يطـرح نفسـه بقـوّة: أيـن مسـتقبل المعلّـم مـن هـذا؟ هـل سـيبقى المعلّـم في مركـز العمليّـة التعليميّـة أم هـل سـيتم الاستغناء عنه؟

تشـير الكثـير مـن الأبحـاث والتّكهنـات إلى أنـه حـتى سـنة 2050 حـوالي 90% مـن الوظـائف والأشـغال سـوف تختفـي مـن حياتنـا، اذ أنهـا ستسـتبدل بوسـائل تكنولوجيّـة عصريّة، سهلة الاستعمال وغير مكلفة ماديًا.

هـذه الوظـائف ستصـبح جـزءًا ممّـا يسـمّى الـذكاء الاصـطناعي، فالسـيّارة ستمشـي لوحـدها والعمليّـات الجراحيّـة سـيقوم بإجرائهـا الانسـان الآلي ومـا إلى ذلـك، نتيجـة لهـذا، هـل سـيختفي دَوْر المعلّـم أيضًـا؟ يؤسـفني أن أقـول إنّ الجـواب علـى الأرجـح هـو: نعم.

للأسـف الشـديد مـا كانـت جائحـة الكـورونا إلّا مقدمـة أو اختبـار لـذلك المسـتقبل المريـر، هـل سـنحتاج إلى الشـخص المدعو معلّم في ذلك العصر؟

الجواب هو لا...

في مقابلـة تلفزيونيّـة للسيد أحمـد أبـو الغـيط، الأمـين العـام لجامعـة الـدول العربيّـة، وفي سـياق مختلـف، قـال إنـه لا يخـاف علـى الشـعب الفلسـطيني حيـث إنـه يحتـلّ المركـز الأول في العـالم العـربي مـن حيـث حـاملي شـهادة الـدكتوراة، مـن ناحيّـة أخـرى فـإنّ نسبة الأميّة في بلادنا تكاد لا تُذكر...

رغـم أنّنـا لا نملـك الإمكانيـات الكبـيرة جـدًا إلّا أنّنـا نحتـل مركـزًا عاليًـا مـن حيـث وجـود الوسـائل التعليميّـة والمـدارس الحديثـة نسـبيًا، وكمـا يـتم رصـد الميزانيّـات العاليـة لموضـوع التربيّـة والتعليم...

إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم نُصبح " فنلندا " في التعليم؟ لماذا ما زلنا نتذيل قوائم الدول في الامتحانات الدوليّة؟ ما هو المطلوب لكيّ نُحافظ على المعلّم وعلى مركزه؟ يؤسفني أن أقول إنّ من الأمور التي ستحدث مستقبلًا هي اختفاء النقابات العماليّة بما فيها نقابات المعلّمين حيث سيصبح المعلّم "مكشوفًا" ومعرّضًا للإقالة والطرد والاستغناء عن خدماته بسهولة أكبر... يبدو أنّني قد أصبتكم بالإحباط والاكتئاب، لم تكُن هذه نيّتي أو قصدي...

آن الأوان أن نصحو وأن نتخذ خطوات عمليّة لتفادي هذا المستقبل المظلم في حياة المعلّم.

الحل حسب رأيي يكمُن في مقدرتنا على تغيير شخصيّة المعلّم بالأساس وتغيير عمله، فالحل هو المعلّم، المعلّم ثم المعلّم... في أحد المقالات التي قرأتها منذ زمن طويل كان مقالًا بعنوان " نساؤنا ونساؤهم "، في هذا المقال يتطرق الكاتب من بين شتّى الأمور التي يتطرق إليها إلى موضوع الشرف في مجتمعنا العربي وموضوع الشرف في الغرب....

كلّنا نعرف معنى الشرف وما هي الأمور المتعلّقة بشرف العائلة وغيرها من أمور شرقيّة تقليديّة، ممّا جذب انتباهي أنّ الشرف في الغرب يتطرّق لمصطلحات مخالفة مثل : الاستقامة، الإخلاص بالعمل، أخلاقيّات العمل، التطوّع

والعمل الجماهيري... باعتقادي أن المعلّم العربي يبذل 30% من طاقته فقط في التعليم... تنقص المعلم برأيي الاستقامة والإخلاص في العمل فهو كثير التذمر والغياب، حتى أننا خصصنا جائزة للمعلّم الذي لم يتغيب عن المدرسة، يرفض بذل مجهود إضافي بعد ساعات الدوام أو بنهايات الأسبوع، يتهرّب من المسؤوليّة، يجد دائمًا الذرائع والحجج قبل المباشرة بالعمل، تعوّد ألّا يخطو خطوة واحدة قبل الحصول على مقابل مادي لذلك، معظم معلّمينا يمتهنون التعليم كمهنة وحيدة لا يوجد بديل لها، فنرى المعلّمين الشباب منهكين، متآكلين قبل أن يبدؤوا بالتعليم، فلا انتماء ولا رسالة نصب أعينهم... إذا استكملوا فإنهم لا يستكملون للاستفادة وإنما لتحصيل النقاط والاستحقاقات، أكبر مثال على ذلك عندما كان المعلّمون يستكملون بموضوع الرحلات حيث كانوا يدفعون للحصول على النقاط ،رغم عدم اشتراكهم إلى أن قامت الوزارة بإلغاء هذه الاستكمالات لكن بعد فوات الأوان.... كل هذه الأمور عليها أن تتغير عند المعلم وإذا لم يتغيّر فإنه سيتم الاستغناء عنه مستقبلًا.

من الناحية المهنيّة:

الناحيّة المهنيّة لا تقل أهميّة عن الناحيّة الشخصيّة لذا فإنني أقترح ما يلي:

1. أن يتم التركيز في العمليّة التعليميّة على الكيف لا الكم: فمن المفضل أن نعلّم مادة أقل بينما نتعمق أكثر بموضوع الفهم في كل موضوع والتركيز على التمكّن من المادة وليس من الدراسة بهدف تحقيق النجاح بالامتحانات.

علينا أن نغيّر طرق التعليم وأن نخصّص وقتًا وجهدًا لتعليم مصطلح أو مهارة لفترة طويلة حتى يستطيع الطلّاب التمكّن من هذه المادة لدرجة لا نحتاج العودة إليها مرة أخرى.

(عندنا نعلّم المادة ونعود إليها بعد أسبوع لنجد أن الطلّاب قد نسوها).

2. يجب أن يتم التشديد على اختيار المعلّمين: يجب التأكد من مناسبة المعلم لهذه المهنة، أن نفحص المعلم جيدًا. اليوم التعيينات تتم دون معرفة المدير للمعلم، (مثل البطيخة) ويحتاج المدير إلى سنة للتخلّص منه إذا لم يكن مثبتًا أما إذا كان مثبتًا فقد تزوج المعلم زواجًا كاثوليكيًا لا طلاق فيه، أو أن يتم " تزهيقه " من قبل المدير فينتقل المعلّم من مدرسة إلى مدرسة تاركًا وراءه الكثير من الضرر و"الضحايا " البشريّة من الطلاب.

3. التطوير المهني:

- يجب أن يكون التطوير المهني مستمرًا، وحسب تطور مهني شخصي مبني بصورة شخصيّة لمواصفات المعلم. يجب أن يكون التطوير بالتربيّة المنهجيّة واللّامنهجيّة في آنٍ واحد.
- على المعلّم أن يكون حاصلًا على اللقب الثاني، هذا اللقب عليه أن يكون في موضوع المادة التي يعلّمها وليس في مواضيع أخرى مثلما نرى في أيامنا هذه من مواضيع شتّى لا علاقة لها بالتعليم ويكون هدفها فقط زيادة راتب المعلم، يجب أن يتمركز التطوير المهني بالمواد التي يجب أن يعلّمها المعلم وكيفية تعليمها (كثيرًا ما نرى معلّمين مادة معينة يفشلون بامتحانات المادة نفسها، الرياضيّات كمثال لذلك).
- التعلّم بمجموعات تعليميّة، يقوم المعلّمون فيها بالتعلّم وفحص المواد التي يتعلّمونها بصورة مشتركة ويتبادلون خبرات التعليم العملي الذي يستعملونه في هذه المجموعات، يتعلّم المعلّم من زملائه كأفراد وجماعات، يتبادل معهم المواد، يتفحصّها، يكوّن معهم معرفة ومعلومات قيّمة لطلابهم ويتشاركون به مع المعلّمين الآخرين في المجموعة.... هنا يُجبر المعلّم على التفاعل، المشاركة، المبادرة، التطوّر، التجربة، فحص نفسه وفحص الآخرين له...ولكل مجتهدٍ نصيب.

خاتمة:

اتركوا لي الدُعاء والكثير من الحُب..

أتمنى أن ينال اعجابكم، أو على الأقل، أن أترُكَ أثرًا جميلًا لأحدكُم في يومٍ من الأيام..

أيمن جبارة

الفهرس:

العنوان	الصفحة
إهداء..	2
المقدمة.......................................	3
الصراحة مش راحة..........................	4
موسم الهجرة الى اسطنبول................	10
إبعد تِحلا....................................	16
آراب تايم....................................	23
والحبل على الجرار..........................	30
عودة الضمير الغائب........................	36
العشق الممنوع	43
أنا زومبي.....................................	48
المعلق فوق...................................	51
الكرسي بتنسي...............................	56
الشيطان يَعظ................................	62
اللي برخص تجارته بتبور..................	66
أن تكونَ مسؤولًا	72
أمثالنا تفضحنا..............................	77
إن كبر ابنك خاويه.........................	82
أنا دمّي فلسطيني...........................	86

حلّاق القرية........................ 93
انت وحظك........................ 100
حمير القمم........................ 104
أين نحنً من........................ 110
تربيتنا........................ 115
تيك توك بوم........................ 118
ثلج ثلج عم بتشتي الدنيا ثلج........................ 124
بالتي هيَ أحسن........................ 129
حج سبع نجوم........................ 135
حفلات –حفلات –حفلات........................ 140
كلاسيكو العرب........................ 145
دافنينه سوا........................ 150
ذاكرة للنسيان........................ 157
سبايا العرب........................ 184
شكرا رمضان........................ 171
شوفوني يا ناس........................ 175
صاروخ أرض أرض 181
فيها إنّ........................ 186
كاسك يا وطن........................ 194

لكل امرئ من اسمه نصيب........................ 198

يا ساتر 203

أبو بعير................................. 208

منصات.................................. 214

للنساء فقط................................ 217

للرجال فقط............................... 223

نبتدي منين الحكاية........................ 230

وداعًا 2021 235

من غشنا فهو منا............................ 242

ملح الأرض................................ 247

فلاتر...................................... 252

رمضان ممنوع من الصرف.................... 256

أن تكونَ سمينًا............................. 262

خبرتي التربوية............................. 267

المعلم والنظريّة الفهلوية....................... 268

الرؤية المدرسية ضرورة أم موضة................. 279

الكم اللحم والنا العظم......................... 291

العلاقة مع الأهل نعمة أم نقمة.................. 303
المعلم: رسالة بدون عنوان........................ 312

الخاتمة... 320

المراجع:

كتاب: الأعمال الكاملة/ سلام الراسي/ حكي قرايّا وحكي سرايّا/ شيح بريح..

كتاب: وإذا الصحف نُشرت/ أدهم الشرقاوي..

تم بحمد الله